American University of Beirut
University Libraries

Donated by
Muhieddin Yussif

جامعة الملك عبد العزيز

CA
379
D876dA
V.1

الدولة والتعليم

العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية

(١)

حسن الدجيلي

مطبعة بغداد - بغداد ١٩٥٢

المقدمة

هـذا كتاب يبحث في نوعين من انظمة الحكم : في الـدول « الديمقراطية » وفلسفتها التربوية ، وفي الدولة « الكلية » (من شيوعية ونازية وفاشيستية) وعقائدها التربوية ايضا . ويحاول ان يظهر تأثير العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في كل نظام تربوي ، ليدل القاريء على صلة التعليم بالدولة وفلسفتها ، وبماضي الامة وحاضرها ومستقبلها ، وليدله كذلك على ان لكل امة حية فلسفة اجتماعية ، ولكل فلسفة اجتماعية نظرية تربوية ، ولكل نظرية تربوية طرائقها واهدافها ومريديها ، وان التعليم وظيفة من وظائف الدولة الاساسية ، لا شأنا من شئون الناس الاعتيادية .

وقد اعتمد موئلف الكتاب على عدة مراجع حديثة يجدها في آخر كل قسم من اقسام الكتاب ، وبحث كل نظرية سياسية وتربوية بحثا « موضوعيا » بعيدا عن الاندفاع والانفعال ، وارجأ تطبيقاتها العملية الى مجلد آخر سيطبع عما قريب . ويسره ان يقدم هـذا المجهود المتواضع الى المربين والسياسيين والمثقفين كافة لعلهم يجدون فيه متعة وفائدة .

بغداد : كانون ثاني ١٩٥٢

حسن الرجبلي

الفهرست

الصفحة

الدولة والتعليم

١ ـ تمهيد ١
٢ ـ في التبدل الاجتماعي ٥
٣ ـ طريقة التبدل ـ التطور او الثورة ٧
٤ ـ المواطنة والفردية ١٥
٥ ـ التعليم في الدولة الكلية ١٨

انواع الدول

١ ـ مفهوم الدولة ٢١
٢ ـ الدولة الديمقراطية ٢٤
٣ ـ الدولة الكلية ٢٥
٤ ـ الطغيان الشيوعي ٢٦
٥ ـ الطغيان الكلي ٢٧

١ ـ الدول الديمقراطية

١ ـ الديمقراطية والمذهب الحر والمذهب الفردي .. ٢٩
٢ ـ الديمقراطية والرأسمالية ٣١
٣ ـ اسس النظرية الديمقراطية :
١ ـ احترام قيمة الانسان ٣٣

الصفحة

٢ ـ المساواة في المنزلة ٣٣
٣ ـ الحرية الشخصية ٣٤
٤ ـ الديمقراطية السياسية ٣٥
٥ ـ الحريات المدنية ٣٦
٦ ـ الاعتقاد بالتربية ٣٧
٤ ـ نمو الحركة الديمقراطية ٣٨
٥ ـ الديمقراطية ... ما نواقصها ؟ ٤١
٦ ـ جون ادامز ٤٢
٧ ـ اتهامات يثيرها علم الحياة وعلم النفس ٤٤
٨ ـ اتهامات يثيرها علم الرس ٤٨
٩ ـ اتهامات اخرى ٤٩

التربية الديمقراطية

١ ـ ملامح التربية البريطانية ٥٦
٢ ـ ملامح التربية الامريكية ٥٩
٣ ـ علاقة التربية بالنظام الاجتماعي ٦٠
٤ ـ امريكية ليست امة ٦٢
٥ ـ الآراء القائمه والمصالح المركزة ٦٤
٦ ـ طبيعة التربية الديمقراطية والتزاماتها ٧٠
٧ ـ الملامح الذاتية للتربية ٧١
٨ ـ الملامح الظاهرية ٧٢
٩ ـ تربية الاحرار ٧٤

الصفحة

١٠ ـ ما ولاءات الاحرار ؟ ٧٤
١١ ـ المعارف الضرورية للاحرار ٧٥
١٢ ـ انضباط الرجل الحر ٧٦
١٣ ـ طريقة تكوين الانضباط الديمقراطي ٧٨
١٤ ـ من مشاكل التربية الديمقراطية :
١ ـ النظام الموحد ٨١
٢ ـ الشعور الطبقي في التعليم ٨٣
٣ ـ الدعاية في التربية ٨٦
٤ ـ تدريس الوطنية ٨٩
٥ ـ المنافسة في التعليم ٩٢
٦ ـ التعليم العالي وحرية الرأي ٩٤

الدول الكلية

١ ـ التعبئة الكلية واساليبها ١٠٢

١ ـ الدولة الشيوعية

١ ـ المادية الجدلية ١٠٥
٢ ـ الاشتراكية الافلاطونية ١٠٧
٣ ـ الاشتراكية الطوبائية ١٠٨
٤ ـ الاشتراكية العلمية ١٠٩
٥ ـ المادية الجدلية ١١٢
أ ـ مبدأ الدايلكتيك ١١٢

الصفحة

٣ ـ مبدأ التفاعل ١١٥
٣ ـ مبدأ المادية البايولوجية ١١٦
٤ ـ مبدأ المادية التاريخية ١١٦
٥ ـ مبدأ التمرين ١١٧
٦ ـ المادية التاريخية ١١٩
٧ ـ صراع الطبقات ١٢٩
٨ ـ وظيفة الدولة ١٣٧
٩ ـ فعل الارادة في التبدل ١٣٩
١٠ ـ نظرية تلاشي الدولة ١٤٠
١١ ـ فترة الانتقال الثورية ١٤٣
١٢ ـ اسس التربية الماركسية ١٤٧
١٣ ـ التربية السياسية ١٤٨
١٤ ـ لينين والماركسية والتربية ١٥٢
١٥ ـ لينين والاصلاحات التربوية ١٥٤
١٦ ـ التربية سلاح ١٥٧
١٧ ـ التربية بعد لينين ١٥٧
١٨ ـ نظرية تلاشي المدرسة ١٦٠
١٩ ـ الاتجاهات المتطرفة في التربية ١٦٣
٢٠ ـ الغاء المتناقضات التربوية ١٦٦
٢١ ـ غرس الروح الوطنية ١٦٨
٢٢ ـ تدريس التاريخ ١٧٤

الصفحة

٢٣ ـ اعداد القادة ١٧٨
٢٤ ـ القرارات العقائدية ١٨١

٢ ـ الدولة النازية

١ ـ نشوء الرايخ الثاني ١٩٠
٢ ـ نشوء الرايخ الثالث ١٩٢
٣ ـ فيشته ـ الرسول الاول ١٩٥
٤ ـ هيكل ـ الرسول الثاني ١٩٨
٥ ـ نظرية الزعيم ٢٠٢
٦ ـ الرس والدم ٢٠٣
٧ ـ النزعة اللاعقلية ٢٠٨
٨ ـ ليست في الدنيا حقائق عامة ٢١١
٩ ـ نظرية العنف ٢١٢
١٠ ـ الاشتراكية النازية ٢١٣

التربية النازية

١ ـ من يملك الشباب يملك المستقبل ٢١٨
٢ ـ نظرية التنسيق ٢١٩
٣ ـ تدريس الرياضة البدنية ٢٢٢
٤ ـ تدريس العلوم ٢٢٣

٣ ـ الدولة الفاشيستية

١ ـ مازيني ٢٢٩

الصفحة

٢ ـ موسوليني ٢٣٠
٣ ـ موسوليني والدولة ٢٣٤
٤ ـ نظرية الصفوة المختارة ٢٣٨
٥ ـ الدولة النقابية ٢٣٩
٦ ـ العدوان في الفاشيستية ٢٤٢

التربية الفاشيستية

١ ـ فلسفة جنتيلي التربوية ٢٤٤
٢ ـ « اعتقد ، واطع ، وحارب » ٢٥٣
٣ ـ الخاتمة ٢٥٨

الدولة والتعليم

تمهيد

كان التعليم في اوروبا وآسيا ، في الاعم الاغلب ولعدة قرون ، شأنا من شئون الناس اليومية تتعهده الكنائس والمعابد والجوامع والجمعيات الخيرية والدينية . ثم اتخذ اهمية جديدة بظهور الدولة القومية في اوروبا . فقد استطاعت هذه الدولة ان تؤسس مدارسها الخاصة ، وان تجعل التعليم دنيويا لا دينيا ، وان تسيطر به على تربية الافراد . وكان للثورة الافرنسية والقومية الالمانية تأثير عظيم في ذلك . فقد اقر مفكرو الثورة الافرنسية وقادتها ان الطفل يعود الى الدولة ، وانها وحدها مسئولة عن تربيته واعداده للحياة العاجلة والآجلة ، واقر قادة الحركة القومية في المانية بصورة عامة وفي بروسيا بصورة خاصة هذا المبدأ ايضا ، وحبوا المدارس والجامعات مؤسسات حكومية لا يجوز لاحد او جهة ان تؤسسها الا بمعرفة الدولة وموافقتها . وبظهور « الدولة الكلية » Totalitarian من شيوعية وفاشستية ونازية اكتسب التعليم صفة خاصة واهمية عظيمة واصبح ميدانا من ميادين الدولة ، وأداة من ادوات الكفاح السياسي والوعي القومي والثقافة القومية ، ووظيفة من وظائف الدولة الخاصة .

هذا ما حدث في كل من فرنسة والمانيا وروسيا . اما في انكلترة والولايات المتحدة فقد كان التعليم « اهليا » في باديء الامر ، تديره

الكنائس والجمعيات الخيرية من دينية ومدنية ، وقد بذل رجال الدين والفكر في انكلترة جهودا عظيمة لابعاد الدولة عن ميدان التربية والتعليم ، وجاهدوا جهادا طويلا معروفا . الا ان الدولة لم تقف مكتوفة اليدين تجاه التعليم ، بل استطاعت في عملية تاريخية مستمرة ان تحرر نفسها من نظرية عدم تدخل الدولة في شئون التعليم لاسيما بعد نمو الدولة القومية في القرن الثامن عشر ، فتأسست الى جانب المدارس الكنسية الاهلية مدارس حكومية ، واخذ التعليم يتحول شيئا فشيئا من تعليم ديني طائفي الى تعليم دنيوي مدني حتى آل الامر ان اصبحت الدولة اليوم تدير وتشرف على عدد كبير من المدارس الابتدائية والثانوية والمهنية بوساطة سلطات التعليم المحلية .

وبانتقال انكلترة من دولة ديمقراطية رأسمالية تؤمن بنظرية التسيب (ليسه فير) الى دولة ديمقراطية اشتراكية تؤمن بتأميم المرافق العامة والصناعات ذات الطبيعة الاحتكارية عن طريق التشريع والتعويض انتقلت معها جميع المؤسسات الاجتماعية وتطورت تطورا عظيما ، بما في ذلك المدارس .

وبعد ان كان التعليم وقفا على طبقة خاصة من الناس ، (الاغنياء دون الفقراء) اصبح اليوم الزاميا في اكثر اقطار العالم المتمدن ومجانيا في اغلب مراحله ، وبعد ان كانت نفقاته قليلة اصبحت اليوم باهظة جدا . حتى لقد بلغ عدد الذين يذهبون الى المدارس يوميا في كل من الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي ربع عدد السكان تقريبا !

فما الذي تتوخاه الدولة من بذل هذه الجهود الجبارة وصرف هذه النفقات الطائلة على شئون التربية والتعليم ؟ أتريد ان تعمم

القراءة والكتابة والحساب بين ابناء الامة ، وتقضي على الامية والجهالة وتجعل من ابنائهـــا مجموعة متعلمة مثقفة ؟ ام تريد ان تجعل منهم « موظفين » يملأون دوائر الحكومة و « مستخدمين » يعملون في الشركات والموسسات التجارية ؟ ام تتوخى ان يكونوا « رعية » محكومين بل مطايا تستخدمهم وتستغلهم الطبقات البورجوازية لتحقيق اغراضها النفعية ! ماذا تريد الدولة ، وماذا تستهدف من عملية التربيـــة ، ومن انفاقها واشرافها على شئون التعليم ؟ هل تريد ان تجعلهم « افرادا » مستقلين ، واحرارا ثائرين ، يريدون ان يقيموا مجتمعا جديدا وفق خطة مدروسة ، ام تريدهم ان يكونوا اشخاصا هدامين ناقمين يريدون « تقويض » النظام القائم بشخوصـــه ومعالمه ومقوماته واقامة نظام جديد لا تربطه بالماضي ولا بالحاضر صلة ؟ واخيرا ، ماذا تتغيا الدولة ، أتريدهم ان يكونوا « مواطنين » يخضون لسلطان الدولة وسيطرتها ويتمتعون بقسط من الاستقلال ، ويعرفون ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، ويدركون ان حقوقهم ليست الا منحة من الدولة تستطيع ان تنتزعها منهم متى شاءت وكيفما شاءت وانيّ شاءت ؟

فاذا ارادت الدولة ان تقوي في نفوس ابنائها روح « المحافظة » ، وتجعلهم رجعيين يعافون التجديد ويترعرعون على عبادة القديم وتقديسه ، ويجأون الى سياسة القمع والارهاب للقضاء على كل حركة جددية يتمخض عنها مجتمعهم، وتتعرض فيها قيمهم الاجتماعية الى النقد والتجريح والتعريض ، واذا ارادت ان تحافظ على مخلفاتها الاجتماعية ، ساءت ام حسنت ، كانت دولة « رجعية » لا تعترف بقدرة الفرد على الابداع والابتكار ، ولا تدرك حقيقة تطور المجتمعات الانسانية وانتقالها من

مرحلة تاريخية الى اخرى . وسرعان ما تتعاور هـذه الدولة النكبات والازمات ، وتتمخض عن انقلابات وثورات ووثبات تقوض كيانهـا وتعرض مقوماتها الحضارية الى التلاشي والانهيار . اما اذا شاءت هذه الدولة ان تبني كيانا اجتماعيا جديدا لا يمت في قليل او كثير الى ماضي الامة او حاضرها صارت دولة « ثوروية » تريد ان تحيا « حياة » جديدة في ظل « فلسفة » جديدة . اما اذا شقت لها طريقا « وسطا » ، فاعترفت بتراثها الاجتماعي فأخـذت منه احسنه ، واوجدت الصلة بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها صارت امة « وسطا » ، وسارت في تبدلها الاجتماعي سيرا « ديمقراطيا تطوريا » ، وضمنت لنفسها استقرارا ، ولمستقبلها ازدهارا .

ولكن كيف يحدث التبدل وما طريقته واسبابه ؟

في التبدل الاجتماعي

يعيش الناس عادة في مؤسسات اجتماعية كثيرة ومتنوعة ، فيتعاطون اعمالهم اليومية فيها ، وينظمون علاقاتهم الاجتماعية بها . وهي موجودة قبل ولادتهم ، وباقية بعد وفاتهم . وهي ، في الاعم الاغلب ، ليست من صنع ايديهم ، وانما من صنع اجيال سبقتهم . وقد يحاولون تحويرها او تبديلها ، الا انهم لا يستطيعون الاستغناء عنها . واذا كانت الكثرة البالغة منهم راضية بهذا العيش ومطمئنة اليه فان هذا الرضى منبثق من الاعتراف بالامر الواقع والاستسلام اليه اكثر مما هو منبثق عن ارادة عامة . ومما لاشك فيه ان هذا الرضى هو الذي يقيم المجتمع وهو الذي يمده بالاستقرار والاستمرار . وبعبارة اخرى هو الذي يهيىء له وسائل التجديد والتوليد . « وتتجمع قوانين الامة وعرفها السائد ومعاييرها في القيم وعلاقاتها في الملكية قاطبة لتؤلف نمطا اجتماعيا social pattern او طريقة في الحياة ، way of life يكون فيها التوافق conformity هينا وطبيعيا . ومن اجل هذا تصبح مؤسسات اي مجتمع من المجتمعات ، بطبيعتها الخاصة ، محافظة ، وتخلد ذاتها بذاتها . وهذا اول قانون من قوانين بقائها » (١) . وتصبح المدرسة ، وهي احدى مؤسسات المجتمع ، محافظة ايضا .

الا ان هذه المؤسسات لا تستطيع ان تدوم ما لم تكن قادرة على ان تكيف نفسها جيلا بعد جيل لتواكب حاجات العصر ومستلزماته . ان

---

(1) Wasserman, Louis, Modern Political Philosophies P., 1.

هذا التكيف المتواصل هو الذي يسميه علماء الاجتماع « بالتقدم » . وقد برهنت الحوادث على ان خلود اي تنظيم اجتماعي ، مهما كانت طبيعة ، ليس الا وهما من الاوهام . فما من قيمة اجتماعية تستطيع ان تفرض نفسها على شعب من الشعوب وامة من الامم وتبقى هي هي تتحدى سنن التطور وطبيعة الاشياء .

وقد اتفق العلماء على ان من بين المؤسسات الاجتماعية العديدة التي ابتدعها المجتمع ، واثرت في حياته كل التأثر هي : الحكومة والنظام الاقتصادي والمدرسة . فالحكومة هي المرجع الاعلى لجميع السلطات ، والمرجع النهائي لفض جميع الخلافات والنزاعات في الداخل والخارج . والنظام الاقتصادي هو دعامة حياة الناس ، فعلى تنظيمه وتمشيته تتوقف حياة كل فرد من الافراد . وتتصل هاتان المؤسستان بعضهما ببعض اتصالا وثيقا . اما المدرسة فقد اخذت اهميتها في المجتمعات العقائدية الحديثة تزداد يوما بعد يوم ، وهي اعظم وسيلة يستخدمها المجتمع الحديث في توليد ذاته وتجديد كيانه .

ان جميع الحركات الاصلاحية تدور في الوقت الحاضر حول اجراء التبديلات الضرورية في التنظيمات السياسية والاقتصادية ، وفي وظائفها . ولا يصح ذلك على حركة سياسية معينة حسب ، بل ينطبق على النظرية « الفوضوية » التي ترمي الى الغاء « الحكومة » الغاءا نهائيا ، كما ينطبق على « الفاشية » التي تجعل من « الدولة » اداة تسيطر بها على جميع مقومات الحياة .

طريقة التبدل ـ التطور او الثورة :

وتجري التبدلات في النظم السياسية والاقتصادية عادة اما بالتدرج القائم على الرضى المتبادل ، واما بالثورة القائمة على الحقد المتأصل . فاذا كان النمط الاجتماعي social pattern مرنا وقادرا على ان يكيف نفسه الى التبدلات التي تسببها الاختراعات الحديثة وتبعثها حاجات الانسان الجديدة كان ذلك ادعى الى الاستقرار واضمن الى التقدم . وقد تنزل هذه التبدلات بعض الضرر في مصالح طبقة من الناس ، فتنطوي على نفسها، وتغلي مراجلها بالحقد والضغينة. وقد تسبب نفعا لطبقة اخرى، فتنقشع الغمة ، وتحل النعمة محل النقمة . ومع هذا ، فكثيرا ما يخضع المتضررون للامر الواقع، ويكيفون انفسهم لهذا التطور الجديد، وتمتصهم المؤسسة الاجتماعية وتمثلهم . وتعد انكلترة مثلا كلاسكيا رائعا لعملية التطور التدريجي في المؤسسات السياسية والاقتصادية . اما اذا كانت القوى المادية والفكرية في زيادة مطردة ، وكان رجالها يطالبون باجراء تبدلات فيها ولا يجدون الا آذانا صماء ، واذا كان الوعي الاجتماعي قد بلغ اشده فمن المحتمل جدا ان يستقبل ذلك المجتمع عهدا من الانتفاضات والثورات تضيع فيه جهود كثيرة وتسيل فيه دماء غزيرة . وعندئذ يحدث في النظم الاجتماعية « انقلاب » لا « تكيف » ، وتصبح عملية التجديد عملية « ثورية » لا « تطورية » ، كما حدث في الثورة الفرنسية والثورة الروسية مثلا .

فلماذا حدثت هذه الحركات الاجتماعة ، وما اغراضها ، وما السبيل الذي سلكته لتحقيق اغراضها . وما علاقة ذلك بالتعليم ؟

يبدأ تاريخ الحركات الاجتماعية الحديثة بانتقال المجتمع

الاوروبي من النظام الاقطاعي الى النظام الرأسمالي . فحينما انهارت الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس انهارت معها وحدة اوروبا التجارية والسياسية ، وحينما ذهبت السلطة المركزية انكمشت كل قومية على نفسها وتراجعت الى حدودها ، واضطربت طرق المواصلات الرئيسية وضعفت حركة التجارة في كثير من المدن . وكانت الصناعة يدوية ينظمها لفيف من التجار الذين استطاعوا ان يسيطروا على العمال ويتحكموا في اثمان سلعهم ، ويحتكروا المواد الخام . ومع ان هذه الصناعة اليدوية قد قامت بخدمات كثيرة الا انها لم تكن باعثا على الابداع والاختراع ، ولا سببا في زيادة رؤس الاموال ، ولا عاملا من عوامل نشر الثقافة .

وكان القسم الاعظم من افراد هذا المجتمع الاقطاعي يعيش في هيئات اجتماعية زراعية منظمة ، تعول نفسها بنفسها ، وكانت الاقطاعية الصغيرة من اهم خصائص الحياة الاجتماعية . ففيها قلعة الاقطاعي ، تحيطها اكواخ حقيرة يسكنها الخدم والفلاحون ، وعلى مقربة منها الاراضي الزراعية . وكان العبد خادما لسيده الاقطاعي ، لصيقا بالارض لا يفارقها . وكانت اساليبه الزراعية ابتدائية ، وحاجاته المصنوعة قليلة ، يستخدمها في اغراضه البيتية ، ويقايض بها غيره .

وقد كانت العلاقات الاقطاعية ثابتة تقرر منزلة الفرد الاجتماعية ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية ، بتشكيلاتها الواسعة وسيطرتها الشديدة على الناس ، هي العامل الارتباطي في هذا الكيان الطبقي . وكان من جراء هذه السيطرة الكلية ان حسب الناس ان كل ثورة ضد النظام الاقطاعي ، ليست الا ثورة على الكنيسة نفسها .

وحينما انتعشت الحركة التجـــارية بعد الصعوبات الجمة التي اعترضـتها بعد انهيـار الامبراطورية الرومانية وازدهرت بعض المدن الواقعة في ملتقى طرق التجارة، وظهرت طبقة جديدة من التجار واصحاب المشاريع الكبيرة ورجال المصارف اخذت صروح الاقطاع تنهار يوما بعد يوم ، واخذت العلاقات الاقطاعية تتفكك سنة بعد اخرى ، واصبح التجار ورجال المال ، من حيث لا يشعرون ، بناة عصر جديد . وحينما اخذت سرعة المواصـلات تزداد جيلا بعد جيل بفعل الاختراعـــات الميكانيكية والاكتشافات الجغرافية شرعت القوميات الاوروبية المتعددة تتجمع حول وحدات سياسـية ، وتتحول الى دول قومية . وحينما تحرر العقل من عبوديته وتم اكتشاف العالم وانجزت مشـــاريع تجارية وصناعية كبيرة اطل الناس على عهـــد جديد ، ودخلوا في علاقات اجتماعية وتنظيمات سياسـية جديدة ، فمن اعتقاد سائد بقدرة الانسـان على التقدم ، الى كفاح من اجل حياة ديمقراطية افضل ، الى قيام طبقة اجتماعية جديدة هي الطبقة البورجوازية .

وكانت الثورة التجارية مقدمـــة حتمية لثورة اعظم ، هي الثورة الصناعية . فالاختراعات التكنوقراطية في القرن الثامن عشر قد ساعدت طبقة رجال المال والاعمال على ان ينتجوا انتاجا واسعا ، وجعلت لهم نفوذا قويا في الميادين السياسية والاقتصـــادية . وقد تبنى هؤلاء مذهبا سياسيا في الحرية الفردية هيأ لهم سبل النجاح ، ومجـــال الربح الوفير . هذا المذهب هو المذهب الحر Liberalism . وظهرت في الوقت نفسه طبقة جديدة هي طبقة عمال المعامل (او طبقة البروليتارية) التي لم تنل حقوقهـــا الاساسية ، بل حرمت حتى من حق التصويت ، ومن تنظيم

النقابات ، وكانت ظروف العمل سيئة والاجـــور قليلة ، والعطالة المفاجئة فتاكة ، وقد تركت هذه اثرا سيئا في نفوس العمال ، واخذوا يعتقدون ان فئة قليلة قد اخذت تستغل جهود فئة كثيرة وتكتنز ثروات طائلة لا بجهودها وعرق جبينها ، بل بجهود العمال وعرق جبينهم .

وكان من نتيجة المتناقضـات الاجتماعية التي ادت الى هذا الغنى الفاحش والى هذا الفقر المدقع ان وجهت انتقادات عدة من علماء الاقتصاد الذين فندوا نظرية « القوانين الطبيعية » التي قيل ان الرأسمالية تستند اليها ، ومن « الانسانيين » الذين هبوا للمطالبة باجراء اصلاحات للحد من آلام الفقراء ، ومن رجال الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية الذين وجدوا في التكالب على الربح عملا يتنافى والمباديء الاخلاقية المسيحية ، ومن الملاكين الذين كانوا يحسدون طبقة رجـــال الصناعة ويودون لو انهم يستطيعون ان يتمتعوا بقسط ولو يسير من النفوذ الذي يتمتعون به ، ومن علماء الاجتماع الذين وضعوا مصلحة الامة فوق مصلحة رجـــال الاعمـال .

وقد تعرض النظام الرأسمالي المطلق الى هجمات كثيرة قبل ان يبلغ نهايته . فقد هاجمه «الطوبائيون Utopians ومنهم توماس مور More وهارنكتون Harrington وسنت سيمون Saint-Simon وبينوا مساوئه واقترحوا خططا لمعالجته . فقد اراد هؤلاء ان يقيموا المجتمع على اسس عقلية تحد من غلواء الطبقية ، وتضع مصلحة الشعب فوق مصلحة الافراد . وهذه الخطط وان بدت في حينها مثالية متطرفة بل « خيالية » في كثير من الحالات الا انهـــا ساعدت على عرض مساوىء النظم القائمة آنذاك وتشخيصها وهيأت الاذهان بمرور الزمن لقبولها .

وفي نهاية القرن الثامن عشر تبلورت هذه الانتقادات واستقرت ، وظهرت طلائع العقائد الاشتراكية في مؤلفات وليم تومبسون Thompson ولويس بلان Blance ووليم فايتلنك Weitling ولاسال Lassalle الا ان الحركة الاشتراكية المنظمة التي نعرفها اليوم والتي تتميز بفلسفة معينة ونهج معين لم تظهر الا بظهور كارل ماركس Marx وفردريك انجلز Engeles . وقد ذهبت الماركسية او « الاشتراكية العلمية » الى ابعد ما ذهب اليه « الاشتراكيون » و « الطوبائيون » ، واصبحت مذهبا « اشتراكيا ثوريا » . وقد نجحت في الثورة الروسية ، وصارت مدارا لتنظيم الاحزاب الشيوعية في العالم . وليست الاشتراكية كلها « ثورية » ، فمن الاشتراكيين من يؤمن بالطرق التدريجية ، ويعتقد ان الاصلاحات التشريعية وقوة نقابات العمال كفيلة باعطاء العمال حقوقهم وقادرة على تكييف المجتمع الرأسمالي الى مجتمع اشتراكي ، وان الزمن والتطور الاجتماعي يسيران نحو الاشتراكية ويعملان ضد الرأسمالية . ومن هؤلاء « الاصلاحيون » Revisionists و « الفابائيون » Fabians و « الاشتراكيين المسيحيون » Christian Socialists

وفي القرن التاسع عشر ظهرت « الفوضوية » Anarchism ونادت بالغاء الدولة والرأسمالية الضناعية ، وفي اواخر هذا القرن ظهرت النظرية « النقابية » او السنديكالية Syndicalism وصارت ضربا من ضروب الاشتراكية القائمة على اساس التنظيم النقابي للعمال . ومن انواع السنديكالية نوع آخر ظهر في انكلترة واطلق عليه علماء الانكليز بـ Guild Socialism . ومن الحركات الاصلاحية الاخرى « الحركة التعاونية » Cooperative Movement

ومن النظريات المهمة التي تتعلق بالتبدل الاجتماعي تلك التي تتصل بكفاح الطبقات الاقتصادي Class Struggle. وتتصل هذه النظرية بالاشتراكية الماركسية ، مع العلم انها لا تنحصر في الاشتراكيين فقط فقد اعترف جميع الكتاب السياسيين المعروفين بأهمية العامل الاقتصادي واهتموا به اهتماما يختلف باختلاف وجهات نظرهم ، الا انهم قد نظروا الى « كفاح الطبقات » نظرات متباينة . وقد ذهب « الكفاحيون » الى ان الدولة أداة تسخرها الطبقة الحاكمة لتحافظ بها على مصالحها وامتيازاتها، وتستغل الطبقات الاخرى لمنفعتها ، وانه لابد من كفاح طبقي بين الحاكم والمحكوم ، وان هذا الكفاح سينتهي بانتصار العمال واقامة دولتهم في صورة ديكتاتورية موقتة ، واختفاء المجتمع الطبقي . وهذا ضرب من ضروب « الطوبائية » التي لم يزل بعض الاشتراكيين يحلمون بوقوعها . ولقد سببت المضامين العملية لنظرية « كفاح الطبقات » اختلافات كثيرة بين الاشتراكيين انفسهم ، وتطور الى حدوث نزاع بين الماركسيين ودعاة اصلاح الماركسية نفسها . وقد اخذت الشيوعية في روسية بها ، ووسعت في مفاهيمها ، وجعلتها تفسيرا صحيحا للتبدل الاجتماعي ، وصارت شعار الحزب الشيوعي .

ان جميع هذه الحركات الاجتماعية وليدة ظروف خاصة . ومع انها تنطوي على بعض المباديء الماركسية المشتركة الا ان لكل « حركة » اهدافها ومبادءها واساليبها .

ومن الحركات السياسية الاخرى التي استهدفت اجراء تبدل جذري في طبيعة العلاقات الاجتماعية هي الفاشيستية في ايطاليا والنازية في المانية والشنتوية في اليابان ومع ان هذه الحركات كانت استمرارا

لنمو الحركات القومية التحريرية التجددية في اوروبا الا انها انقلبت الى حركات عسكرية عدوانية وتنكرت للمباديء الديمقراطية وصارت في عداد الحركات القومية الانحرافية ٠

واذا كانت التربية هي الاداة الفعالة التي تستخدمها الدولة الحديثة ، سواء أكانت « ديمقراطية » ام « كلية » ، في نضالها السياسي وتبدلها الاجتماعي ، فما الذي تتغياه التربية في كل قطر من الاقطار ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال تختلف باختلاف الافراد ، وتتعدد بتعدد وجهات نظرهم في الحياة ومعنى الانسانية ٠ الا انه مهما اختلفت هذه الآراء وتعددت فهي لا تخرج عن احد امرين : فمن الناس من ينظر الى التعليم بمقدار علاقته بالفرد ، ومنهم من ينظر اليه بمقدار صلته بالمجتمع ٠ ولنا ان نتساءل ونحن في هذه المرحلة : هل ينبغي ان تعنى التربية باعداد « افراد » individuals صالحين ام « مواطنين » citizens صالحين ؟ وهل ان اعداد « المواطن » الصالح يختلف عن اعداد « الفرد » الصالح ؟ او ليس المواطن الصالح من يجعل المصلحة العامة فوق كل شيء ؟ ثم او ليست المصلحة العامة هي محصول الافراد الصالحين ؟ « لست مستعدا ان اشجب هذه الحقيقة الميتافيزيقية او اقرها ، غير اننا نلاحظ في حياتنا اليومية ان التربية التي تحسب الطفل فردا هي غير التربية التي تعده مواطنا من مواطني المستقبل ٠ وليست تربية عقل الفرد ، كما يبدو ، مثل تكوين المواطن الصالح ٠ فقد كان غويته Goethe المواطن مثلا اقل نفعا من جيمس واط الفرد ٠ ولكن ينبغي ان نعد غوته

الفرد متفوقا على جيمس واط المواطن ... » (١) .

فما الذي ينطوي عليه صلاح الفرد اذن ؟ يجيب برتراند رسل ، الفيلسوف الانكليزي المعروف بما يأتي : ينبغي ان يعكس الفرد قبل كل شيء في نفسه صورة العالم الذي يحيط به . ولماذا ؟ لان المعرفة والشمول سجيتان عظيمتان من سجايا الفرد . ولما كان حب المعرفة في الانسان الاساس الذي يقوم عليه تقدمه ، وان لم يكن كل شيء ، فليس بكافٍ ان يعكس الفردُ العالمَ وانما ينبغي ان يتم هذا الانعكاس بانفعال emotion : انفعال معين مناسب الى الشيء من جهة ولذة كبرى بفعل المعرفة المجرد act of knowing من جهة ثانية . غير ان المعرفة والشعور وحدهما لا يكفيان حاجة الانسان الكامل . ففي هذا العالم المتبدل يصبح الناس عاملا من عوامل التبدل ، ويقودهم شعورهم هذا الى استعمال ارادتهم فيدركون بذلك قوتهم . فالمعرفة والانفعال والقوة ينبغي ان تتوسع حدودها عند انصرافنا لجعل الانسان كاملا الى اقصى حد ممكن . وليس من الضروري ان يكون عنصرا المعرفة والانفعال في « الانسان الكامل » الذي صورناه عنصرين اجتماعيين . فالانسان هذا لا يصبح عضوا فعالا في المجتمع الا عن طريق الارادة واستخدام القوة بشرط ان تنسجم ارادته هذه مع ارادة افراد المجتمع الآخرين ، وليست هي ارادة فردية وانما تتصف بصفة جمعية . وعندئذ تصبح هذه الارادة ارادة مواطن لا ارادة مجردة . فمن صفات المواطن التعاون . وتحسب الحكومات

---

(1) Russell, B., Education and the Social Order, P. 10, third impression, 1947, London.

اقرا الفصل الاول عن الفرد والمواطن .

الرجعية المواطن ذلك الفرد الذي يعترف « بالوضع الراهن » ويسعى نحو تخليد قيمه سعيا حثيثا ، اما الذي يريد ان يخرج عليه ويحدث تبدلا فيه فتعده خطرا يجب التخلص منه ، وهداما يجب « القضاء » عليه .

المواطنة والفردية Citizenship and Individuality

ان موضوع المواطنة والفردية لمن اهم المواضيع التي تعنى بها علوم التربية والسياسة والاخلاق وما وراء الطبيعة ، كما يقول رسل . فتربية الافراد تتطلب نفقات باهظة لا تستطيع ان تتحملها في الوقت الحاضر الا الدولة State ، وهذه الدولة لا تربي ، في الاعم الاغلب ، الا مواطنين . وتربية المواطنين الصالحين تتناول العناية بالفردية من جهة وابعاد غلواء الدولة من جهة ثانية ، خشية ان يصبح المواطنون ادوات مسخرة بيد الدولة نفسها .

والتربية التي تستهدف اعداد « مواطنين » صالحين قد تتخذ شكلين : فهي اما ان تحافظ على « الوضع الراهن » وتخلده وتصب الناشئة في قوالبه كما هو شأنها في كثير من الاقطار غير الديمقراطية ، واما ان تقضي عليه كما حدث في الاتحاد السوفياتي وبعض اقطار اوروبة الشرقية . واكثر رجال التربية والتعليم في العالم يميلون مع الاسف الى المحافظة ويسيرون وراء رجال الحكم والاغنياء ، لاسيما في تلك الاقطار التي تضعف فيها سيطرة الدولة على التعليم وتقوى شوكة المدارس الاهلية : الطائفية والخيرية . وقليل من رجال التعليم احرار ، وقليل منهم ثوريون لاسيما في الحكومات البيروقراطية التي تسير شئونها تيارات اجنبية . فالعقول المبدعة لا ترضى بالجمود ، ولا تخضع للاصفاد والقيود ، ولا تستسيغ انصاف الحلول ، بل ترمي الى احداث

تبدل اساسي في طبيعة المجتمع وتكوينه . ومن اجل هذا فان هذه العناصر المبدعة تنحى في اساليبها منحى « ثورويا » . وفي كلتا الحالتين : حالة الاستسلام وحالة التمرد والعصيان على النظم الاجتماعية ، خطر عظيم على المجتمع . والعداء الذي ينصب على « الوضع الراهن » اما ان يكون باعثه الحدب على الفقراء : واما الكراهية للاغنياء .

ومن الحالات التي تتصادم فيها التربية الفردية بتربية المواطنة ، اذا ما نظرنا الى الثانية نظرة ضيقة ، هي موقفها « العلمي » من بحث القضايا المشكوك فيها والمنازع عليها . فالبحث العلمي يتطلب حرية كبرى ، والمواطنة تتطلب في كثير من الاحيان الطاعة واحيانا الخضوع والاستسلام . فمن متناقضات هذا العصر الذي نعيش فيه اننا بينما نجد العلم من ناحية هو مصدر القوة : وخاصة قوة الحكومة ، نجد ان تقدمه يتطلب من ناحية اخرى ان يتمتع الباحث بحرية مطلقة تنكر التقييد والحصر والتضييق . ويقول براند رسل انه لمن الصعب جدا على المرء ان يوافق بين الحقيقة ومثل المواطنة العليا .

ان تربية « المواطنة » - دون شك - تنطوي على مساوىء كثيرة . الا ان عامة المربين يعتقدون ان التربية تستطيع ان توجد انسجاما اجتماعيا جيدا بين افرادها اذا ما تهيأت لها الظروف والاحوال ، وان المجتمعات الحديثة تتطلب التعاون . وكلما دخلت الصناعة مجتمعا من المجتمعات صارت الحاجة اليه عظيمة جدا . وزيادة على وظيفة التربية الانسجامية فان المجتمعات القومية تسعى الى ايجاد انسجام بين الدول نفسها ليزداد تعاونها ، وليؤمن الناس الى الجنس البشري وحدة متعاونة يكمل بعضه بعضا . ولو نظرنا الى التربية الفردية وتربية المواطنة في ضوء

المثل العليا لوجدنا الاولى اجل واسمى . اما اذا نظرنا الى الموضوع نظرة سياسية ودرسناه في ضوء حاجات العصر ومستلزماته لاحتلت تربية « المواطنة » المقام الاول .

و « يسير كل نظام تربوي وفق مجموعة من الافكار ذات صلة شعورية او غير شعورية بمجتمع من المجتمعات ، وتضع افراده في مقولات خاصة ضمن نظام ذلك المجتمع . وحيثما وجدت طائفة من الافكار قائمة على فرضية وجود طبقات اجتماعية مختلفة ، كل طبقة تعلو اختها على هيئة هرم اجتماعي (بحيث يميل الاعضاء المولودون في كل طبقة الى احتذاء آبائهم ، بنوع من تعاقب موروث ، في مهنهم او مثيلاتها) تأسست مدارس طبقية متنوعة ، كل نوع يعد طلابه الى مراكز مختلفة في الحياة تفرضها عليهم ولادتهم في تلك الطبقة . وحيثما وجدت ، من ناحية اخرى ، مجموعة من الافكار قائمة على فرضية وجود مجتمع منسجم تختلف فيه المراكز باختلاف القابليات الطبيعية ويتساوى جميع افراده في الحصول على الفرص التي تصقل مواهبهم تأسست مدارس متنوعة غير طبقية اعدت كل مدرسة منها لا لتناسب مركز الفرد الاجتماعي ومصادفات الولادة ، بل مدارس مختلفة اعدت لتواكب القابليات وتراعي الاختلافات في المواهب الطبيعية » . (١)

واذا صح ان نظم التعليم تتأثر بالافكار والتنظيمات الاجتماعية القائمة بالشكل الذي اوضحناه فانها توثر كذلك في سير هذه الافكار

---

(1) Barker, Ernest, National Character, P., 240.
راجع الفصل التاسع من هذا الكتاب القيم .

وتكوين هذه الصور من التنظيمات الاجتماعية . ولاشك ان النظم التربوية القائمة على الافكار والاساليب الاتباعية تميل الى الاحتفاظ بمجتمع جامد ، وبمراكز طبقة معينة ، وتصب هذه الافكار والاساليب في انماط اجتماعية صبا محكما ، وتتأثر بالنظام الاجتماعي كما تؤثر فيه . اما اذا كانت ترتكز على دعامات فكرية واتجاهات جديدة ، كالتي اشعلت نيران الثورة الافرنسية مثلا فقد تساعد على خلق مجتمع حركي دفاق بالقابليات ، زاخر بالفرص ، مؤمن بالمساواة وحرية الرأي .

التعليم في الدولة الكلية :

تنحى كل دولة في تربية افرادها منحيين اساسيين : فهي اما ان تعدهم اعدادا واحدا ، وتصبهم في قولب واحدة بالدعاية والتلقين واما ان تعدهم اعدادا حرا بالتثقيف والتنوير العام . ويتوقف ذلك على طبيعة الدولة نفسها ومدى تدخلها في شئون التربية والتعليم . ان حق تدخل الدولة في شئون التعليم بالصورة التي نعرفها اليوم قد انحدر الينا من فردريك الكبير ملك بروسيا ونابليون ديكتاتور فرنسة . هذا في القارة الاوروبية ، اما في الولايات المتحدة فقد اكد جورج واشنطون ومؤسسو جمهورية امريكا على ضرورة تأسيس نظم تعليمية من قبل السلطات العامة من جهة ، واهتموا بتربية الفرد واعداده للحياة العامة والمساهمة في ادارة الحكومة من جهة ثانية . فتأثرت النظم التربوية الكلية بالاتجاه الاول ، والنظم الديمقراطية بالاتجاه الثاني . واذا جاوزنا حد

التدخل ونظرنا الى التعليم من حيث هو وسيلة من وسائل السيطرة الاجتماعية وجدنا ان هذه السيطرة الاجتماعية قد اكد عليها كل من افلاطون وارسطو ، وظهرت في مختلف العصور الانسانية .

ومن الخصائص التي انفردت بها الدولة انها اتخذت من التعليم أهم أداة لضمان استقرارها ، وقضت على جميع الحواجز التي تفصل بين التعليم من حيث هو قوة منظمة ومسيطرة (عن طريق الدعاية والتلقين) ومن حيث هو أداة للتنوير والتثقيف العام كما يقول الاستاذ كاندل ، وانصرفت كل فعالية تربوية الى بلوغ غرض واحد شامل - هو اخضاع الافراد الى ارادة الدولة التي تتمثل في شخصية حكمية هي الحزب او فردية هي الديكتاتور . وتندد الدول الكلية بالتربية الديمقراطية ، وتحسبها فوضوية لا يجمعها هدف رئيسي واحد ، بل اهداف متعددة ومختلفة ، ويوعزون ذلك الى تجمع افراد لا تهمهم سوى مصالحهم الخاصة ولا تحفزهم على العمل الا انانياتهم واهواؤهم ، ولا يسيطر عليهم مثل اعلى شامل ، في حين ان التعليم في الدول الكلية يخضع الى مجموعة من العقائد والآراء والمثل العليا الاجتماعية والاقتصادية والقومية التي هي عماد التضامن الوطني والقومي . ولا تضع الدولة الكلية حدا فاصلا بين التربية المقصودة وغير المقصودة ، بين المؤثرات الثقافية داخل المدرسة او خارجها ، بل تعد التربية المقصودة اقل اهمية من التربية غير المقصودة . (١)

---

(1) Rugg, Harold (Editor) Readings in the Foundations of Education, P., 549.

وقد بلغ من قوة النظريات الكلية، كما يقول نقادها ، ان اخذت تصارع في دعوتها الدعوات الدينية، فألهبت النفوس حماسا والقلوب ايمانا، وحلت العقائد الجديدة ، سواء أكانت شيوعية ام فاشستية ام نازية ، محل الانجيل في الغرب والقرآن في الشرق ، وبعثت في نفوس مريديها تعصبا شديدا وضيقا في التفكير عجيبا . ففي الاتحاد السوفياتي مثلا حلت مؤلفات ماركس وانجلس ولينين محل الانجيل ، وطمس جثمان لينين القائم في احدى ميادين موسكو معالم القديسين وهياكلهم ، ونزل كتاب « كفاحي » لهتلر منزلة الكتب المقدسة في نفوس الالمان ، ونافست السواستيكا الصليب ، واستوصلت الملامح الاجنبية من الدين المسيحي ، وعد المسيح عليه السلام نورديا لا ساميا !

أنواع الدول

واذا صح ان التعليم يتصل اتصالا وثيقا بالدولة وفلسفتها واهدافها ، واذا كانت عملية التعليم عملية اجتماعية تتحرك في وسط اجتماعي ، واذا كانت كل نظرية تربوية تقوم « على بعض المبادي العامة ، او على مفترضات اساسية منتزعة من فلسفة اجتماعية واقتصادية وسياسية معينة » (١) ـ اذا صح هذا فان النظرية التربوية للديمقراطية والشيوعية والفاشية والنازية تنتزع من فلسفة سياسية واجتماعية واقتصادية خاصة . وعلى هذا فلابد من بحث انواع الدول وعرض عقائدها وتحليل نظمها التعليمية .

مفهوم الدولة :

لعل اول من استعمل كلمة الدولة وثبت معناها ، سواء اكانت جمهورية ام استبدادية ، وهو ميكافيللي في كتابه المعروف بـ « الامير » (*) . ثم انتشر هذا الاستعمال في انكلترة وبعدها في فرنسة . ومنذ ان استعملت هذه الكلمة كانت تدل على : ارض وشعب وحكومة .

---

(1) Shore, Maurice J.. Soviet Education, P. 11

(*) كان ذلك في اوائل القرن السادس عشر في ايطاليا . راجع موسوعة العلوم الاجتماعية تحت كلمة « State » (Encyclopedia of the Social Sciences)

اما اليوم فانها بالاضافة الى ذلك تدل على مساحة معينة ، ومرحلة من المدنية معنية ، ودرجة من الاستقلال السياسي معنية . وتطلق الكلمة احيانا على حكومات لا سيادة لها. ويرى جورج سباين Sabine ان الدولة ينبغي ان تعرف في حدود النظام السياسي وظروف كل مجتمع من المجتمعات . حتى لقد استعملها بعضهم مرادفة الى كلمة « مجتمع » Society ومن هؤلاء الفيلسوف الالماني الشهير شبنكلر Spengler غير ان التمييز بين المصطلحين قد ظل واضحا بالرغم من هذه الاستعمالات المترادفة : واخذ معنيين رئيسين : فالعلماء الذين قد تزودوا بثقافة اجتماعية واسعة ينظرون الى الدولة من حيث هي تنظيم الناس في مجموعة من العلاقات معينة للقيام بعمل مشترك ولتحقيق غايات مشتركة. ومن هؤلاء العالم المعروف مكايفر Mac Iver فعنده ان الدولة ليست الا وكالة لضمان السيطرة الاجتماعية ولتنظيم « علاقات الناس الخارجية المهمة بالمجتمع » . وتتصل هذه النظرية اليوم بنوع من النظرية النفعية للدولة Utilitarian . اما العلماء الذين يلتزمون بمعايير ميتافيزيقية او خلقية ethical او تشريعية Juristic التزاما كبيرا فيميلون الى التفريق بين الدولة والمجتمع . وعلى هذا الاساس تصبح الدولة مظهرا aspect من مظاهر المجتمع لا تقسيما فرعيا من تقسيماته . فقد جعل هيكل مثلا اعمال الشرطة واجبا من واجبات المجتمع لا واجبا من واجبات الدولة ، ونظر الكتاب الانكليز الهيكليون الى الدولة بانها العقل الموجه في التبدل الاجتماعي لا وكالة من الوكالات الاجتماعية . وقد ميز الفقهاء ، ولاسيما اولئك الذين قد تأثروا بفلسفة كانت ، بين الدولة والمجتمع تمييزا واضحا جدا .

فكيلسن Kelsen مثلا يعارض النظرية الاجتماعية للدولة ويجعلها متصلة بالنظام القضائي .

ومع ان الدولة قد تضمنت منذ بداية نشأتها شعبا وملكا Soveirgn الا انه لم توضع حدود فاصلة بينهما . فقد استعملت الكلمة الحديثة ، الامة ، وهي قبلا الشعب ، للدلالة على الدولة . غير انه في الحالات التي تتميز الامة عن الدولة تصبح دلالة الامة هي وحدة الثقافة : شعور بالولاء الى ارض ولغة وآداب مشتركة وتاريخ وابطال مشتركين ، ودين مشترك . وربما يكون طموح الامة الى تقرير مصيرها السياسي من أهم العوامل المميزة لها ، بينما تشير الدولة من ناحية ثانية الى وحدة السلطتين القضائية والسياسية . وبالرغم من ان « الدولة » و « الامة » لم يعودوا مصطلحين سياسيين متماثلين فقد ساد الاعتقاد بان الوحدة القومية هي اساس السلطة السياسية ، وان اماني الامة في تقرير مصيرها السياسي تخلق فكرة العدل Justice فيها . ولهذا السبب قد تصبح الدولة القومية نوعا ثالثا متميزا عن الدول الاخرى من ناحية المثل السياسية العليا على الاقل .

وحيث ان كلمة الدولة تشير في مدلولها عادة الى تنظيم سياسي فقد صار من المتعذر اليوم ان يرسم الانسان حدا فاصلا بين الدولة والحكومة . ولم يكن هذا التميز مهما في عهود الملكية المطلقة ما دامت سيادة الدولة تتمثل في الذات الملكية نفسها ، وما دام الشعب والارض ميراثه الخاص . وقد حطم علماء الالمان نظرية الميراث هذه ، وحسبوا

الدولة وحدة تشريعية . فالملك والحكومة ليسا الا عضوين organ من اعضائها .

ولما كان معنى كلمة دولة لم يحدد تحديدا ثابتا فلا فائدة كبرى ترجى من تصنيف الدول وتعدادها ، ولما كانت المؤسسات السياسية لا تسير في تطورها السياسي على نسق ثابت عادة فقد يصبح الكلام عن تطور الدولة امرا كثير المزالق .

الدولة الديمقراطية :

وتدل الديمقراطية اليوم في الاقطار التي تتكلم اللغة الانكليزية على الديمقراطية السياسية القائمة على التقاليد الانكليزية في التسامح والحكم الدستوري المنبثق عن ارادة الامة في الانتخابات العامة وتستمد عناصرها من « الحقوق الطبيعية » ومن سياسة التسامح التي بشر بها جون لوك . وقد وجدت هذه طريقها الى « وثيقة حقوق الانسان » و « لائحة حقوق الانسان » التي نادت بهما كل من الثورة الامريكية والثورة الافرنسية .

ومع هذا فان النظام الديمراطي القائم في انكلترا وفرنسة والولايات المتحدة والاقطار الاسكندناوية مثلا يختلف بعضه عن بعض . ففي الوقت الذي تتحول الدولة البريطانية ذات التكوين الطبقي والرأسمالي والاتجاه الاستعماري الى دولة اشتراكية نجد ان الدولة الامريكية ما زالت رأسمالية تؤمن بالحرية الفردية والتشبث الفردي ، وفي الوقت الذي نجد الديمقراطية الفرنسية ذات الطبيعة الاستعمارية

والنزعة الانعتاقية تتمخض عن حركات سياسية متباينة نلاحظ ان هذه الديمقراطية قد اخذت تصطبغ بطابع يساري ، وان مثيلاتها في الاقطار الاسكندناوية تقوم على « الحركة التعاونية » .

الدولة الكلية :

اما النوع الثاني الذي انتشر في مطلع القرن العشرين فهو الدولة « الكلية » ، وهي اما ان تكون شيوعية او فاشية او نازية . وفحوى هذه النظرية السياسية ان سيادة الدولة لا تقتصر على النواحي التي يحددها القانون حسب بل تتناول تنظيم كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية ـ تتناول العمل ، وراس المال ، واقتصاديات الامة ، والدين والتعليم والمسرح والاذاعة والفنون الاخرى . وقد انتشرت العقائد « الكلية » في روسية الشيوعية وايطالية الفاشية والمانية النازية .

والدولة « الكلية » تعبير يجمع في ثناياه ضروبا شتى من التنظيمات السياسية التي تجمعها صفة « الكلية » وتفرقها الاهداف والاساليب . فقد تكون هذه الدولة شيوعية انسانية عالمية كما هي في الاتحاد السوفياتي ، وقد تكون ديكتاتورية نازية او فاشيستية قومية استعمارية كما كانت في المانية وايطالية ، وقد تكون استبدادية تسلطية كما هي في بعض دول امريكا الجنوبية ، وكما كان في اليابان . ولسنا بمعرض الكلام عن جميع هذه الدول « الكلية » ، وانما نحن بصدد بعض ما كان منها وما هو كائن .

الطغيان الشيوعي :

ويرى الاحرار الديمقراطيون ان الشيوعية ليست الا طغيانا جديدا ، فالشيوعيون الذين كانوا يستقون آراءهم من الاشتراكية الامية ويصفون انفسهم بانهم الطلائع المناضلة في سبيل الحرية الانسانية تنكروا بعد سنة من تسنهم كراسي الحكم للديمقراطية ، والغوا الحريات المدنية ، واقاموا ديكتاتورية جديدة في لباس جديد وفكرة جديدة هي كما يقولون افظع ديكتاتورية عرفها العالم المتمدن ، ويعتقد الاحرار الديمقراطيون ان التفريق بين الوسائل والغايات الذي سار عليه الشيوعيون في روسيا ، والتضحية بالاساليب الديمقراطية من اجل الاسراع في بلوغ اهداف ديمقراطية حطم املهم من بناء مجتمع ديمقراطي حر في روسية على انقاض المجتمع القيصري .

ومع ان هذه الديكتاتورية قد سميت بديكتاتورية الطبقة الصناعية العاملة في اول الامر الا ان الحكومة الجديدة كانت منذ ولادتها ديكتاتورية الحزب الشيوعي .

« وتركزت القوة بمرور الزمن في الحزب الشيوعي ، واتخذ الحكم في زعامة ستالين صورة الحكم الفردي ، وتعدى هذا الحكم في شدته وقوته وقسوته طغيان القيصر . وحصرت الديكتاتورية ، وهي تسير نحو بلوغ غاياتها ، جميع وسائل السيطرة الاجتماعية بيدها ، ولم تتردد في خرق اعز مبدأ من المباديء الاساسية التي تقوم عليه المجتمعات الحرة . فقد استخدمت الديكتاتورية قوتها الاستبدادية في تحطيم خلق الفرد ، وفي تشويه حقائق التاريخ ، وفي تشويش العملية التربوية ، وفي

الاستهانة بالمثل العليـــا للحرية السياسية والدينية ، والاستهزاء بالاستقامة الثقافية من حيث هي فضيلة من فضائل الطبقة الوسطى ، وفي استعمال اساليب الارهاب الفردية والجمعية في النفي والسجن والشنق ، وحتى في تجويع اعدائها السياسيين حتى الموت . ومهما كانت الانجازات المادية التي قامت بها الديكتاتورية فان انحرافها عن تحقيق مثالية الشعب الروسي خسارة للديمقراطية العالمية لا تعوض » . (١)

الطغيان الكلي :

اما الطغيان « الكلي » الثاني فهو الطغيـــان الفاشي والنازي والنازية (او الفاشية) وليدة ظروفها الخاصة . فقد كانت ثورة على الانحلال الذي ساد الحياة الالمانية بعد الحرب العالمية الاولى ، كما سنرى ، وثورة على النظام الرأسمالي ، وثورة على الشيوعية العالمية واليهودية العالمية ، وهي بعد ذلك ثورة على العقائد الديمقراطية .

(1) The Education of Free Men in American Democracy, P., 6, E.P.C., E.N.A.

١ ـ الدول الديمقراطية

لا يوجد في رأي هارولد لاسكي Laski تعريف جامع للديمقراطية يستطيع ان يضم بين دفتيه تاريخها الطويل (١) . فمن الكتاب من يحسبها نظاما للحكم ، ومنهم من يجعلها اسلوبا في الحياة الاجتماعية وطريقة للعيش . ومما لاشك فيه ان حقيقة الديمقراطية تتجسد في : نظام الانتخابات ، وفي علاقة الحكومة بالشعب ، وفي تقليص الفوارق الاقتصادية ، وتخفيف الامتيازات الاجتماعية القائمة على الولادة او الثروة او الرس او العقيدة الدينية . ويرى اكثر العلماء ان الديمقراطية لن تتخذ شكلا مستقرا نهائيا ، ولن تعرف تعريفا جامعا مانعا ، اذ ان من طبيعتها الحركة والنمو ، ولانها تتبدل حتما في حدود الزمان والمكان الذي تظهر فيه . فما يراه احد اعضاء الطبقة الحاكمة ديمقراطية في دولة من الدول مثلا قد يراه احد مواطنيه اوليكاركية ضيقة .

ومع هذا فان « الديمقراطية بمعناها الواسع فلسفة تتناول جميع العلاقات الاجتماعية ، الشخصية منها والجمعية . وهي في طبيعتها حركية تستجيب الى المطالب المتبدلة ، فمن هذه الناحية يمتاز المجتمع الديمقراطي بحركة مستمرة mobility في طبقاته ، فليست فيه حواجز اصطناعية ، ولا انقسامات طبقية ثابتة . وهي ليست نموذجا ثابتا وكاملا لمجتمع من المجتمعات او لحكومة من الحكومات او لنظام من الانظمة

(١) راجع موسوعة العلوم الاجتماعية تحت كلمة ديمقراطية Democracy

الاقتصادية ، فالمؤسسات التي تنشئها وقتية ومرنة ، وقد تختلف في مراحل معينة من شعب الى آخر » . (١)

وما الديمقراطية الحديثة الا نتاج التحول الاجتماعي العظيم الذي طرأ على الحياة الاجتماعية بعد انحطاط المجتمع الاقطاعي . فبظهور التجارة وانتعاشها ، وتكوين الدول القومية وتكاملها ، وببزوغ الطبقة الوسطي ونضالها ضد الطبقة الاستقراطية التي كانت تمتلك الاراضي ، وبالاكتشافات الجغرافية ، وانتشار العلم الحديث ، وانتصار الافكار الحرة والانسانية في ميادين الدين والسياسة والاعمال ونموها ظهرت الديمقراطية الحديثة . وتكاد تكون جميع الاسس التي تتألف منها الديمقراطية اليوم موجودة في هذه الثورة العقلية الكبرى كما يقول الاستاذ فاسيرمان Wasserman . وكانت المباديء الديمقراطية طوال اربعة قرون تقريبا تسير جنبا الى جنب مع عقيدة المذهب الحر Liberalism

الديمقراطية والمذهب الحر ، والمذهب الفردي :

اذا تتبعنا سير التاريخ نجد ان كثيرا من الافكار السياسية والفلسفية قد انصبت في مجرى الحركة الديمقراطية . فمن هذه الافكار فكرة المساواة ، والمذهب الانساني Humanism ، والمذهب الفردي ، والمذهب الحر ، والنظرة العلمية . وقد تأثرت الحركة الديمقراطية بهذه الآراء او ببعضها بنسب مختلفة ومن حين لآخر . وكان مدى تأثير كل رأي من هذه الآراء في النظرية الديمقراطية مرهونا بالظروف

(1) Wasserman, Louis, Modern Political Philosophies P.,12.

والاحوال ، فهو يتحور ويتبدل تبعا لها ، وكان من اثر ذلك ان نمت الفلسفة الديمقراطية نموا غير منسجم . وهذه هي الاسباب التي تعزى اليها التفسيرات المتباينة للديمقراطية اليوم .

لقد سببت الثورة الصناعية مشاكل كثيرة الى الديمقراطية لم تجد لها حلا مقبولا حتى يومنا هذا . فحينما ادى الكفاح المشترك الذي خاضه الاحرار ضد طغيان المباديء الاقطاعية والاستبدادية الى اقامة اسس المدنية الحديثة وجد دعاة الديمقراطية واصحاب المذهب الحر وعشاق المذهب الفردي انفسهم بعد هذا الكفاح يسيرون وراء مباديء مختلفة ويتمسكون باهداف متباينة . فقد زادت عناية « الديمقراطي » مثلا بنظرية المساواة في المنزلة الاجتماعية واعتبرها شرطا سابقا لنمو افراد المجتمع نموا ذاتيا ، واستنكر المجتمع الذي يخلق كيانا طبقيا جديدا من جراء عدم المساواة في الثروة ، ووجد الرجل « الحر » الذي يعد الحرية الانسانية اسمى ربح ناله الانسان امام مشكلة جديدة الا وهي القيود التي فرضتها الدولة على حرية رجال الاعمال ، وطالب ان ينجز الافراد اعمالهم بمنجى من الحكومة وبمعزل عنها .

وقد ساد المذهب الفردي الولايات المتحدة الامريكية منذ تأسيسها حتى مطلع القرن العشرين . « فتصريح الاستقلال Declaration of Independence الذي استند استنادا اساسيا الى آراء لوك وروسو كان تعبيرا كلاسيكيا رائعا لحقوق الافراد « الطبيعية » . فقد نادى هذا « التصريح » بوجوب اعلان الثورة على كل

حكومة مستبدة باعتبار ان المحكومين هم الذين اختاروا حكامهم ، وان من حقهم سلب هذه الثقة متى ما اساء الحاكمون الحكم .

وقد تضمن دستور الاتحاد الامريكي عناصر المذهب الفردي ، فاكد على حق الحياة والحرية والتملك، كما اكدت عليها جميع التعديلات التي اجريت عليه وقرارات المحاكم التي استندت اليه . وقد كان اندفاع الامريكان عبر القارة الامريكية لاستغلال موارد البلاد الطبيعية في منجاة عن الحكومة عاملا مهما من عوامل العناية بالناحية الفردية والتنديد بتدخل الحكومة . وحينما نشب صراع بين المذهب الفردي في الاقتصاد ومذهب المساواة في الديمقراطية واستمر مدة من الزمن تدخلت الدولة في شئون البلاد الاقتصادية وسيطرت على النظام الرأسمالي القائم على نظرية « التسيب » شيئا فشيئا .

الديمراطية والرأسمالية :

لا تتقيد النظرية الديمقراطية بفلسفة اقتصادية معينة ، ولا تفسر التاريخ تفسيرا خاصا ، وتنظر الى العمليات الاقتصادية من حيث هي وسيلة لضمان تقدم الفرد والمجتمع معا لا غاية لضمان اهداف ميتافيزيقية .

وقد سارت الرأسمالية الحديثة جنبا الى جنب مع حركة الديمقراطية السياسية ، وكانتا حركتين مناهضتين للاوتوقراطية الاقطاعية في القرون الوسطى . وقد ادى ذلك الى الاخذ بسياسة « التسيب » في

الشئون الاقتصادية ، لصيانة حريات الافراد من تدخل الحكومات الاوتوقراطية والتقليل من سيطرتها . واصبحت الديمقراطية السياسية والرأسمالية بسبب ذلك ولمدة معينة شيئا واحدا نوعا ما ، تربط بينهما النظرية الفردية . بيد ان ظهور الصناعات الواسعة في القرن التاسع عشر ادى ، كما بينا سابقا ، الى تصادم مستمر بين الفردية الاقتصادية والمساواة الاجتماعية والاقتصادية . ثم ان اتساع نطاق حقوق الانتخابات النيابية الى طبقات من المجتمع كانت لامد غير بعيد محرومة منه ساعد على صوغ الاهداف الديمقراطية صوغا اقتصاديا . واخذت الدول السياسية اثر هذا التطور الصناعي والسياسي تتدخل في الشئون الاقتصادية والتجارية تدخلا متواصلا .

ونستطيع ان نقول ان الشعوب الديمقراطية في المرحلة التكوينية الاولى قد حررت نفسها من سلطان الدولة الاوتوقراطية ، وانها اخذت في المرحلة الثانية تصوغ الدولة الديمقراطية وفق ارادتها لاسيما بعد ان ظفرت بسلطتها الشعبية . والديمقراطية لا تعترف بان مؤسسة اجتماعية قد تبلغ مرحلتها التكوينية النهائية مهما كان شكلها القائم ، وترى ان اي تبدل في طبيعتها ووظيفتها ينبغي ان تقرره الاكثرية . « ويبقى الاقتصاد الرأسمالي ملازما للديمقراطية ما دام هذا الاقتصاد يساهم في تعيين حد على الرفاه المادي ولا يناهض الحاجات الكبرى للتقدم الفردي والاجتماعي » . (١)

---

(1) Wasserman, Louis Modern Political Philosophies, P., 25

ومع هذا فان الديمقراطية من حيث هي فلسفة اجتماعية تستند الى الى مجموعة من الفرضيات والمباديء والمضامين التي لا تنطبق على دولة ديمقراطية معينة ، بل تصح ان تكون معيارا لكثير من الدول الديمقراطية. وهذه اهمها :

أسس النظرية الديمقراطية :

١ - احترام قيمة الانسان :

تؤمن الديمقراطية ايمانا منقطع النظير بشخصية الانسان ويمتد هذا الاحترام الى كل عضو من اعضاء المجتمع بغض النظر عن ولادته وثروته ورسه وجنسه ومنزلته الاجتماعية . وقد اوضح ذلك « تصريح استقلال » امريكا حينما ذكر واضعوه : « يولد جميع الناس متساوين ، ويهبهم خالقهم حقوقا لا تنتزع ، وان من هذه الحقوق حق الحياة ، والحرية والحصول على السعادة » . وان هذه الحقوق تساعد كل فرد من الافراد على ان يحقق قدراته تحقيقا تاما بقدر ما تسمح له به مواهبه ، سواء أكانت هذه المواهب قليلة ام جسيمة .

٢ - المساواة في المنزلة :

ترى الديمقراطية ان منزلة الفرد ينبغي ان تبنى على اساس المساواة بين الافراد ، وان اي ضرب من ضروب التفريق والتمييز الذي يجعل عمروا في منزلة غير منزلة زيد يعد خرقا للروح الديمقراطية ، وان الفرد ينبغي ان ينظر اليه من حيث هو غاية في حد ذاته لا وسيلة

لتحقيق غايات اخرى ، وان الناس قد منحوا حق التعبير عن معتقداتهم ، ولم يمنح بعضهم حق استغلال الآخرين واضطهادهم .

ولاشك ان مبدأ المساواة في الفرص لا يفترض تكوين انماط متشابهة او متساوية من الافراد ، بل يفترض ان يكون تقدم الفرد متوقفا علئى قدراته الخاصة ، فلكل فرد حق متساوٍ في ادراك ذاته ، وان هذا الحق لا يقتصر على فئة من الناس تمكنت من السيطرة على المجتمع بسلطة موروثة او مكتسبة ، وان مضامين هذا المبدأ تتناول طبيعة الدولة الديمقراطية ونظامها الاقتصادي ومؤسساتها الاجتماعية - هذه المؤسسات التي تعد كل فرد بالفوائد المتأتية من الروابط الجماعية ، وان قيمة المؤسسات السياسية والاقتصادية والثقافية تقاس بالفرص المتساوية التي تقدمها لجميع الناس من اجل تحقيق الحياة الطيبة .

٣ - الحرية الشخصية :

ومن اسس النظرية الديمقراطية انها تصون حرية الفرد الشخصية من كل تعدٍ ، وتحافظ دائما على حريته في الاختيار والعمل . فهي تضمن له مثلا حرية القيام بالمشاريع الاقتصادية ، وتشجعه علي ان يختار العمل الذي يريده ، وان ينال ثمرات اتعابه . ومن اجل هذا صار الناس سواسية امام القانون ، ووهب كل واحد صوتا متساويا في تقرير مصيره . هذا من ناحية ، اما من الناحية الثانية فقد اصبح لزاما على المجتمع ان يهيء للافراد فرصا جديدة للنمو الذاتي ، وان يشجع البحث العلمي ، وينشر المعرفة بين الناس ،

ويؤسس مستوى عاليا من الرخاء المادي ، ويستثمر مصادر الثروة القومية لمصلحة الامة او المجتمع لا لمصلحة افراد او طبقة . ومما لاشك فيه ان الديمقراطية لا تتحقق الا اذا صاحبتها مساواة في الفرص الاقتصادية ، وانها لا تنمو في مجتمع متناقض المصالح والرغبات ، يعيش فيه الاغنياء على حساب الفقراء عيشة بذخ وترف ، ويعيش فيه الفقراء عيشة املاق وارهاق ، تتقاذفهم المخاوف ، ويتحفزون للانقضاض على الاغنياء والتوثب على اسس الحياة الديمقراطية في الازمات .

٤ - الديمقراطية السياسية :

ليست الحكومة الديمقراطية الا وسيلة لخدمة الشعب وصيانة حريته ، وضمان تقدمه . ولما كانت الديمقراطية تعتقد بسيادة الشعب وتعده مصدر السلطات ، وتحسب الحكومة الديمقراطية أداة لتحقيق النفع العام فان اية نزعة فردية (ديكتاتورية) او طبقية (رأسمالية) لا تستطيع ان تعبر عن هذا النفع العام تعبيرا صحيحا .

والحكومة الديمقراطية تعبر في سياستها العامة عن ارادة الافراد العامة ، ويتمتع كل فرد بصوت متساوٍ في تقرير هذه السياسة ، ويخضع الى رأي الاكثرية . وتتم السيطرة السياسية بالانتخابات العامة التي يساهم فيها المحكومون مساهمة فعالة في اختيار الحاكمين . ويتطلب النظام الاجتماعي المعقد ان يحكم الشعب نفسه بصورة غير مباشرة بواسطة ممثلين شعبيين منتخبين ، وان تبقى الحكومة دائما على استعداد لتواجه حاجات الشعب المتبدلة ، وان تتم الاصلاحات المطلوبة وفق اسس منظمة لا عنفية ولا ثورية .

ان تطبيق المباديء الديمقراطية على انظمة الحكم السياسية في امم مختلفة تطبيقا عمليا ادى الى تكوين حكومات ديمقراطية متنوعة ، ومع هذا فان من مقومات الحياة الديمقراطية : وجود دستور ينص على حقوق الافراد الاساسية نصا صريحا ، وفصل السلطات بين الهيئات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، وقيام انتخابات عامة منتظمة ، واقتراع سري ، وتمثيل نسبي ، ووجود احزاب سياسية معارضة .

٥ ـ الحريات المدنية :

ومن العوامل الاساسية التي تؤثر في نمو الفرد الذاتي من ناحية وبقاء سيطرة الشعب على مؤسساته من ناحية ثانية هو استطاعة افراد الشعب ان يعبروا عن آرائهم تعبيرا حرا في جميع الامور التي تتعلق بمصالحهم . ولهذا فان الحريات المدنية ، كحرية الخطابة والصحافة والاجتماع والتعبد ينبغي ان يتمتع بها جميع افراد الشعب على حد سواء ، وان مساهمة الراشدين في شئونهم العامة مساهمة فعلية ليست امتيازا لهم بل واجبا عليهم . ومن اجل هذا اصبح تثقيف الناخبين بمشاكلهم الاجتماعية الكبرى وعرض وجهات النظر المختلفة عن طريق المناقشة الحرة لمن اهم ميزات الحياة الديمقراطية . فاختلاف الرأي يؤدي بعد الدرس والتمحيص الى استنتاجات صائبة . وحينما يسود « حكم العقل » تعكس قرارات الاكثرية الفعل الانسب . ولاشك ان ركون اقلية ضئيلة الى استعمال وسائل الاكراه ، وانكارها وتنكرها لحرية الرأي عمل يتنافى والروح الديمقراطية . وللاقلية ان تصبح اكثرية اذا ظفرت بعدد كاف من الانصار والاتباع . ولقد قيل ان احسن امتحان للحقيقة هو قدرتها على ان تنال كسبا في سوق الافكار .

٦ - الاعتقاد بالتربية :

ويتعلق بتثقيف الناخبين والمناقشة الحرة ايمان الديمقراطية العميق باهمية التعليم المجاني العام في حاضر الامة ومستقبلها . فمن المتعذر جدا ان ينجح النظام الديمقراطي وتتوصل جماهير الشعب الى اتخاذ قرارات ثاقبة حصيفة ما لم تتل فرصا تربوية عظيمة . هذا بالاضافة الى ضرورة فسح المجال للافراد لان يحرزوا تقدما مهنيا وثقافيا . وينبغي ان تراعى مطالب كل حقل من حقول المعرفة ، وان تناقش القضايا الجدلية نقاشا حرا ، والا يخضع المدرسون الى ضغوط خارجية من اصحاب المصالح تعوق تقدمهم العلمي ، وتدريسهم الحر ، وبحوثهم الموضوعية . فينبغي ان تنشر نتائج البحوث العلمية ، كما يقول الديمقراطيون ، مهما كان تأثيرها في المعتقدات السائدة .

هذه هي اهم مقومات النظرية الديمقراطية : احترام قيمة الانسان والمساواة في المنزلة والحرية الشخصية ، والديمقراطية السياسية والحريات المدنية والاعتقاد بالتربية . والحقيقة ان الديمقراطية « شكل من اشكال الحكم ، وشكل من اشكال التنظيم الاقتصادي والاجتماعي ، وهي طريقة في الحياة . وهي هذه كلها مجتمعة ... » (١)

---

(1) The Education of Free Men in American Democracy, P., 32.

نمو الحركة الديمقراطية

وفي القرن التاسع عشر احرزت الحكومات الديمقراطية تقدما باهرا سريعا ، حينما كرست جهودها الى النواحي السياسية المجردة – اي حينما اشغلت نفسها ، كما يقول هارولد لاسكي ، بالحرية الدينية والمساواة السياسية ، وبنقض الامتيازات الارستقراطية . غير ان هذا التقدم الذي احرزته الديمقراطية لم يضع حلولا للمشاكل الاقتصادية التي بدأت تتفاقم وتتراكم ، ولا للقضايا الاجتماعية التي اخذت تتعدد وتتعقد ، بل ظلت تنخر في النظام الديمقراطي كما ينخر السوس ، وتعصف بالكيان الاجتماعي كما تعصف القلاقل والفتن . فقد بقي سواد الناس جاهلا ومريضا وفقيرا ، وبقيت طغمة من رجال المال والاعمال وحفنة من قواد الجيش تتحكم في شئون الدول وتسخرها لمنافعها غير آبهة بالوعي القومي ولا بالوعي العمالي . وبتحرير العمال وحصولهم على حقوقهم العامة في الانتخابات ازداد تعاونهم ، ونمت روح الجماعة بينهم ، وعظم نفوذهم في مختلف الاقطار الصناعية ، واخذت الاحزاب السياسية تطلب ودهم ، وجاهدت في استرضائهم بكيل الوعود وسن التشريعات الاجتماعية والاقتصادية بغية تحسين احوالهم المعاشية والثقافية .

وفي اوائل الثورة الفرنسية ظهرت النظريات والمبادىء الاشتراكية ، وذهبت الى ان حل المشاكل الاجتماعية يتوقف قبل كل شيء على جعل القوى الاقتصادية ديمقراطية .

وحينما اخذ القرن العشرون يقترب رويدا من اواسطه بدت طلائع وخيمة ، وظهر ان النظام الديمقراطي يسير سيرا حثيثا نحو ازمة كبرى وكارثة عظيمة ستقرر مصيره حتما ، فاما ان يساير التبدلات الجديدة فيحيا ، واما ان يبقى محافظا فيتجمد ويموت .

وقد كانت الحركة الديمقراطية وخاصة في انكلترة تتقدم حتى سنة ١٩٢٠ تقدما مطردا في طريق زاخر بالمشاكل والعقبات ، واخذت تنتشر في اوروبا وبقاع اخرى من العالم . وقد اعترى هذا التقدم توقف في الحرب العالمية الاولى ، ومع ان الديمقراطية قد احرزت كسبا عسكريا رائعا في ميادين القتال الا انها لم تحرز كسبا سياسيا مهما في ميادين السياسة . فروسية التي ألقت عن كاهلها نير القياصرة القديم عادت واستبدلته ، كما يقول الاحرار الديمقراطيون ، بنير جديد هو النير الشيوعي في ظل ديكتاتورية مطلقة . اما الامبراطورية النمساوية الهنغارية فلم تنبثق عن تفكك اجزائها وانحلال قومياتها حركة ديمقراطية الا حركة واحدة في شيكوسلوفاكيا . وفي البلقان لم تحدث الحرب العالمية الاولى تبدلا مهما في نظمها السياسية ، واستمرت اوضاعها كما هي . اما في الامبراطورية العثمانية فقد ظهرت بعد انهيارها ديكتاتورية كمالية ، وظهرت في ايطاليا ديكتاتورية فاشيستية ، وفي المانيا جمهورية ديمقراطية كانت آلة بيد اليساريين المتطرفين واليهود - تلك هي جمهورية فايمر Weimer وحينما اصطرعت الاحزاب اليسارية ، واستعانت باليهود ، وتنكرت

لماضيها وتجاهلت واقعها السياسي واستنكرت تراثها القومي وفشلت في تطبيق مناهجها السياسية انهارت بظهور الحزب النازي .

وهكذا لم تحتفظ بالنظم الديمقراطية بعد الحرب العالمية الاولى الا بريطانية وفرنسة وسويسرة وهولندة وبلجيكا والاقطار الاسكندناوية. وكانت الاخطار تحدق بها من كل ناحية . اما في الشرق الاقصى فقد قضي عليها طغيان الروح العسكرية في الصين واليابان .

وقد تفاقمت الاخطار المحدقة بالنظم الديمقراطية في اكثر اقطار العالم من جراء عنفوان الحركات الديكتاتورية ، ومن نتائج السياسة الاستعمارية في آسية وافريقية . فقد وقفت شعوب آسيا وافريقية من الديمقراطية الاستعمارية موقفا معاديا وحاولت تزييفها واظهار اوجه التناقض فيها . غير ان هذا العداء لم يفعل بها كما يفعل طغيان النزعة الاستبدادية في ايطاليا والمانيا الذي جرها الى حرب كونية ثانية عام ١٩٣٩ . فقد اصطرعت النظم الديكتاتورية والديمقراطية في قتال رهيب دام ست سنوات تقريبا، وانتصرت الديمقراطية كما إنتصرت في الحرب العالمية الاولى . اما السلم فقد اختفت آثاره وعفت بعد الحرب العالمية الثانية كما ضاع واندثر عقب الحرب العالمية الاولى . واذا كانت الديمقراطية قد استطاعت، كما يقول انصارها، ان تسحق العسكرية اليابانية والديكتاتورية النازية والفاشيستية فانها لم تسحق الحركات الاستبدادية والنظم التوسعية .

ولكن النتائج التي جاءت بها الحرب العالمية الثانية تختلف عن النتائج التي جاءت بها الحرب العالمية الاولى . ففي الاولى لم

تقدم الديمقراطية الى الاتوقراطية الروسية الا مساعدات قليلة جدا ، وفي اكثر الحالات تركتها وشأنها وفي بعضها ساهمت في اضعافها الذي سبب هزيمتها واندحارها . وفي الثانية قدمت الدول الديمقراطية ، وخاصة الولايات المتحدة ، مساعدات عظيمة الى الاوتوقراطية الروسية ، ساعدت على بقائها واستمرار مقاومتها ، وخرجت روسية بعدها قوة عسكرية رهيبة ، بسطت نفوذها على دول شرقي اوروبا وآسيا . وهكذا وطدت الديمقراطية دعائم النظام الذي يرمي الى تحطيمها في كل مكان، وانقسم العالم الى معسكرين متناحرين ، يتهيأ كل معسكر الى قتال عنيف قد لا تعرف البشرية مثيلا له . فالشيوعية تعد الحرية التي تقوم عليها الديمقراطية خطرا عظيما عليها لا يقل عن خطر الرأسمالية الديمقراطية . وبالعكس . والديمقراطية ، كما يقول انصارها ، لا تخيفها النظريات الشيوعية ، اذ ان اكثرها قد ترعرع فيها ، وانما يخيفها اسلوبها الثوروي وحروبها الطبقية ، وحركاتها التطهيرية ، وقضائها على معالم الحرية .

الديمقراطية ... ما نواقصها ؟

هذه هي الديمقراطية ، وهذا هو الخطر الذي يهددها . وقد بحثها كتاب كثيرون واختلفوا في تعريفها تعريفا جامعا مانعا ، ولكنها تبقى قائمة على ثلاث قواعد مهما اختلفت وجهات نظرهم وهي : المساواة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . وقد انصرف كثير من الكتاب السياسيين حينما طفقوا يبحثون في الديمقراطية بحثا علميا دقيقا الى استقصاء نواقصها واستجلاء نقاط الضعف فيها اكثر مما بحثوا عن محاسنها ونقاط قوتها . ولم يدخل البحث العلمي في التفكير السياسي الا في القرن

التاسع عشر والعشرين عقب ظهور علوم جديدة ، ومن هذه العلوم : علم الحياة ، والنفس ، والارساس ، والانسان ، والحيوان . وحينما اتجهت النظريات السياسية الى العلم تسترشد به للوصول الى درجة معينة من اليقين والايجابية كانت تعتقد ان هذا الاساس اقوى على وضع الفرضيات والنظريات . ومما يبعث على الاسف الشديد ان بعض الباحثين في طبيعة الفلسفة الديمقراطية لم يتوصلوا الى نتائج ايجابية سليمة ، فاستولى عليهم اليأس . وخرجوا بنتائج سلبية . ومن هؤلاء المؤرخ الامريكي جون آدامز John Adams .

جون آدامز :

فقد قدم صورة قائمة عن الحكم الشعبي في كل دولة ديمقراطية ، وساوره قلق عظيم من جراء فشل الحكومات الديمقراطية في ادارة نفسها بنفسها . وقد افترض وجود « اتجاهات للقوة » lines of force تفوق ارادة الانسان المجردة وهدفه في الحياة قوة ، وتبني مجموعة من الحقائق العلمية لدعم آرائه هذه ، وكشف عن وجود قانونين مهمين يسيطران على الانسانية ويوجهان مصيرها :

الاول ـ قانون التناقص Law of Degradation

الثاني ـ قانون حكم الحالة (الهيئة) Rule of phase

لقد اخذ جون آدامز القانون الاول من القانون الثاني للحركة الحرارية Thermodynamics الذي وضعه كيلفن Kelven ويفترض هذا القانون ان النظام الشمسي في تناقص مستمر ، وان الطاقة المتناقصة لا سبيل الى استرجاعها بالشكل الذي كانت فيه ، وعليه فان العالم

المادي يتناقص تناقصا مستمرا ثم يصير الى العدم وينتهي به . وقد طبق جون آدامز هذا القانون الذي جاء قبل الفيزياء الذرية على الانسان ، وذهب الى ان الفعالية الانسانية والفكر الانساني ان هما الا صورتين من صور هذه الطاقة الحرارية ، وان المجتمع البشري ليس الا تعبيرا خاصا عن هذه الطاقة . واستنتج ان النوع الانساني ، شأنه في ذلك شأن العالم المادي ، سائر الى العدم بصورة تدريجية وحتمية .

اما قانون « حكم الحالة » (او الهيئة) فشبيه بقانون التناقص نوعا ما . فلا يوجد في عالمنا هذا ، كما يذهب جون آدامز، ثبوت fixity ولا استقرار . وما التوازن equilibrium الا مظهر مجرد و «حالة» موقتة كاي شيء آخر في هذا العالم ، و « الحالة » لا تدل على مرحلة من التطور ، ولا على تبدل موجه او على تكييف ، وانما تدل على مجرى يخضع في سيره دائما وابدا الى « قانون التناقص » .

وقد نظر جون آدامز الى الديمقراطية من حيث هي « حالة » غير ثابتة ولكنها خاضعة الى « قانون التناقص » الذي لا يرحم ، وذهب الى انه من الخطأ ان نحسب الديمقراطية مرحلة تطورية (اعلى) من اي شكل آخر من انظمة الحكم ومرحلة نهائية في سير حركة تطورية تصاعدية ، وانما هي شكل من الحكم يعكس علينا المحصول العام لطبيعة الانسان التنازلية ، والتي تسير حتما من درك الى آخر . ومع انه كان يرى ان كل حكومة ديمقراطية ستبذل في سنواتها الاولى اعظم ما لديها من جهود وستسير في طريق التقدم والتطور سيرا حسنا الا انه ايقن ان « قانون التناقص » سيفعل مفعوله ، وسيجرها الى الوراء

سنة بعد اخرى ، وستفسح « الحالة » الديمقراطية في المجال « لحالة » اخرى منحطة من انظمة الحكم . وبهذا التسلسل الدركي تتوالد « الحالات » والاشكال ، وتنبثق عنها « حالات » جديدة رديئة ، وتستقر في العدم .

وغني عن البيان ان هذه النظرية لا تنطبق على الديمقراطية وحدها من حيث هي « حالة » او شكل من اشكال الحكم ، بل تنطبق على كل نظام اجتماعي ، وعلى جميع الاشياء الانسانية . وكان من اثر اهتمام جون آدامز بالديمقراطية وافاضته في شرح « قانون التناقص » ان وصمه نقاده بعدائه الى الديمقراطية . وقد تصدى لنظرياته فريق من العلماء ، وذهبوا الى ان جون آدامز قد آمن بصحة نظرية الطاقة المتناقصة وجعلها قانونا من قوانين الكون في الوقت الذي لم يستطع العلم ان يبرهن عليها برهانا تاما ، وانه انكر حقيقة التطور ، ولم يفترضها الا ليدل على حقيقة « التناقص » ، وانه تجاهل ما للعلم من مضامين ابداعية ، وانه لم يأخذ بنظر الاعتبار احتمال التطور الدوري Cyclical ، وانه بعد هذا كله افترض ان انحطاط المجتمع السياسي سيكون اسرع من تناقص الطاقة الحرارية نفسها .

اتهامات يثيرها علم الحياة وعلم النفس :

واعظم من اليأس الذي استولى على جون آدامز واقوى من الاوهام والشكوك التي خاضها النتائج التي انتزعها بعض الكتاب السياسيون من بعض الاتجاهات الحديثة في علمي الحياة والنفس . فقد اهتم علماء

الحياة في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين بالوراثة اهتماما عظيما ، ووجهوا بمطاعنهم الى الآراء الاتباعية التي تستند اليها الديمقراطية . فقد دلت الدراسات والتجارب في هذا العلم دلالة واضحة على ان الصفات المكتسبة بالتربية والخبرة والتكيف الاجتماعي لا تنتقل عن طريق التناسل من شخص الى آخر . فكيف اذا تستطيع الجماهير ان ترتفع في ثقافتها واخلاقها الى مستوى احسن ونظام اصلح في عالم معقد صاخب ؟ أفعجيب اذن ان تستمر الانواع المنحطة في توالدها ، وتتولد منها انواع منحطة اخرى في حركة تنازلية مستمرة ؟ او ما سيكون انتاج هذه الانواع في الاعم الاغلب ، اعظم من انتاج الانواع الجيدة ؟ فاذا صح هذا ، فما هو مصير الديمقراطية ؟

ويجيبنا عن هذه الاسئلة علم الحياة نفسه . فاصحاب الروية من علماء الحياة يرون ان اطلاق الاحكام وتقرير النتائج بصورة قطعية امر غير مرغوب فيه ، يقولون ان علم الحياة لم ينته بعد من تقرير ما هو موروث في الانسان وما هو مكتسب لعدم توفر الادلة الكافية . فعلم Genetics مثلا وهو علم جديد ، لم يستطع بعد ان يدل على قوانين الوراثة دلالة واضحة ، وان المحافظين من علماء الحياة ينكرون وجود ادلة قطعية تذهب الى ان قوانين الوراثة الخاصة بنقل الصفات الجسمية تنطبق كل الانطباق على نقل الصفات العقلية والخلقية . وان قوانين الوراثة المنتزعة من دراسة النباتات والحيوانات الدنيا تنطبق على دراسة الانسان . فاذا كان علم الحياة عاجزا عن تقديم ادلة صحيحة كافية في هذا المضمار تصبح مفترضات علماء الحياة في الديمقراطية بحاجة الى من يؤيدها ايضا .

ولم تأت هذه الاعتراضات من علم الحياة وحده وانما ساهم فيها علم النفس ايضا . فقد دلت دراسة نفسيات الجماهير ان سلوكه الفرد الاعتيادي تمسخه النوازع والانفعالات الجماهيرية اذا دفعه سيلها ، وان الافراد الاذكياء يفقدون في كثير من الاحايين تفكيرهم السليم وتسيطر عليهم الاهواء العمي حينما يتعرضون الى مؤثرات فئوية وجماهيرية ، ودلت على ان الفرد بنفسه شيء ومع غيره شيء آخر ، وان الافراد في علاقاتهم الاجتماعية لا يسترشدون بذكائهم بل ينصاعون الى غزيرة القطيع اللاعقلية ، ويستجيبون اليها استجابات مختلفة ، وان سلوكهم اشبه بسلوك القطيع والقردة والذئاب مثلا ، واستنتجوا من هذه الحالة النفسية ان الانسان اذا ما جرفه سيل من الجماهير ولفه صار قاسيا ظالما .

ولا ينكر دعاة الديمقراطية انها تستند الى تنظيمات وحركات وقرارات جماهيرية، ولكنهم يتساءلون هل معنى هذا ان الحكومة الديمقراطية ستكون دائما وابدا صورة منعكسة لنفسية القطيع ، ومرتعا خصبا للمهوشين والدجالين والدساسين ، تستهويها الهتافات العالية والشعارات الصارخة ، ويسيرها المتصيدون والفرصيون ، وتعصف بها الحزازات والاغراض وتصرعها المخاوف والوساوس ، ويتفسخ فيها نظام الحكم ، ولا حكم للعقل والحقيقة فيها ؟ يجيب النازيون والفاسيستيون واكثر الشيوعيين الذين استمدوا آراءهم السياسية من الداروينيين الاجتماعيين واللاعقليين واصحاب نظرية الصفوة المختارة ، كما سنرى في بحثنا عن النظم الكلية ، عن هذا السؤال بالايجاب .

اما علم النفس فيتساءل : هل سيكون ذكاء الجماهير عاليا ، وهل يمكن ان يكون كذلك لدرجة تستطيع بها كل حكومة ديمقراطية ان تنفذ التزاماتها وتؤدي وظيفتها بنجاح في عالم حديث معقد ؟ لقد ابتكر علماء النفس عدة طرق لقياس ذكاء الانسان الفطري وكانت مهمتهم ولاشك على جانب عظيم من الصعوبة والاهمية . وقد توصلوا الى نتائج غير مرضية ، فالاشخاص الذين كانوا على جانب عظيم من الذكاء فشلوا في القيام ببعض الاعمال التي تتطلب مثل هذا الذكاء . ولم تكن المقاييس دقيقة آنذاك ، فانصرفوا لتحسينها .

ومع هذا ، فلا ينبغي ان نتجاهل اتهامات علم النفس للديمقراطية ، اذ ان هذه الاتهامات منصبة على اهم مقوماتها . ان معرفة نفسيات الجماهير ودراستها دراسة علمية لمن اهم القضايا التي ينبغي ان تعنى بها الديمقراطية . فمن السهل ان نثير الشكوك حول سلوك الافراد بين الجماهير ، ولكن يتعذر ان نعرف كل شيء عن سلوك الجماهير . فلم تبرهن دراسة نفسيات الجماهير على ان الحكومة الشعبية لا تنفع ، وان الرأي العام ، وهو نقطة الارتكاز في دراسة نفسيات الجماهير ، اقل عقلا من ملك او ديكتاتور او صفوة مختارة ! ان اكثر علماء النفس اليوم لا يعترفون بهذه الاتهامات والاطلاقات ، فلم يبرهن علم النفس ، بادلة موضوعية ، استحالة التأثير في نفسية الجماهير وتوجيهها نحو خدمة المجتمع الديمقراطي ، اسوة باي نظام آخر اذا ما انتشر التعليم بين الناس ، واصلح النظام الديمقراطي ، وتعهدته قيادة صالحة نيرة . ان نفسيات الجماهير لا تتقلب في المجتمع الديمقراطي وحده وانما تضطرب في غيرها من المجتمعات ايضا .

اتهامات يثيرها علم الرس :

اما علم الرس ، و « موضوعه دراسة الخصائص والفوارق الرسية » فقد ادعى اصحابه ان النتائج التي توصلوا اليها ليست في مصلحة النظرية الديمقراطية . وجدير بالذكر ان اكثر الكتاب الذين اعتنقوا العقائد الرسية في القرن العشرين كانوا من اعداء العقائد الديمقراطية . وقد اظهرت ابحاثهم الخاصة ان القابلية السياسية صفة رسية لا تختلف عن الصفات الجسمية الاخرى ، كلون البشرة ، وشكل الانف ، ولون الشعر ، وشكل الرأس ، ولون العينين . وذهبوا الى ان لكل رس نواحي سامية واخرى واطئة ، وان اقلية ضئيلة جدا من سكان العالم تستطيع بمواهبها الخاصة ان تحكم نفسها بنفسها ، وانه من السخف ان يصدر النظام الديمقراطي الى شعوب آسية وافريقية التي تجهل طبيعة هذا النظام ، والتي لا تصلح له ولا هو يصلح لها ! وان النظام الديمقراطي ، بالاضافة الى ذلك ، يساعد على مزج الارساس العليا بالدنيا ، وعلى طمس خصائصها . ومن اجل هذا فلا يصح ان تجري هذه العملية في مجتمع يصبو الى اقامة نظام اصلح (١) . ولو كان علم الرس علما دقيقا ، ثابت الاصول لهان تقبل مثل هذه الآراء الكاسحة ، وهذه الاتهامات الاساسية ، غير ان ما نعرفه اليوم عن حقيقة هذا العلم لا يقاس بمقدار ما نجهله عنه . فما زالت النتائج التي توصل اليها علماء الارساس اولية ، ولم تخرج عن كونها اتجاهات ومفترضات . ومن الصعب على علم الرس ان يبني على هذا

(1) Maxey, Chester, Political Philosophies, P. 606.

القدر الضئيل من المعلومات فرضيات سياسية جديدة . و لانغالي اذا قلنا ان علم الرس لا يستطيع ان يجعل من نفسه موجها ، وان يكون مرجع الاحكام في هذا الباب . فليست لدينا ادلة كافية تثبت ان الرس الابيض هو اسمى من الرس الاسود او الاصفر او الاسمر في قدرته على التنظيمات السياسية ، او ان بعض تشعبات الارساس الكبرى هي اسمى من غيرها في حكم نفسها بنفسها . ولعل دعاة الاستعمار قد عمدوا الى نشر مثل هذه الآراء المغلوطة لتخدير الشعوب وتضليلها باسم العلم .

ومن الحقائق التاريخية المعروفة ان الشعوب التي احرزت نصرا في تجربتها الديمقراطية لم تكن من الارساس « النقية » . فالشعوب البريطانية والفرنسية والامريكية والسويسرية ليست ارساسا خالصة ، وانما يتألف كل شعب منها من ارساس عدة . فهل يستنتج من هذا ان المزيج الرسي يصلح ان يكون اساسا لاقامة مجتمع ديمقراطي احسن من الرس النقي ؟ والحقيقة ان علم الرس لا يعرف جوابا عن هذا السؤال ، وان علم السياسة لا يعرفه ايضا ، وربما لا يوجد انسان يستطيع ان يجيب عنه اجابة شافية .

اتهامات اخرى يثيرها اصحاب نظرية الصفوة المختارة :

ويحسب هؤلاء ان « الديمقراطية » اسطورة من الاساطير الاجتماعية . ويرى بعضهم امثال باريتو Pareto ومايكلس Michels ان الدولة هي من صنع افراد قليلين مبدعين لا من صنع ارادة شعبية حرة . فقد تشترك الناس في الانتخابات لتصطفي حكامها ، وتبدي رأيها في بعض قضايا البلاد المهمة ، ولكن اختيار الحاكمين وحل المشاكل

ينحدر في النهاية الى فئة صغيرة من الناس تدير شئون الحكومة من وراء ستار . ويدعي اصحاب نظرية الصفوة المختارة ان نظم الحكم ليست الا خيالات مجردة، وان الديمقراطية الحقيقية ليست الا استحالة من الاستحالات . واذا صح هذا الادعاء فانه ينطبق ايضا على النظم غير الديمقراطية ، وتصبح جميع انظمة الحكم مجموعة من الاوهام والخيالات ! ان الايدي الخفية تتسرب الى جميع انظمة الحكم على السواء . فايطالية الفاشيستية لم تكن تحت حكم موسوليني المباشر ، ولا المانية النازية كانت تحت قبضة هتلر وحده ، ولا روسية الشيوعية بيد ستالين . ففي كل قطر من هذه الاقطار صفوة مختارة وطبقة حاكمة .

ويرى باريتو ، بالاضافة الى هذا ، ان اقلية ضئيلة تقبع وراء ابنية برلمانات الدول التي تطلق على نفسها ديمقراطية ، كما تقبع وراء جميع الطغاة المستبدين ، وتلعب الدور الاعظم في ادارة هذه الدول واتخاذ جميع القرارات ، وان النظام السياسي الذي يعبر « الشعب » فيه وبه عن « ارادته » لا يوجد ، بدون منازعات ودسائس ومناورات ، الا في اخلية اصحاب النظريات السياسية الزاهدين في الحياة ، والغارقين في الاحلام ، وان « ديمقراطياتنا في فرنسة وايطالية وانكلترة والولايات المتحدة تميل الى ان تصبح حكومات المتمولين الرعاعية شيئا فشيئا » .

اما الاستاذ روبرت مايكلس ، وهو كزميله باريتو سويسري من اصل ايطالي ، فقد بحث في تنظيم الاحزاب السياسية وعملها في كتابه « الاحزاب السياسية » المطبوع باللغة الايطالية والمترجم الى الانكليزية سنة ١٩١٥ وحسبها تعبيرا عن الطبيعة الاوليكارخية للنظم التي تطلق

على نفسها ديمقراطية في العصر الحاضر . وقد حاول في كتابه هذا ان يبين ان المواطن وان كانت له حقوق سياسية الا انه لا يستطيع ان يتمتع بهذه الحقوق تمتعا كبيرا في تقرير نوع النظام الذي يعيش فيه ، وان الجماهير تحترم الزعامة التي تتمثل فيها آمالها ومثلها .

ومن الفلاسفة الذين انتقدوا الديمقراطية ايضا الفيلسوف الالماني شبنكلر Oswald Spengler الذي قال في معرض كلامه عن المدنية الغربية ان الديمقراطية التي يعرفها العالم الحديث سائرة الى العدم مهما كانت العناصر الحقيقية التي تتألف منها هذه الديمقراطية (١) .

ولنفرض جدلا ان اصحاب نظرية « الصفوة المختارة » على حق فيما يقولون ، وان السلطة في النظام الديمقراطي ، كما في اي نظام آخر ، تنحصر حتما في اقلية ضئيلة . فما معنى ذلك ؟ هل معناه ان الاكثرية المحكومة دمى ميكانيكية تسخرها الاقلية الحاكمة ؟ او ليس معناه ان الاقلية الحاكمة قد اصبحت مؤتمنة على مصالح الاكثرية المحكومة ؟ يدعى انصار الديمقراطية ان الحقائق الكثيرة تدل دلالة واضحة على ان رجال الحكم في النظام الديمقراطي لا يستطيعون ان يحكموا حكما صحيحا الا برضى اكثرية المحكومين ، وانهم ، بالاضافة الى ذلك ، يرعون في ظل هذا النظام مصالح اكثرية ابناء الشعب اكثر من غيرهم .

---

(1) Coker, Francis W. Recent Political Thought, P., 328—332, New York, 1934.

للتوسع في آرائهم راجع هذا الكتاب القيم .

ولنفرض ايضا ان الديمقراطية اسطورة اجتماعية ، او ليس من مصلحة الناس ان يعيشوا في اسطورة ديمقراطية بدلا من اسطورة غير ديمقراطية ؟ لقد اخذ دعاة الديمقراطية في السنوات الاخيرة يبذلون جهودا كبيرة في توضيح اسسها ونظرياتها ، واخذوا يعتقدون ان بقاء اية عقيدة سياسية يتوقف على استنادها الى مجموعة من الحقائق المقررة ، ومع انهم يدركون نواقصها كل الادراك ويسعون الى تلافيها الا انهم يتجنبون الوقوع في اطلاقات كبرى وتعميمات غامضة ، وينكرون ان تكون الديمقراطية مثلا اعلى لكل حكومة من الحكومات ، ولجميع الناس ، وفي مختلف الحالات . فهي لا تصلح الا للشعوب التي قد هيأت نفسها لتقبل هذا النظام بالاعتياد والتدريب والتثقيف العام ، وهي ، بنواقصها ، افضل من اي نظام آخر للحكم . وينبغي ان يكون هدف كل رجل سياسي ترسيخ النظام الديمقراطي في ظل حياة دستورية صحيحة . وكيان اقتصادي عادل . ويتجه العالم اليوم نحو شكل جديد من اشكال الديمقراطية يحقق للناس المساواة والرفاه والطمأنينة . ويقول الاستاذ جارلز مريام Marriam في كتابه « الديمقراطية الجديدة والطغيان الجديد » (١) المطبوع سنة ١٩٣٩ ان المجتمعات غير الديمقراطية لا تتمتع باحسن نوع من انواع الحكم ، ولا باعظمها كفاءة ، وان الحكومة التي تأتي الى الحكم باسوأ نوع من انواع الانتخابات لافضل من حكومة تأتي الى الحكم باستعمال القوة ، وان العدل الاجتماعي يتحقق في المجتمع الديمقراطي احسن

---

(1) The New Democracy and The New Despotism.

مما يتحقق في اي مجتمع آخر . اما جون ديوي ، الفيلسوف الامريكي المشهور ، فيرى ان الديمقراطية تملك من الفضائل والمقومات الاجتماعية الصحيحة ما لا يتيسر لغيرها من انظمة الحكم ، وانها ضرورة من ضرورات الحياة ، وانها تمنح فرصا متساوية لجميع الناس لتنمية ذكائهم وقابلياتهم ولا تنحصر في افلية ضئيلة، وان المجتمعات لا تستفيد من امكانياتها المتعددة الا اذا تمتع كل انسان بنفس الفرص التي يتمتع بها غيره. ويضيف جون ديوي قائلا : ان الاساس الذي تقوم عليه الديمقراطية هو الايمان بقابليات الانسان ، وبقوة ذكائه ، وباهمية خبراته المتراكمة التي تجمعت لديه من جراء عيشه وتعاونه مع ابناء جنسه . ويعترف جون ديوي ان الديمقراطية لم تستطع ان توفر جميع هذه الامكانيات وتتعهد هذه القابليات ولكنه يرى ان النظام الديمقراطي كفيل بتنميتها ورعايتها اكثر من اي نظام آخر ، وان تحرير العقل من عبودية النظم التسلطية هو اعظم حسنة من حسنات الديمقراطية ، لانه يمهد السبيل الى العقل للقيام بالبحث والتجريب لمعرفة الحقائق التي بدونها يتعذر على الانسان ان يكيف نفسه الى عالم متبدل .

والخلاصة ان الاحرار الديمقراطيين يرون ان الديمقراطية ليست معادلة سياسية ، ولا هي نظام للحكم ، وانما هي طريقة الحياة نفسها ، وانها اذا ارادت ان تدافع عن قيمها وجب ان تكون قيادتها مخلصة وقوية ومتطورة ، وان تهتم بسعادة الهيئة الاجتماعية اهتماما عظيما وترعى مصالحها الخالدة ، وان تهيء للافراد فرصا متساوية واطمئنانا اقتصاديا وحدا اعلى من المساواة ، وان تضمن وحدة الصفوف وتتفق على قدر كبير من القيم والمباديء والطرق الاساسية التي يحتاجها كل مجتمع

حديث . فهي بهذا وحده تستطيع ان تتقدم وتتطور وتحافظ على قيمها ، وهي بهذا وحده تستطيع ان تكافح الطغيان « الكلي » وتقضي عليه .

* * *

والديمقراطية عقيدة سياسية مرنة ومتطورة ، وتتضمن ما يأتي :

اولا - ان الفرد اثمن من التربة التي يعيش عليها ، واعز من الثوب الذي يرتديه والبيت الذي يأويه والشراب الذي يحتسيه والطعام الذي يتناوله ، والحقل الذي يزرعه ، والمصنع الذي يعمل فيه ، واغلى من الدولة ومؤسساتها ، ومن التقاليد والعادات والمعارف التي يعيش فيها - انه اعظم من اية قوة سياسية ومجد عسكري . فينبغي ان تسمو قيمة الفرد على كل قيمة .

ثانيا - ان الارض والمعرفة الانسانية ملك لجميع الناس ، وانه مهما كانت طبيعة المنظمات السياسية فان الارض بجبالها وسهولها وبحارها وبحيراتها وانهارها وغدرانها ، بكنوزها التي تجعل بقاء الانسان عليها ممكنا ليست ملكا خاصا « برس متفوق » ، او بأمة من الامم او بطبقة من الطبقات ، وان التراث الاجتماعي ببضاعاته وآلاته وتقاليده وعاداته ومؤسساته ومعارفه ليس ملكا لاحد ، وانما هو تراث انساني قد تراكم بعضه فوق بعض بجهود بني الانسان كلهم .

ثالثا - ان الافراد يستطيعون ان يحكموا انفسهم بانفسهم ، وانهم لم يخلقوا ليكون بعضهم سادة حاكمين وبعضهم عبيدا محكومين ، وان المجتمع الديمقراطي مصنع للاحرار . وان العقل البشري قادر على الابداع والاختراع .

التربية الديمقراطية

تعتمد الديمقراطية في بقائها واصلاح اوضاعها على التربية المنظمة كما تعتمد جميع المجتمعات الحديثة ، سواء أكانت ديمقراطية ام كلية . وتختلف خصائص التربية من مجتمع الى آخر ، ومن مرحلة الى اخرى . فلو القينا نظرة على النظم التربوية في الاقطار الديكتاتورية لوجدنا ان كل نظام من هذه الانظمة يتميز عن غيره بخصائص معينة ، وان هذه الخصائص تظهر في كل مرحلة من مراحل التدريس ، وفي علاقات المعلمين بالطلاب ، والطلاب بالادارة ، والادارة بالدولة ، وتظهر في علاقات الطلاب بعضهم مع بعض في المدرسة وخارجها . و « الديمقراطية انجاز ثقافي واسع ومعقد في ميدان العلاقات الانسانية والقيم الاجتماعية . واذا تعذر على الانسان ان يحافظ عليها في مستوى عال جدا اسوة بانجازاته الرفيعة الاخرى فمن السهل عليه ان يتركها تسير في مهاوي الانحطاط رويدا رويدا . والديمقراطية لا توجد الا في انماط من سلوك الافراد ومشاعرهم وافكارهم ، فاذا حطمت هذه الانماط ولم يتوارثها جيل بعد جيل بالتعليم والتعلم تحطمت الديمقراطية ... » (١) .

ويتوقف بقاء كل مجتمع ، لحد ما ، على طبيعة النظام التربوي . ولكي يزدهر هذا النظام ويؤدي وظيفته ينبغي ان يصطفي لنفسه نوعا مناسبا من انواع التربية يغرس في نفوس الشباب قوى وميولا خاصة

---

(1) The Education of Free Men in American Democracy, P., 48—49.

تميزه عن غيره من المجتمعات . والنظم لا تستورد من مجتمع الى آخر كما تستورد السلع الانتاجية والاستهلاكية .

ملامح التربية البريطانية :

لقد اتضحت معالم التربية البريطانية وتبلورت بصورة خاصة بعد ان توصل الاشتراكيون الديمقراطيون الى كراسي الحكم . ويحتل هؤلاء مركزا وسطا بين الاشتراكيين الماديين والاشتراكيين الماركسيين . فلا هم يقبلون النتائج التسلطية للمادية الماركسية ، ولا هم يقيمون اهدافهم وسياستهم على اسس مثالية افلاطونية او كانتيه . وموقفهم من التعليم يسير تبعا لتقاليد روبرت اوين والاشتراكيين الفابائيين . وبمراعاتهم للتقاليد البريطانية في التسامح والحرية السياسية يتقرب الاشتراكيون البريطانيون ولاشك نحوالتفسير المثالي للاشتراكية لا المادي . ويمثل حزب العمال البريطاني هذه الفلسفة الاشتراكية في الوقت الحاضر .ومع انهذ الحزب يضم مدارس سياسية متنوعة تتأرجح بين الاعتدال والتطرف الا انه قد جعل هذه التقاليد البريطانية نقطة الابتداء في تحقيق الدولة الاشتراكية ، وقد حقق بعض اهدافه الاشتراكية ، فاستطاع ان يؤمم المشاريع الكبرى ذات الطبيعة الاحتكارية ، وان يبسط سيطرته على التعليم ، وان يعمم مجانيته ، وان يجعل منه نظاما تربويا قوميا ، وحديثا لا قديما ، وشعبيا لا طبقيا . ولا يخفى ان هذه السيطرة تختلف عن سيطرة الدولة الكلية كل الاختلاف ، اذ انها تنحصر في الادارة والتنظيم والانفاق على التعليم ولا تتناول مناهج الدراسة ولا طرق التدريس .

واذا كانت الاشتراكية الماركسية في الاتحاد السوفياتي تتوخى بناء كيان اشتراكي ، وتربية اشتراكية ايجابية ، وتدريبا دايلكتيكيا واشتراكيا فان اكثر الاقطار الديمقراطية،كالولايات الامريكية المتحدة ، تتوخى حرية سياسية واقتصادية وتربية ايجابية تستند الى التقاليد الامريكية التي هي تقاليد غير اشتراكية . فقد اخذ المسئولون في الولايات المتحدة لاسيما اثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها يهتمون بـ « طريقة الحياة الامريكية » American Way of Life ويؤكدون ان الاشتراكية والشيوعية عقيدتان « غير امريكيتين » Un — American (اجنبيتان) ، وبضاعتان مجلوبتان . وطبيعي ان اتخاذ هذا الموقف من هاتين العقيدتين سيوصد امام الشباب فرصة الوصول الى احكام حيادية . اما في بريطانية فالتعليم لا يتناول عرض الاشتراكية ولا الرأسمالية ، وكل معلم حر في معالجة مواضيعه لدرجة كبيرة جدا . ان هذه الطريقة البريطانية في عرض وجهات النظر المختلفة تهيء ، كما يقول المربون ، فرصة عظيمة لتكوين آراء مستقلة ، وشخصيات مستقلة .

ولما كانت الديمقراطية عقيدة نامية ومتطورة فعليها ان تساعد على تحسين اوضاع العالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وان توجه انتقاداتها الى « الاوضاع الراهنة » وتظهر زيفها ، وان ينحصر عملها في التضييق على حرية الرأي بمقدار ما يتصل ذلك بالعقائد التي تدعو الى استعمال اساليب العنف والثورة في تبديل نظام الحكم . ويرى المربون الديمقراطيون ان التربية الايجابية ينبغي ان تقوم بتدريب المواطن

الجديد على الحوار والمناظرة الجرة ، وان تبتعد عن التلقين العقائدي ، وان تدافع عن ميرانها الديمقراطي امام هجمات العقائد المتنوعة ، وذلك بان تدرس دستورها في جميع مدارسها من حيث هو قانون ينبغي ان يطيعه ويحترمه جميع المواطنين ، بضمنهم اولئك لذين يطالبون باجراء تبدل في المجتمع .

ولا يوجد تصريح رسمي لحزب العمال البريطاني يوضح فيه موقفه من التعليم ، ولكننا نستطيع ان نتلمس الاتجاهات الاشتراكية في كتاب الاستاذ بيرل برنغ Byrle Pring الموسوم بـ « التربية ، رأسمالية واشتراكية » والمطبوع سنة ١٩٣٧ . فقد جاء في هذا الكتاب : « ان المرونة اول ضرورة تربوية . وقاعدتها الذهبية ان الطفل من حيث هو فرد اهم من الطريقة او المنهج - اهم من اي دافع خارجي تفرضه الدولة او المدرسة . وعلى الدولة الاشتراكية ان تهيء فرصا لتحقيق هذه الفردية individualism . ولا تتحقق هذه المرونة ولا العناية بالفرد الا بنظام تعليمي مرّكزي قد وضع وفق خطط مدروسة . وهذا النظام وحده قادر على ان يحقق مساواة حقيقية في الفرص التعليمية .... وينبغي ان تكون الدولة الاشتراكية ديمقراطية ، وان يصبح المحكومون فيها حاكمين ايضا ، وان يقاس رفاهها برفاه مواطنيها ، وان يكون انضباط افرادها متأت من احساس داخلي لا منبعث من قوة خارجية تضر بحقوق الافراد ... وينبغي ان تستهدف المدارس والهيئة الاجتماعية ضمان حد ادنى من الحرية الى الافراد بما في ذلك

---

(1) Education. Capitalist and Socialist

حرية التعلم بالخطأ بشرط الا يتعارض ذلك مع سلامة اعضاء المجتمع الآخرين ... وان يدرس الاشتراكي ذلك النوع من التنظيم الاجتماعي الذي يلائم المجتمعات المدرسية ملاءمة جيدة ... ومع ان المدارس الاشتراكية لا تعني بتربية الاشتراكيين الا ان التربية ستكون اشتراكية. واذا كان معنى (الدعاية) هو التأثير الذي يحدثه النظام الاجتماعي في اعضائه فعندئذ لا مفر من هذه الدعاية » .

ويطالب مؤلف الكتاب بالغاء المدارس الخصوصية التي تربي اطفالها تربية غير اشتراكية وبسيطرة الدولة على التعليم . ان هذه التسوية البريطانية لا ترضي الفيلسوف الالماني المثالي ولا الماركسي الروسي المادي . فتحقيق المثل الاشتراكية العليا في بريطانية يحتاج الى وقت طويل . فالاشتراكيون البريطانيون لا يؤمنون بالاشتراكية الثورية الانقلابية ، وانما بالاشتراكية التطورية ، ولا يريدون ان يتخلوا عن تقاليدهم التربوية ، بل يريدون الاحتفاظ بها وتطويرها شيئا فشيئا .

ملامح التربية الامريكية :

لقد وجه مؤسسو الجمهورية الامريكية الى التعليم اهتماما عظيما ، وحسبوه قضية وطنية مقدسة تتصل اتصالا وثيقا بالنظرية الديمقراطية التي يقوم عليها المجتمع الامريكي .

وقد ظفرت الولايات المتحدة باستقلالها بعد ثورة معروفة ، واختارت النظام الديمقراطي بعد تجربة طويلة ، واستبعدت نظام الحكم

القائم على الامتيازات الخاصة والمصالح الموروثة والمركزة بعد جهد ولاي ، وعهدت مقدرات الحكم وشئون المجتمع الى حكمة الشعب وثقافته المتزايدة لا الى نظام ملكي او طبقي ، واصبح الحكم فيها شعبيا ديمقراطيا ، وصدرت وثيقة « اعلان الاستقلال » التي اقرت ان جميع الناس قد خلقوا متساوين ، وان الله وهبهم بعض الحقوق الطبيعية منها حق الحياة والحرية والسعي نحو السعادة ، وان الحكومات تستمد سلطاتها الصحيحة من رضا المحكومين ، وان من حق الناس ان يبدلوا او يلغوا اي نوع من انواع الحكومات اذا كان وجوده يتنافى وهذه الغايات . ففي الوقت الذي اقر الشعب الامريكي هذه الحقوق الطبيعية كانت اوروبا ترزح تحت وطأة الامتيازات الموروثة .

علاقة التربية بالنظام الاجتماعي :

وقد ادرك رجال الثورة علاقة التربية بالنظام الاجتماعي ، وفكروا في وضع خطة تربوية شاملة . فوضع الدكتور بنجامين راش Rush وهو احد الذين وقعوا على « اعلان الاستقلال » ، كراسا سنة ١٨٧٦ بعنوان « آراء عن حالة التعليم العامة في بلد جمهوري » تناول فيه وضع خطة تعليمية عامة .

وكانت هذه الخطط واسعة المدى، اذ استهدفت « اقامة مؤسسات تعليمية تبدأ بالمدارس الابتدائية وتنتهي بجامعة قومية تعني بالبحث والتدريس العام والاعداد الى الوظائف » . وقد اهتم رجال هذا العهد باهمية حرية البحث العلمي واعترفوا بها ، وحسبوها امرا حيويا لا لقيام

المؤسسات الشعبية بعملها حسب ، وانما حسبوها شيئا ضروريا لكل ناحية من نواحي التقدم الانساني . ومع ان الآراء والافكار العامة التي تنطوي عليها التربية الامريكية اليوم قد تطورت مع تطور الحياة الامريكية نفسها ونشأت معها الا ان الولايات المتحدة لم تبتدع هذه الآراء كلها ، بل استعارت بعضها من القارة الاوروبية ، وحورت فيها وبدلت . فلم يكن تاريخها حقلة منفصلة عن حلقات الماضي ، بل كان حلقة متصلة في سلسلة تاريخية طويلة تبدأ بالقرون الوسطى ، وتتصل بعصر النهضة ، وتنتهي بتاريخ اوروبا الحديث .

وقد ذهب الرجال الذين اسسوا نظام الحكم بعد الثورة الى ان اعداد الناس للحكم الذاتي واجب من واجبات التربية الاساسية . وذكر جورج واشنطن في خطابه السنوي الذي القاه امام الكونغرس ان التعليم والمعارف والعلوم واجب على حكومة الاتحاد . اما توماس جيفرسن فقد اولى التعليم عناية خاصة ، وذكر احد الذين كتبوا سيرته انه كان من مشاهير المطالبين بجعل ادارة التعليم ادارة مركزية ، واحد المؤمنين الحقيقيين بضرورة قيام الدولة بتقديم المساعدات المالية الى المعاهد العلمية العالية ، واحد المناصرين لفكرة مجانية التعليم في المدارس العامة على ان يستمد نفقاته من الضرائب المحلية . وقد كانت بناية المدرسة في نظره « ينبوع السعادة والرخاء والحكم الصالح » وكان « التعليم رسالة مقدسة » . ولا عجب في ذلك فقد كان جيفرسن اثقف رجل عرفه زمانه . فقد تخرج من احدى الكليات العالية ، ودرس الادب الكلاسيكي ، وتعمق في كل فرع من فروع الادب والعلم ، وكان

مؤسس جامعة فرجينيا . واختار شعارا لها : « وستعرف انت الحقيقة ، وستجعلك حرا » . وقد وضع خطة لتأسيس مدارس ابتدائية في كل لواء من الويتها ، ومدارس ثانوية لا تبعد اكثر من ثلاثة اميال عن بيوت الطلاب ، ومعاهد عالية منتشرة هنا وهناك لا تبعد اكثر من مسيرة يوم واحد على ظهر جواد ، وجامعة تطلق فيها حرية البحث العلمي . وقد اكد جيفرسن على ضرورة فسح المجال لابناء الفقراء ان يتمتعوا بنعم التعليم ، وان ينتقى احسنهم لمواصلة دراسته في المدارس الثانوية . وحذا الرئيس جون آدامز Adams حذو واشنطون في الاهتمام بالتعليم ، وحث رجال الكونغرس على السير في هذا النهج الصالح . الا ان الزمن لم يكن مواتيا لتنفيذ هذه الخطط التربوية ، وظلت احلاما تراود اذهان المفكرين والمربين ، وصارت فيما بعد اساس التفكير التربوي في الولايات المتحدة .

امريكة ليست امة :

امتاز العصر الذي ابتدأ برئاسة جاكسون Jackson بمعارضة شديدة للخطط التعليمية والثقافية الي جاء بها كل من واشنطون ومديسون وجيفرسن وآدامز . وقد بلغت ذروتها حينما نادى بعضهم ان امريكة ليست امة ، بل انها مجموعة من دويلات ذات سيادة ، وكل واحدة منها تستطيع ، اذا رغبت ، ان تنسحب من الاتحاد بموجب الدستور ، وان ليس من شأن الحكومة الامريكية ان تتدخل في شئون الزراعة والاقتصاد والصناعة والتعليم . وقد تميز هذا العصر ايضا بتأكيده على الحرية

الفردية في الاقتصاد ، وعلى المساواة الفردية في الديمقراطية ، وعلى حقوق الافراد اذا ما تصادمت مع مطالب المجتمع .

وحينما حدثت الثورة الصناعية تركت اثرا كبيرا في الفترة الثانية من تاريخ الولايات المتحدة ، وظهرت اتجاهات جديدة في المجتمع الامريكي تتلخص : في تطور الآلات الصناعية تطورا سريعا ، وفي نمو الشركات الصناعية والمالية والتجارية الكبرى التي ادت الى تكوين انواع جديدة من الملكية ، وفي انتشار وسائل المواصلات التجارية التي ادت الى اتساع نطاق التجارة ، وفي نمو المدن التجارية والصناعية التي ادت الى ازدحام السكان، وفي ظهور ازمات اقتصادية دورية التي اشاعت الخوف والذعر في نفوس المواطنين، وفي نشوء العمال الصناعيين بتنظيماتهم العمالية ومنازعاتهم واضراباتهم الذي ادى الى اضطراب اجتماعي، وفي تحويل نظام ألرق من نظام بيتي domestic ، كما كان في الايام القديمة ، الى نظام رأسمالي على يد اصحاب رؤس الاموال المستثمرة في زراعة الاقطان وتحطيم هذا النظام في الحرب الاهلية ، وفي انتشار زراعة القطن في الجنوب الغربي ، وفي تحويل ملكية الاراضي الوطنية العظيمة والموارد الاخرى الى ملكية فردية تستغل بالتشبث الفردي للحصول على ارباح فردية في نجوة من « الحكومة الوطنية » ، وفي غير هذا وذاك . وهكذا نجد ان الامة التي ازدحم سكانها على الشواطيء نوعا ما انتشرت من المحيط الاطلسي الى المحيط الهادي ، وان اقتصادياتها الصناعية والزراعية قد اندلعت فيها نيران الثورة . (١)

---

(1) The Uique Function of Education in American Democracy, P., 32.

وقد ساعدت هذه الثورة الصناعية على ان تكون التربية الامريكية منسجمة في تشكيلاتها واغراضها . ففي مدة قصيرة انتظمت المدارس القروية المبعثرة في نظام تعليمي عام ضمن كل ولاية من الولايات بجهود بعض المربين امثال كارتر Carter وهو راس مان Mann وهنري بارنارد Barnard ، وحلت المدارس الرسمية في المدن محل المدارس الخيرية ، وارتفع عنها طابع العوز الذي كان يشينها . وفي اوائل العهد الجاكسوني كان تعليم جماهير الشعب حلما بعيدا ومثلا اعلى هزيلا يداعب قلوب المصلحين ، وصار في اواسط القرن الثامن عشر حقيقة يلمسها ملايين الناس . ثم اخذت فكرة المساواة في الديمقراطية تسير من ظفر الى آخر ، وبدأت اولا بين السكان البيض انفسهم ، فقضي على التمايز العظيم القائم على اساس الثروة ، ثم توغلت ذلك في طبقات المجتمع الاخرى . وقد ساعد انتصار الحزب الجمهوري في سنة ١٨٦٥ على استمرار الاخذ بالتقاليد الثقافية للديمقراطية الجاكسونية . ولم يعد امر العناية بالتعليم مقصورا على رؤساء الجمهوريات ، بل اخذ يتغلغل في اواسط المواطنين والساسيين وخاصة بين المربين انفسهم .

الآراء القائمة والمصالح المركزة وتأثيرها في التعليم :

لقد اظهر الاستاذ مورل كيرتي Curti في كتابه « الآراء الاجتماعية للمربين الامريكيين » (١) ما لافكار العصر ومصالحه الكبرى

(1) The Social Ideas of American Educators.

من تأثير في تكوين الآراء التربوية واهدافها . فقد نظر الى التربية من حيث هي احدى العوامل المساعدة في دعم الحكومة الديمقراطية ، وجعل وظيفتها « امتصاص » العناصر الاجنبية واذابتها في كيان الشعب العام ، واعتبرها من احدى العوامل التي تعينه على تحقيق المساواة في اعداد الناس للتمتع بالفرص الاقتصادية غير المحدودة التي يزخر بها المجتمع الامريكي .

وشق التعليم العام طريقة وسط هذه العوامل المتدافعة وكان يعيق تقدمه كثير من اصحاب الامتيازات الموروثة والمكتسبة . ونستطيع ان نقسم هذه الفترة الطويلة في تطور التعليم العام الى ثلاث مراحل : ففي المرحلة الاولى رأى الساسة الاولون ان التربية سبيل للوحدة الوطنية ، وسند للحكومة الشعبية ، وأداة للتحرر الثقافي ، وخادم للفنون الجميلة ، ومعين يمد المشتغلين بالشئون العامة والخاصة باصحاب المواهب والقابليات . وفي المرحلة الثانية ، اي في المرحلة التي انتشر فيها التعليم العام واصبح حقيقة ملموسة ، اراد الانسانيون ان يجعلوه ديمقراطيا وشاملا ، وان يكون حصنا تتقى به الاخطار التي تهدد الحكم الشعبي ، ووكالة « لامتصاص » الاجانب ، وعاملا من عوامل امداد الافراد بالفرص العظيمة التي تقدمها الحياة الامريكية والاقتصاد الامريكي . اما المرحلة الثالثة فهي المرحلة الحاضرة .

« لقد انتهت الفترة المتوسطة من تاريخ امريكا بمصالحها وآرائها السائدة . فما النتائج التي توصلت اليها الديمقراطية القائمة على

فكرة المساواة ، وما محصول السياسة الاقتصادية التي اتبعت في ذلك الحين ، والطرق التي اتخذت للاستفادة من الموارد الطبيعية ، والفلسفة التربوية التي صيغت ؟ هذه بعض الاسئلة التي تواجه رجال التربية اليوم ، وهم ينظرون الى حاضرهم ويتطلعون الى مستقبلهم في الافق القريب . فاذا كانت جذور الحاضر والمستقبل تمتد في الماضي البعيد ، واذا كان قادة امريكا الاولون على صواب في ربط الفلسفة التربوية باحوال المجتمع ومستقبله فينبغي ان نواجه هذه الاسئلة ونجيب عنها في ضوء المعلومات المتيسرة ... » (١)

وهنا لابد من ذكر بعض التطورات : فقد استمر ايمان الامريكيين بالديمقراطيه ، واتسعت اعمال الحكومة ، واستحوذ على الاراضي لفيف من الافراد ، واخذوا يؤجرونها على عدد من الافراد ، وارتفعت اصوات الناس تطالب بوجوب المحافظة على خصوبة التربة والابتعاد عن انهاكها ، وخيمت ملكية الشركات الكبرى في الصناعة بظلها الثقيل على الملكية الفردية ، وارتبط الاقتصاد المحلي بالاقتصاد الوطني ، وانتظم المنتجون من عمال واصحاب عمل في جمعيات ونقابات ، وانحل الاقتصاد العائلي ، وتغلغلت الحكومة في كل ناحية من نواحي الحياة ، وازداد نفوذها يوما بعد يوم ، وحطمت الطريقة العلمية بعض العقائد الاجتماعية القديمة ، وساهمت العلوم الاجتماعية في تقديم معارف جديدة جمة ، وتبدل مجرى السياسة الخارجية ، ووعد رجال ذلك العهد الناس بقدوم عهد زاهر من الرخاء والطمأنينة .

---

(١) المصدر السابق نفسه ، صفحة ٥١

وكان الوضع الدولي في آسيا واوروبا متلبدا بالغيوم ، ومجللا بالرعود ، وكان التنافس الاستعماري والتسابق في التسليح والاستعداد للحرب على اشده في سنة ١٩٣٧ . فرأت امريكا ان تبتعد عن هذه الاجواء العاصفة والمنازعات الشديدة وتعلن حيادها . ولكنها سرعان ما اعادت النظر في موقفها حينما اشتد الخطر على الديمقراطية في سنة ١٩٣٩ ، فانضمت الى المعسكر الديمقراطي ، واشتركت قواها في صراع عالمي رهيب ، وخرجت اعظم قوة عسكرية وصناعية في العالم . وماكادت امريكا ان تخرج من هذا المعترك الرهيب بعد ان حطمت النازية والفاشيستية والشنتوية حتى وجدت نفسها ثانية امام خطر جديد لا يقل عن الخطر القديم قوة وتنظيما وعزما وعقيدة ، وها هي اليوم تستعد كل الاستعداد لدخول حرب عالمية ثالثة بغية توطيد دعائم الحكم الديمقراطي .

وقد احدثت هذه التبدلات في السياسة الامريكية وضعا جديدا في الخطط التربوية الامريكية ، واهتماما جديا من رجال التربية والتعليم . واذا كان ما ذكرناه عن بعض التطورات في الاتجاهات السياسية الداخلية والخارجية حقا فيدو « ان المجتمع الامريكي لم تحل فيه بعد مشاكل الحكومة ولا معضلات الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وانه لم يجعل وظيفة التربية متصلة بنشر عقائد ثابتة ومعلومات فنية عملية ، او خدمة السلطات الحاكمة ، وانما هو مجتمع يحتوي على قضايا اساسية ذات صلة بشئونه الداخلية والخارجية منها قضية صيانة الاساليب التربوية

نفسها . وللتربية في مثل هـــذا المجتمع وظائف والتزامات ابداعية Creative كما لهـــا وظائف والتزامات محافظة Conservative عظيمة جدا » . (١)

واذا اراد بعض رجال السياسة والتربية ان تسير التربية في ركاب الدولة ، فما هي هذه الدولة ؟ اهي رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، ام الاكثرية من اعضاء مجلس الكونغرس ؟ اهي الاكثرية في المجالس التشريعية للولايات الامريكية المختلفة ام اكثرية مجالس البلديات ؟ هل تسير التربية وفق رغبات حـــاكم الولاية ام رئيس البلدية ؟ اتكون في حوزة مدير الغرفة الزراعية ام رئيس نقابات العمال ، ام مدير الغرف التجارية ، ام في حوزة اي اقلية من اقليات المجتمـــع الامريكي التي تستطيع ان تمارس ضغطا معينا ونفوذا خاصا على المدارس ؟

ويجيب السؤال عن نفسه دون شك ، وتتضح الاجابة على الاقل لاولئك الذين ليسوا على استعداد لان يتخلوا عن الالتزامات التربوية ، ولا ان يخضعوا لرجال السياسة واصحاب المصالح الخاصة من رجال الحكم . ولكن اكثر رجال التربية في الولايات المتحدة يقولون انهم لا يستطيعون تجاهل القيادات المختلفة في المجتمـــع الامريكي ، وهم يضعون حدودا بين وظائف التربية في المحافظة على المدنية وانمائها بالاكتشافات والاختراعات العلميـــة والفعاليات السياسية والاقتصـــادية الآنية ، ويفرضون على التربية بصـــدد الشق الاول مسئوليات واسعة

---

(1) The Unique Function of Education in American Democracy P., 65 — 66.

وعميقة جدا ، وان كان يتعذر في كثير من المراحل معرفة هذه المسئوليات وتأديتها معرفة دقيقة .

و « يستقر التعليم العام في طبيعة المدنية وهي في طريقها الى التفتح . وترتبط بهذا المعنى ارتباطا وثيقا بالمثل العليا والسياسات ومؤسسات الحكومة واقتصادياتها ، كما ترتبط بالعلوم والفنون ... نعم قد يركز كثير من المربين جهودهم في غرفة الصف وطرق التدريس والاختبارات ، ولكن قادة التربية الذين يضعون مادة التعليم ويقررون اهدافه قد يفعلون ذلك بتأثير حاجات المجتمع ودوافعه ومطالبه المباشرة ... » (١)

لقد حسب كبار قادة الجمهورية التربية اداة مهمة وضرورية في تخليد الامة وتحقيق مثلها العليا واستقرار المجتمع الامريكي نفسه . وبهذا الشعور وبهذه العقيدة توغلوا في دراسة طبيعة التربية ، وجابوا آفاقها الواسعة ، ووضعوا خططا لها ، وناشدوا الامة بضرورة تأسيس معاهد علمية عالية تلائم حاجات المجتمع الامريكي .

وظهرت اهمية التربية ايضا في الفترة الثانية من تاريخ الولايات المتحدة ، غير ان هذه الفترة ، كما شرحنا في مكان آخر ، قد تميزت بانتفاضة شديدة ضد الخطط الثقافية التي وضعها مؤسسو الجمهورية الامريكيه ، وظهرت بتأكيد مبدأ سيادة الولايات المختلفة ، وبتسيب في سياسة حكومة الاتحاد ، وبتقدم الديمقراطية القائمة على المساواة ، وبالروح الفردية القومية .

---

(١) المصدر السابق نفسه صفحة ٦٥ - ٦٦ .

طبيعة التربية الديمقراطية والتزاماتها

التربية فلسفة وواقع . وحينما نتدارس محتويات هذه الفلسفة وهذا الواقع تشخص امامنا قيمتان مهمتان : قيمة ذاتية intrinsic وقيمة ظاهرية extrinsic . **فاذا كانت التربية تمس شئون الحياة العملية كل ساعة وكل يوم مساً مباشرا** ، وتستجيب الى الظروف الاقتصادية والسياسية ، ويتقدم المجتمع بها فهذا دليل على انها تعج بتضحيات القرون وذكرياتها ، وبترات من المعرفة وامثلة من البطولة عالية ـ وبعبارة اخرى انها تملك قيما مقبولة خالدة . وهي مع هذا اكثر مما تخلده التقاليد ، وأجل مما تقدمه الكتب والخرائط والصور وطرق التدريس ، واعز من الذكريات ـ انها تفصح عن نفسها وحقيقتها في الشخوص الاحياء الذين يرتبطون بها ، وفي علاقة المعلمين برؤسائهم وطلابهم ومستخدميهم ، وفي جميع الدوافع النبيلة التي تحتمها المعرفة الانسانية والتي نحسبها قوة تصون وحدة المجتمع واستقراره . (١)

وتمد التربية المجتمع بالقيم الاساسية التي يتوقف عليها دوامه وبقاؤه ـ بالقيم الخالدة التي لا تتغير مهما تبدلت نظم الحكم وتبدلت الخطط الاقتصادية ، والتي تصونها اذا ما عصفت بها الازمات ودب اليها الانحلال . ولا نعتقد ان المعلمين قادرون على تحمل هذه الرسالة والاحتفاظ بهذه الامانة، ولكنهم في الولايات المتحدة شاعرون على كل حال بعظم المسئولية الملقاة على عواتقهم ، ومستعدون لان

---

(١) المصدر السابق نفسه صفحة ٧١

يدركوا ما للتربيـــة من مستلزمات وفلسفة ومباديء تعينهم على معرفة رسالتهم .

الملامح الذاتية للتربية :

لا يوجد حد فاصل بين المادة التي تنطوي عليها التربية والاحوال الخارجية التي تؤثر فيها - هذه الاحوال التي تتطلب من رجال التربية الخدمة والعمل . ومع هذا فان للتربية مركزا للثقل خالدا ، هذا المركز ، بل هذا الكنز ، هو المعرفة والاماني والقيم ، ولهـا التزامات نحو مهنة التعليم نفسها . فليس المدرس جنديا ، ولا محاميا ، ولا طبيبا او تاجرا او فلاحا او عاملا . فلهذه المهن مسئوليات والتزامات خاصة ، كمـا للتعليم مسئولياته ايضا ، وللمدرس تراث خاص به هو المعرفة كلها . وللتربية ، فوق ذلك ، التزامات نحو الحقيقة تستدعي البحث والدفاع عنها والاستفادة منها في سبيل الانسانية . وعليها ان تبعث الذكريات القديمة ، وتصل الماضي بالحاضر ، وتنمي في الانسان الطموح ليتطلع الى معرفة جديدة ، فلا يقنع بما هو فيه ، بل يتسلح بالمهارات والمعرفة ليكون فردا مبدعا . والحق ان المحافظة على القوى الذاتية للتربية واثرائهـا امر يخص جميع المعنيين بشئون التربية والتعليم ، سواء اكانوا معلمين ام رجال ادارة ام مواطنين .

والتربية عملية لا تنتهي . فالمعرفة تزداد وتتطور وتتراكم جيلا بعد جيل ، فهي تنمو بنمو الانسانية نفسها ، وهي ترد من ينبوع الحيـاة نفسه ، لا من الكتب والقوانين فقط ، وهي الخبرة بذاتهـا ، والخبرة روح القوانين . والتربية تتناول المعرفة والتدريب والاماني . غير ان

المعرفة لا تكفي ان تكون مقياسا لكل شيء ، وهدفا لكل عملية تربوية ، فلابد من معايير خلقيـــة ، ولابد للتربية من تحمل هـذه المسئولية ، ويعد المربون الامريكيون الآداب العالية مصدرا من مصادر المعايير الخلقية ، ويقولون ان المعرفة ليست زخرفا من الزخارف الارستقراطية ، بل هي عمل وفن ، وكلاهما ركيزتان اساسيتان من ركائز التربيـة التي تتناول تدريب الجسم والروح . ولكن التربيـــة لا تغرس الفضائل الاجتماعية بالوعظ والارشاد بل بالمثل الصالح .

الملامح الظاهرية :

وقد تعهدت التربية الامريكية بالمحافظة على المجتمع الامريكي وتحسينه . وهو ، كما يقول دعاته ، مجتمع ديمقراطي لا « مجتمع ملكي ، ولا هو ديكتاتورية عسكرية ، ولا يقوم على نظام طبقي معترف به ، ولا تديره طبقة لها حقوق مدونة ، ولا ينتمي اطفاله لطبقة معينة عند الولادة ثم يبقون فيها حتى الممات ، ولا تقرر فرص الالتحاق بالمهن والحرف في اول يوم من ايام ولادتهم العرضية . فالابواب مفتوحة امام اصحاب المواهب وفق قانون الطبقة class law ، وتستمد الحكومات المختلفة سلطاتها الحقة من رضا المحكوم ، الذي يستطيع ان يبدلهـا بطرق قانونية ، وتحل المنازعات فيه وتعالج المشـــاكل بالبحث والعمل الشعبي » . (١)

وتستنكر الديمقراطية الامريكية استخدام القـوة في الاستيلاء

(١) المصدر السابق نفسه صفحة ٨٦ ـ ٨٧ .

على مقاليد الحكم ، وترعى حرية البحث العلمي ، وتستند الى مؤسسات ومثل عليا ونظام اقتصادي متطور ، والى فلسفة تربوية ديمقراطية .

ولما لم تعد الديمقراطية امرا مفروغا منه ، كماكان يتصور انصارها ، وحيث ان القوى المناهضة للديمقراطية قد اخذت تشتد سنة بعد اخرى فقد اخذت الديمقراطية الامريكية تعني بالاقتصاديات الشعبية ، وتعد الشباب الى حياة تعاونية ، وفعاليات ارتباطية ، وتعد المواطنين الى المساهمة في ادارة الحكومة الشعبية ، واخذت التربية الامريكية تتمسك بقيم والتزامات اجتماعية ، وتعالج مشكلة الشباب العاطل ، وتتحمل مسئولية تعليم الراشدين .

تربية الأحرار

ان النزاع القائم بين الدول الديمقراطية و « الكلية » يرجع من حيث الاساس الى نوعين متناقضين من الولاءات : نوع يعلن ولاءه الى القائد او الزعيم او الحزب ، ونوع يعلن ولاءه الى القيم واساليب الحياة : لا الى الاشخاص والمؤسسات الحزبية ، والى وظيفة الكيان الاجتماعي وروحيته لا الى شكله وصورته .

وقد ادرك المربون الديمقراطيون ، وخاصة اثناء الحرب العالمية الاولى والثانية ، ان بقاء الديمقراطية واستمرارها يتوقفان على قوة ولاءات الافراد اليها . ومن اجل هذا اخذ قادة التربية في الولايات المتحدة يطالبون اليوم بتنمية ولاءات ايجابية في الفرد واضحة وعديدة . ولا يخفى ان تنمية الولاءات وتكوينها في النظام الديمقراطي لا يعد امرا سهلا ، اذ ان طبيعة الفلسفة الديمقراطية تستوجب الحيطة والحذر ، والابتعاد عن العواطف والتلقين ، وتنمية الولاءات بالدرجة الاولى على اسس عقلية .

ما ولاءات الاحرار ؟

يؤمن الرجل الحر بنفسه من حيث هو انسان له كرامته وقيمته وشخصيته واستقلاله ، ويؤمن بالاخوة والمساواة بين الناس كافة وبطريقة المناقشة والنقد النزيه وحكم الاكثرية ، ويؤمن كذلك بالنزاهة والابتعاد عن الاغراض والترفع عن الدنايا ، وبالانصاف والتسامح والروح العلمية في اداء هذه النزاهة بل هذه الرسالة ، ويؤمن باحترام المواهب

وتقديرها وبالتدريب والخلق والتفوق في جميع نواحي الحياة ويحسبها مثله العليا ، وبالعمل والتزاماته وحقه فيه ، وبالمصلحة العامة ، وبضرورة تنويره بشئونه العامة ليكون على بينة منها . (١)

وينبغي ان تنسجم طرائق تكوين ولاءات الاحرار مع الروح الديمقراطية نفسها ، وان تترعرع في المحيط الذي تجري فيه عملية التعلم نفسها ، وان تظهر في علاقات المدرسة الاجتماعية ، وفي سلوك المدرسين داخل المدرسة وخارجها ، كما ينبغي ان تبدو في الاسس الثقافية لجميع هذه الولاءات . فتكوين العادات الصالحة والميول والمواقف يجب ان يصاحبها شعور بان تكوينها يتصل اتصالا وثيقا بتجارب الحياة وعوافبها . ولا يكون الرجل حرا ما لم يعرف مصادر عقيدته واسسها واهميتها له ولغيره . فالعربي الذي جاهد وناضل في سبيل نشر لواء الاسلام في الجزيرة ، وتوغل في بلاد الفرس والروم توغلا سريعا ادهش العالم ، والذي كان يردد « لا اله الا الله محمد رسول الله » كان يعبر بهذا عن عقيدته الجديدة ورسالته الجديدة تعبيرا صادقا ، وكان يحارب ويستشهد في الحياة الدنيا ليظفر في الحياة الاخرى . والجندي النازي الذي كان يتقدم في سوح القتال واسم هتلر يتردد على لسانه ، واسم المانية يخفق في صدره كان يعبر بهذا عن عقيدته السياسية كل التعبير .

المعارف الضرورية للاحرار :

لقد قيل ان المعرفة مفتاح الحرية ، وان الناس لا يكونون

(1) The Education of Free Men in American Democracy, P., 55.

احـــرارا ، ولا يستطيعـون ان يميـــزوا بين اصـدقائهم واعدائهـــم ، ولا ان يحكمـــــوا انفســـــهم الا بهـــــا ، وقيل ايضـــا ان عقل الانســـــان اهل للحرية ، وان تحريره لا يكون الا بالمعـرفة . ولذلك وجب ان تفتح امام الفرد سبل البحث والتطلع ، وان ترفع عن طريقه كل عقبة تحول بينه وبين الحصول على المعرفة . غير ان المعارف كثيرة ، ولا تتصل كلها بحرية الانسان اتصالا مباشرا . وعليه فلابد من الانتقاء والاصـطفاء . وليس الانتقاء عملا هينا يستطيع ان يقوم به تلميذ من التلاميذ او معلم من المعلمين مهما كان ذلك المعلم قديرا ، وينبغي ان يقوم الاختيار على حاجة الرجل الحر من المعارف والافكار التي تساعده على ان يصون حريته ويوسـع آفاقهـــا ، والتي لا تنحصر في اسـتظهار الحوادث والارقام ، بل تقوم على التبصر والفهم . والرجل الحر من يلم بالشئون الاجتماعية العامة والتيارات الفكرية بعض الالمام ، فتكون له معرفة بطبيعة الانسان في المجتمع وبتاريخ العالم ، وبكفاح الانسان من اجل تحرير عقله ، وبطبيعة التوتر العالمي ، وبنواقص النظام الذي يعيش فيه ، وباهداف النظم الكلية وطرائقها وانجازاتها ، وبمصادر قوة الديمقراطية وآمالها . وتقع مسئولية اعداد الشباب الى هـذه المعارف على التربية الديمقراطية .

انضباط الرجل الحر :

والولاءات الديمقراطية مهما كانت جذورها عميقة وخالدة الا انها لا تدوم طويلا بدون انضباط ، والمعرفة مهما كانت شـاملة ودقيقة الا ان اثرها يبقى ضـعيفا بل يصبح هزيلا عقيما بدون انضباط . وقد ادركت

الدول الكلية ناحية الضعف في الانضباط الديمقراطي ، وحاولت ان تتسلل منه في الازمات والحروب لتطوح بالنظام الديمقراطي ، وآمنت ان الحرية والانضباط حـــدان متناقضان . فما هي طبيعة الانضباط الديمقراطي وما معناه ؟ اما معناه عند الاحرار الديمقراطيين فهـــو « الاستفادة من الولاءات والمعرفة استفادة حسنة ، وتنظيم الحيـــاة لتحقيق غرض من الاغراض ، وتفضيل الامـــر البعيد على القريب ، والمستقبل على الحاضر ، والنفع الاعم على الاخص ، وضبط النزوات الآنية ، وتنظيم الرغبات ... وركوب الطريق الوعر لا السهل » . (١)

ويعد الانضباط الاجتماعي من الناحية النفسية ضربا من ضروب الانضباط الفردي . ولما كان المجموع لا يدرك الا بوجود افراده ، والمجتمع لا يظهر الا بوجود اعضائه فينبغي ان تغرس العادات والميول التي تؤلف الانضباط الاجتماعي في الفرد نفسه . والمجموع لا يطلب من افراده تضحية مصالحهم الآنية لمصالحهم البعيدة ومصالحهم الحاضرة للقابلة حسب بل يطلب تضحية المصالح الشخصية الآنية منها والبعيدة ، الحاضرة منها والقابلة في سبيل المصلحة العامة . وتبدو التضحيات مثلا في الشباب الذي يكرس قسما من جهوده في سبيل حزبه او ناديه ، وفي الفتاة التي تنصرف الى بعض الخدمات الاجتماعية ، وفي السياسي الذي يترفع عن استغلال مركزه لمنافعه الذاتية .

والانضباط الاجتماعي ، شأنه شأن الولاءات والمعرفة ، يختلف في الغرض والصفة الخلقية . ولاشك ان لكل نظام اجتماعي نوعا معينا من

---

(١) المصدر السابق صفحة ٧٦ .

الانضباط . ويعتقد المربون الديمقراطيون ان النظرة البعيدة هي الصفة الغالبة على الانضباط في الـــدول الكلية ، بينما هو في الـــدول الديمقراطية انضباط الرجل الحر . وتقـــع مسئولية انضباط الرجل الحر على عاتق الافراد الاعتياديين ، بينما هي في الـــدول الكلية من صـنع « الزعيم » او الديكتاتور .

طريقة تكوين الانضباط الديمقراطي :

وفي العملية التربوية ، كما في الحياة نفسها ، صراع بين الانضباط والحرية . فمن الناس من يعتقـــد ان الانضباط ينبغي ان يفرض على الافراد من سـلطة عليا قوية فرضـا ، وان يناله الانســـــان قبل ان ينال حريته ، ومنهم من يعتقـد ان الانضباط يتكون تكوينا ذاتيا في نظام تربوي صـحيح ، وان على الناس ان يتحرروا من جميع انواع الضغوط والمؤثرات قبل ان يتمتعوا بانضباط حر . وقد نجم عن هذا التفاوت في الرأي ان ظهرت نظريتان مختلفتان في تفسير طبيعة الانسـان . فدعاة النظرية الاولى ، كغيرهم من دعـاة النظريات التسلطية ، افترضـوا ان النفس امارة بالسـوء ، وانه لابد من تكوينها تكوينا جديدا بفعل قـــوة خارجية ، وصبها في قوالب معينة . وافترض دعاة النظرية الثانية ، اسـوة بغيرهم من اتباع التقاليد الرومانتيكية ، ان النفس امارة بالخير ، وانه لابد من تركها حرة لتتكون وتنمو وفق ميولها الداخلية الذاتية ، لا وفق قوالب مفروضـة . والرأي السائد اليوم هو ان طبيعة الانسان ليست امارة بالسوء ، ولا بالخير ، وانما هي امر بين بين .

ويرى المربون الديمقراطيون ان الاحرار لا يصلون الى الانضباط

باخضاعهم الى انظمة من العبودية ، ولا يبلغونه بمشايعة ميولهم واتباع اهوائهم ، وانما يتوصلون اليه بالانتماء الى مجتمع ديمقراطي ، وباعتناق النظريات الديمقراطية ، وبنشر القيم والاغراض التربوية في العالم ، وبتأدية هذه الواجبات في ضوء المعرفة والفهم والادراك التي هي سلاح الاحرار .

ويرى المربون ان تتدخل الحكومة في شئون التربية ، وتلعب دورا في تنظيمها وتوجيهها لتضمن للاحرار تربية ديمقراطية وانضباطا ديمقراطيا . فقد اصبحت الخدمات الاجتماعية اليوم واجبا من واجبات الدولة لا عملا من اعمال البر والاحسان او جهدا فرديا . ولكنهم يرون ايضا بان السيطرة على شئون التربية والتعليم ينبغي الا تنحصر في سلطة واحدة ، ولا تخضع تربية الرجل الحر الى وكالة واحدة ، وان تتعاون الحكومة والمربي والسلطة تعاونا وثيقا في تسيير المدارس العامة ، على ان تكون الامة مرجع السلطات في هذا الشأن . وتقع على الحكومة مسئولية كبرى وهي تهيأة الاحوال العامة الملائمة لتربية الرجل الحر ، والمحافظة عليها من الطغيان والاستبداد والضغوط الفئوية ، وافساح المجال للمعلمين ان يتمتعوا بفرص موأتية لتأدية واجباتهم بحرية وامانة واخلاص . هذا من جهة ، اما من الجهة الثانية فينبغي على المعلم ان يتحمل مسئوليات والتزامات خاصة ، فيؤمن بالمباديء الديمقراطية ايمانا شديدا ، ويضمن لنفسه مستوى عاليا من الكفاءة المهنية ، ويساهم عمليا في صوغ السياسات التربوية ، ويخلق جوا تشع منه المحبة وتنمو فيه الثقة بين الناس ، ويزداد التعاون والتعاطف .

وتقع على الشعب ايضا مسئوليات والتزامات عند وضع خطة تربوية ديمقراطية • فالتربية في النظام الديمقراطي كالسياسة تتصل بقابليات الافراد الثقافية والمدنية والخلقية • وتنحصر هذه المسئوليات في ثلاثة امور : ان يكون لديهم الادراك الكافي عن طبيعة التربية الديمقراطية ، وان يصونوا التعليم العام من تعديات القوى الرجعية ، وان يسعوا الى احلال الثقة والتفاهم والمحبة بين المربين انفسهم •

من مشاكل
التربية الديمقراطية

على ان الديمراطية وان كانت زاخرة بالآمال ودفاقة بالحيوية والحركة ، وهي وان كانت لها فلسفة وطريقة بالشكل الذي اوضحناه ، الا انها في الوقت نفسه ليست فلسفة « كاملة » ، ولا « تنظيما » اقتصاديا وسياسيا « نهائيا م » ، بل فلسفة تجر وراءها طائفة من المشاكل السياسية والاقتصادية والتربوية الناجمة عن « طبيعتها » الاصلية ، وعن الامتيازات الموروثة ، والآراء الاتباعية • ومن هذه المشاكل التربوية :

ا ـ النظام الموحد :

هل ينبغي ان يكون نظام التعليم واحدا ويؤدي الى غاية واحدة ام انظمة متنوعة تؤدي الى طرق وغايات متنوعة ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال تتقلص او تتمدد حتى يصل الامر الى بحث العمر الذي ينبغي ان ينتهي به التعليم الواحد ويبدأ به التعليم المتنوع • ويرى كافة المربين ان اختلاف الافراد في اعمالهم اليومية وفي قابلياتهم ومواهبهم العقلية تستلزم اختلافا في المناهج الدراسية ، وان المنهج الموحد الذي يوضع لجميع الطلاب لا يستند الى اسس ديمقراطية صحيحة ، وان افساح المجال امام الطلاب لان يتمتعوا بفرص تربوية متساوية ليس معناه « التوافق » في التدريس •

لقد كانت حركة جعل النظم التعليمية ديمقراطية من الناحية التاريخية احتجاجا على التنوع التربوي القائم على تمايز طبقي ، وعلى

المدارس الطبقية التي جعلت ابناء الاغنياء في صعيد وابناء الفقراء في صعيد آخر . فقد راعت نظم التعليم القديمة الفوارق الطبقية الموجودة في المجتمع ، وقامت على هذا الاساس ، وساعدت على تعويق حركة التكتل القومي والتضامن القومي . وحينما اخذت النظريات والمباديء الديمقراطية تتوغل في المجتمعات الاوروبية وتتراجع امامها النظم الفردية والاستبدادية تأثرت التربية بهذه النظريات والمباديء ايضا ، وطالبت بالغاء الفوارق الطبقية في المدارس ، واقرت ان التعليم العام واجب اساسي من واجبات الديمقراطية ، وان الديمقراطية نفسها لا تقوم الا على التثقيف العام ، والتعليم الشعبي ، وان مدارس الخاصة لا تربي الا اعداءا للنظام الديمقراطي ، وان انتقال الاطفال من مدرسة ابتدائية الى ثانوية وعالية ينبغي ان يقوم على قابلياتهم الخاصة لا على بنائهم الطبقي والاقتصادي .

ومع ان النظريات الديمقراطية كانت تطالب بتأسيس نظم تعليمية واحدة ، وتنادي بان اسس التمايز ينبغي ان تكون عقلية لا اقتصادية فلم تكن الفروق العقلية في القرن التاسع عشر معروفة كالفوارق الاقتصادية . فقد كانت مقاييس الذكاء تمر في اول مرحلة من مراحلها التجريبية . وقد فهم رجال الاصلاح آنذاك ان الديمقراطية في التعليم معناها قيام نظام تربوي واحد يتمتع به جميع الطلاب ويقودهم الى جميع الدراسات العالية ، لا نظام « ثنائي » يقود ابناء الاغنياء الى جميع مراحل التعليم وابناء الفقراء الى بعض مراحله . وكان اول من اقترح تأسيس مثل هذا النظام الموحد جون نوكس Knox في القرن السادس عشر . ثم

جاء بعده كومنيوس Comenius واقترح في القرن السابع عشر خطة جديدة تتألف من عدة مراحل ، كل مرحلة تساير مرحلة معينة من مراحل نمو الفرد وهي : الرضاعة ، والطفولة ، والحداثة والشباب . وجعل طول كل واحدة منها ست سنوات . ثم اقترح كوندورسه خطة اخرى ، ونسب ان يبدأ التنوع في المرحلة الثالثة (١٣ ـ ١٨ سنة) . وقسم منهج الدراسة الى ثلاثة اقسام رياضيات وعلوم ، دراسات فلسفية وسياسية وتاريخية ، وعلوم تطبيقية ، وكل قسم يقود صاحبه الى سلم الدراسة العليا .

٢ ـ الشعور الطبقي في التعليم :

ان نظام العائلة «البطريقية» (١) Patriarchal والميراث قد سبب انقساما طبقيا في المجتمع ، وادى الى عدم المساواة منذ الازل . فالميراث الذي يختص به الذكور دون الاناث هو في الاصل ثروة قد جاءت عن طريق الغلبة والفتح . وكل ثروة تأتي عن هذا الطريق قوامها الارض عادة . وتعد ملكية الارض في الشرق والغرب حتى يومنا هذا علامة من علائم الارستقراطية او التفوق الطبقي . وبتطور المجتمعات الحديثة من مرحلة الزراعة الى الصناعة ظهر مصدر جديد من مصادر الثروة ـ وهو المصدر البورجوازي .

وبسبب نظام العائلة هذا ينال ابناء الاغنياء تعليما يختلف عن تعليم ابناء الفقراء . وبسبب الميراث يكون ابناء الاثرياء في مأمن عن غائلة العطالة والجوع والمرض والجهل . ولولا نظام الميراث والعائلة

(١) هو النظام الذي تكون السيادة فيه للأب .

« البطريقية » لامحت آثار التفاوت في الثروة في غضون جيل واحد ، ولما نال ابناء الاغنياء تعليما يختلف عن تعليم ابناء الفقراء . وبقدر ما يتصل الامر بالتعليم فان منزلة الاب الاجتماعية هي التي تقرر تربية ابنائه . ففي المجتمعات الطبقية لا يقوم احترام الاطفال على اساس قابلياتهم فقط وانما على ثروة آبائهم . وينشأ لدى هؤلاء الاطفال اعتقاد بانهم افضل من ابناء الفقراء واسمى منزلة ، ويحاولون ان ينقلوا هذا الاعتقاد الى ابناء الفقراء انفسهم . وعلى هذا الاساس فان من نواقص التربية القائمة على فروق طبقية انهـــا تزرع الكبرياء في نفوس الاغنياء ، والاستخذاء في نفوس الفقراء كما يقول برتراند رسل .

ولما كان لكل نظام اجتماعي اداة تربوية خاصة به يستخدمها في التلقين والتثقيف ، فقد كانت المدرسة الانكليزية « الخاصة » Public مثلا اداة من ادوات التمايز الطبقي ، والشعور الطبقي ، و « الارستقراطية » الانكليزية . فهي التي خلقت عقلية الارستقراطي ، وخاصة في القرن الثامن عشر ، وهي التي نقلت هذه العقلية الى القرن التاسع عشر برغم الظروف وتطورها وتبدلها . وكان من اشهر هذه المدارس : ايتون ، وهارو ، وونشستر . اما الآن فبالرغم من توسع التعليم وانتشاره ، وبالرغم من نجـــاح الحركة الديمراطية في التعليـــم فان مدارس « الخاصة » او مصانع التمايز الطبقي ما زالت قائمة ، وما زالت تحتضن ابناء الاغنياء وتحدب على تربيتهم تربية « ارستقراطية » ولكنهـــا في الوقت نفسه لم تبق بمعزل عن التبدلات الاجتماعية الكبرى التي ادت الى تخفيف غلواء الارستقراطية والشـــعور الطبقي في كل قطر من اقطار العـــالم .

واذا كانت التربية الارستقراطية تنطوي على هذا النقص فان التربية الديمقراطية تتضمن نقصا آخر . فالديمقراطية من حيث هي قضية عاطفية تتضمن ، كما يقول رسل ، امرين : فحينما يقول الرجل الديمقراطي باعتزاز : « انا واياك على حد سواء » فليس في قوله الا الحقيقة والصواب والنفع ، ولكنه حينما يخاطبك بغرور : « انت لست احسن مني » ففي كلامه هذا خطأ ومغالاة ، واقامة الحواجز في طريق اصحاب المواهب والقابليات . وبعبارة اخرى : ان الديمقراطية صالحة متى ما بعثت في الفرد احترام الذات ، وطالحة متى ما ألبت الآخرين على اضطهاد النابهين . ويتمثل هذا الاضطهاد ، كما يقول رسل ، في المدارس الارستقراطية الانكليزية . (١)

ولا يخفى ان حاجة العالم اليوم الى اصحاب المواهب والقابليات عظيمة جدا . فبتأثير الاختراعات والاكتشافات ، وباطراد الفنون الصناعية وتقدمها اخذت المجتمعات تنمو نموا عضويا سنة بعد اخرى ، واخذت مشاكلها تتعقد وتتراكم جيلا بعد جيل . وفي هذه الزحمة من الاختراعات والمشاكل تظهر حاجة المجتمع الى طبقة من البيروقراطيين (او الموظفين) الذين يحسنون ادارة الدولة ، ويصبح اعدادهم لهذه الواجبات وظيفة من وظائف الدولة الاساسية ، ويصبح احترام الذكاء الاصيل في الاطفال واجب من واجبات المربين ، واعداد خطط للتحري عنه وانمائه وتنظيم صفوف خاصة بالاذكياء ، ومناهج تساعد على تنمية

---

(1) Russell, Bertrand, Education and The Social Order. P., 76.

مواهبهم وقواهم العقلية هدف من اهدافهم . وتقوم نظرية « الصفوة المختارة » في ادارة الدولة على هذا الاساس .

وجدير بالذكر ان الاضرار التي تحدثها الفوارق الطبقية في شئون التعليم لا تنحصر في الاطفال وحدهم ، وانما تتسلل الى كل ناحية من نواحي التربية : الى المعلمين والمناهج والادارة . فمثلا « تحتل العناية بالعقل منزلة اجتماعية اعظم من العناية بالجسم . وعلى هذا فان المعلم الذي يقوم بتدريس المواضيع العقلية لا يعني بنواحي الطلاب الصحية عادة ، ولا يعرف كيفية تشخيص الامراض الجسمية حينما تبدو اعراضها في الطلاب لاول مرة . ان هذا التفريق بين العقل والجسم تفريق اصطناعي وغير حقيقي . ولكن مما يؤسف له هو ان تأثيره في التكوين الاجتماعي ظاهر ، وقد ادى الى ان تصبح العناية بالجسم والعقل بالجسم والعقل منفصلة بعضهما عن بعض انفصالا عظيما واكثر مما يجب » . (١)

٣ - الدعاية في التربية :

للدعاية معنيان : معنى عام ، ومعنى خاص . فهي بمعناها العام « فن التأثير في اعمال الناس بطريقة التصوير او التمثيل . وقد تتخذ صورة كتابية او كلامية او تصويرية او موسيقية » . وتعرف تعريفا عمليا دقيقا بانها التأثير في سلوك الانسان بتشويه حقيقة التمثيل والتصوير ، او على الاقل بذكر تمثيل ناقص لمنفعة خاصة ولضمان اطاعة عمياء .

---

(١) المصدر السابق نفسه ، صفحة ١٥١ - ١٥٢

وكثيرا ما تنطوي الدعاية على عنصر كبير من عناصر الحقيقة . وبدونه تفشل فشلا ذريعا ولو تعهدها امهر الدعاة . وحينما تستهدف الدعاية احداث تأثير كلي في المجتمع بفرض شعارات ونداءات وانماط من السلوك خاصة على جميع الافراد لمصلحة فئة حاكمة او لمصلحة فئة تريد ان تصل الى كراسي الحكم تكون الدعاية بهذا العمل قد حققت معنى خاصا . و « يمكن تعريف الدعاية بانها محاولة تجنيد الناس لخدمة حزب من الاحزاب بوسائل الاقناع في اي نزاع كان » . (١)

ولاشك ان التربية لا تخلو في يوم من الايام من اهداف واغراض آنية . ولكن هذه الاغراض تختلف عن اهداف الدعاية واغراضها . فالروح التي تسود التربية غير الروح التي تسود الدعاية . فالداعية ، مثلا ، لا يعرض وجهات النظر الاخرى حينما يعالج قضية عامة عن قصد وتدبير . ويضع مصلحة الفئة التي يدعو اليها فوق المصالح الاخرى ، ويتعصب لوجهة نظره ، ولا يذعن للمناقشة والاستدلال ، ويعتقد ان ما يقوله حق لا ريب فيه ، كما لا يتقبل من غيره الآراء التي تتعارض وآرائه .

وتلعب الدعاية دورا مهما في جميع العمليات التربوية . ويتعذر على المعلمين والمربين في كثير من الاحايين ان يخفوا عواطفهم الخاصة تجاه اي امر من الامور ، وان يكونوا دائما « موضوعيين » و « متجردين » . والمشكلة التي تجابه المربين اليوم ، لاسيما بعد ان انقسم العالم الى

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ٢١٣

جبهات عقائدية واضحة ، وبعد ان توغلت المبادىء والنظريات الاجتماعية الى اكثر اقطار العالم القديم ، لا تتصل بتنظيم الدعاية والقيام بها بقدر ما يتصل الامر بمقدارها ونوعها وطريقة تنظيمها كما يقول رسل . هذه هي احدى المشاكل الكبيرة التي يواجههـــا المربون في الاقطار الديمقراطية حيث تتميز الدعاية عن التعليم . اما المشكلة الثانية هي : هل ينبغي في مرحلة دراسية معينة ان نحرر الشباب من تأثير الدعـاية في تكوينهم وذلك باعدادهم للوصول الى احكام حيادية بانفسهم ؟

لقد اخذت الدعاية في المدارس تنتشر في اوروبا منذ عهـــود الاصلاح ، واشتدت اليوم حتى اصبحت جزءا من العملية التربوية في الاقطار الكلية . ولعل اول من اتقن اساليب الدعاية في التربية والتعليم هم الآباء اليسوعيون . ويعد القرن الثامن عشر ، اذا ما قورن بالقرن السابع عشر ، قرنا هادئا وبعيدا عن اثر الدعاية لدرجـة كبيرة . فلما نشبت الثورة الافرنسية ، اتخذت من الدعاية سلاحا ماضيا . اما في عصرنا هذا فقد غمرت كل ناحية من نواحي الحيـاة ، وخاصة ميدان التربية والتعليم .

وبتعميم التعليم وجدت الدعاية طريقهـا الى المدارس ، واصبح ميدانا لهـا فسيحا ، واستطاعت ان تؤثر في سـلوك الافراد اليافعين والراشدين ، في داخل المدرسة وخارجها .

وتتخذ الدعاية اشكالا ثلاثة : الدعـــاية لحزب من الاحزاب السياسية ، ولمذهب من المذاهب الدينية ، ولامة من الامم . وقد جرت العادة ان يبتعد التعليم عن الدعاية لحزب سياسي او اكثر . اما الدعاية

لعقيدة دينية او لامة من الامم فمجالها واسع . « وتقوم كل امة كبيرة بتنمية الروح القومية في مدارسها الرسمية ، وتعد هذا العمل قسما مهما من اقسام تربية المواطن الاعتيادي » .

وقد تتصل الدعاية بقيم او مفترضات عامة او بحقائق ثابتة . وعندئذ تصبح لكل واحدة منها طريقة في العلاج خاصة . فالجدل في القيم النهائية ، مثلا ، امر لا يجدي ولا يمكن . فللناس وجهات نظر خاصة مختلفة .

ويتعذر على المعلم ، كما بينت ، ان يبتعد عن الدعاية كل البعد ، وان يكف عن ذكر بعض القضايا الجدلية في داخل الصف . وكل ما يتوخاه المربون هو الا تكون الدعاية لحساب فئة معينة ، او لفكرة خاصة ، بل تكون لمصلحة الطلاب العامة ، فتعرض كل قضية عرضا ثنائيا او اكثر ، وتبين وجهات النظر المتنازعة او المتضاربة . ومن الضروري ان تقوم المدرسة بقسط من الدعاية لضمان الارتباط الاجتماعي ، والاحتفاظ بجبهة وطنية قوية ومتماسكة . ولكن ينبغي ان يكون من اغراض التربية دائما مساعدة الفتيان على استنتاج الاحكام بانفسهم ما تيسر لها ولهم ذلك ، وان تفتح امامهم سبل المعرفة للتوصل الى هذه الاحكام بدقة وروية . فالتربية ليست فرعا من فروع الدعاية السياسية . وهذا ما ينبغي ان يتذكره ساسة الدول الديمقراطية .

٤ - تدريس الوطنية :

لكل انسان رغبات واهداف . ومن الرغبات والاهداف ما كانت شخصية ، ومنها ما كانت اجتماعية فالاولى خاصة به دون غيره ، اما

الثانية فمتأتية عن اشتراكه وتعاونه مع غيره من الناس . ولاشك ان الدوافع التي تدفع الانسان الى هذه المشاركة كثيرة اهمها : التماثل في المصالح والرغبات ، والتوافق في الآراء ، والارتباط بالدم . وينتظم الناس عادة في دول مختلفة . وتعد الدولة في اكثر اقطار العالم المتمدن اقوى منظمة يرجع اليها الناس في شئونهم ويخضعون .

وتؤدي الدولة وظيفتين رئيستين : وظيفة داخلية واخرى خارجية . وتنحصر وظيفتها الداخلية في ادارة الحكومة والمحافظة على الامن ، وتنفيذ القوانين والاحكام : وتحقيق العدل الاجتماعي بين الناس . اما وظيفتها الخارجية فتتصل بعلاقاتها السياسية والتجارية مع الدول الاخرى ، وتنحصر في صد الاعتداءات الخارجية عنها ، ومساعدة مواطنيها الذين يسكنون اقطارا اخرى على استيطان هذه الاقطار . « ولا نغالي اذا قلنا ان اكثر اعمال الدول القوية في العصر الحاضر تنحصر في استخدام القوات المسلحة ، او بتهديد استخدامها لسلب ثروة الدول الضعيفة التي تعود اليها قانونيا . وتعد هذه الاعمال اذا ما قام بها الناس كل بمفرده اعمالا اجرامية ويعاقب عليها القانون الا اذا كانت بمقياس واسع جدا . اما اذا قامت بها الامم فتصبح مثار اعجاب مواطني تلك الامم انفسهم » (١) . ويقودنا هذا الكلام ، كما يقول رسل ، الى بحث موضوع تدريس الوطنية في المدارس . ولكي يكون تدريسها قائما على اسس صحيحة فلابد من مراعاة امرين : الاهداف التي نتوخاها من هذا التدريس ، والتأثير الحقيقي الذي يتركه في نفوس الناشئة . فمن اهدافها غرس محبة الوطن ، والاعتزاز بامجاد الامة التاريخية اذا كانت هذه الامجاد مدعاة

(1) Russell, Betrand, Education and The Social Order, P., 135.

الى الاعتزاز والفخر طبعا . والوطنية عاطفة مركبة ذات جذور جغرافية وبايولوجية . والشعور الابتدائي الذي يلازمها ليس بشعور سياسي ولا اقتصادي في حد ذاته . والوطنية في صورتها الابتدائية لا توجد الا بين سكان الارياف الذين قل ان يسافروا . اما سكان المدن الذين هم في حركة تنقل دائبة وخاصة في الاقطار الاوروبية والامريكية حيث يتنقلون من مسكن الى آخر ومن مدينة الى اخرى ، والذين لا يملك اكثرهم قطعة ارض يتخذها مسكنا اليه فان العاطفة الابتدائية التي تنبع منها الوطنية تكون اضعف من عاطفة الفلاح او مالك الارض عادة ؛ ويحصل المدني على عاطفة وطنية مصطنعة عن طريق التدريس وقراءة الصحف . وكثيرا ما تكون ، في رأي رسل ، مضرة ، لانها لا تتصل بمحبة الوطن والاهل بقدر ما تتعلق بكره الاجانب والرغبة في التوسع . خذ احترام العلم مثلا : فهو رمز المعارك الحربية والفتوحات العسكرية والاعمال البطولية . فحينما يخفق العلم البريطاني يتذكر الانكليز الاميرال نيلسن ووقعة الطرف الاغر ، وواترلو والعلمين ولا يذكرهم بشكسبير ولا بنيوتن او داروين ، ان العلم البريطاني ، كغيره من اعلام الدول القوية ، لا يبعث في النفس انجازات الانكليز في مضمار المدنية ، بقدر ما يبعث في انفسهم انجازاتهم العسكرية .

ويقول برتراند رسل ان البنين والبنات في العالم الغربي يلقنون ان اهم ولاء اجتماعي هو ولاؤهم الى الدولة التي ينتمون اليها ، وان واجبهم نحوها هو العمل وفق توجيهاتها . ولكي يعتقدون بذلك اعتقادا راسخا يدرسون التاريخ بصورة مزيفة ، وكذلك السياسة والاقتصاد ،

ويستخدم التاريخ من اجل ترسيخ هذا الاعتقاد، وتشوه الحقائق التاريخية والسياسية والاقتصادية ، وتبرز نواقص الدول الاجنبية ، ويسكت عن نواقص دولتهم ، ويساقون الى الاعتقاد بان جميع الحروب التي خاضتها دولتهم كانت دفاعية ، وانها اضطرت على خوضها ، بينما كانت الحروب التي شنتها الدول الاجنبية حروبا عدوانية وتوسعية ، وان الفتوحات التي تقوم بها دولتهم لم يقصد من ورائها الا نشر لواء المدنية ، او نشر الديانة المسيحية ، او القضاء على تجارة الرقيق ، او لتثبيت انظمة الحكم الديمقراطية ، او للقضاء على الشيوعية ، او لامور اخرى ، وان مقاييس بعض الامم في الاخلاق مقاييس واطئة ، وان واجب العناية الالهية ، كما يؤكد النشيد الوطني البريطاني ان « تقمع حيلهم الماكرة » ويقع اللوم في اكثر هذا على نظام التربية والتعليم طبعا .

٥ ـ المنافسة في التعليم :

ادخل داروين في روع الناس ان التطور والتقدم يتم بتنافس صور الحياة المختلفة . فاعتقد المربون ، كما اعتقد غيرهم ، ان المنافسة بين الطلاب احسن طريقة لضمان تقدمهم ونجاحهم في الامتحانات ، وراحوا يشجعونها ويغذونها في كل مرحلة دراسية ، وفي كل درس من الدروس . ولقد دخلت نظرية المنافسة ، كما نعرفها اليوم ، الى نواحي الحياة الاخرى من حقل الانتاج الصناعي ، حينما كانت تجري بين مصنع وآخر ، الا انها تحورت وضعفت باتحاد مصنع بمصنع ، وشركة بشركة اي بتأليف شركات كبرى Corporation في كل بلد صناعي .

وكان من اثر هذا الاتحاد ان انتقلت المنافسة من الميدان الداخلي الى الميدان الخارجي ، واخذت الشركات العالمية الكبرى تطلب الى حكوماتها بضرورة حمايتها اولا ، وايجاد المواد الأولية والاسواق ثانيا .

ان الحياة الحديثة تستلزم ، دون شك ، ان يتعاون الناس فيما يعملون ، فلا يتنافسون ولا يتناحرون الى الحد الذي يضر بهم وبمصالحهم الرئيسة ، وتقع على التربية مسئوليات كبيرة في هذا الصدد . لقد تركت فكرة المنافسة في التربية آثارا سيئة ، فأثارت الحسد بين الطلاب ، وارهقت بعضهم ، ودفعت قسما منهم الى الانكباب الزائد على التعلم over — education من اجل الحصول على رضا والديهم او اساتذتهم ، او من اجل الحصول على درجات عالية لاشغال وظيفة من الوظائف ، او الالتحاق بمعهد من المعاهد ، او الانتماء الى بعثة من البعثات الحكومية ، وسببت ، في حالات خاصة ، اعتلالا في صحة بعض الطلاب ، وحرمانا من النشاط الرياضي والاجتماعي المدرسي اللذين يهيئان لهم سبل النمو . ويعاني متوسطو الذكاء من الطلاب ايضا كثيرا من هذا الاثر السيء الناتج عن المنافسة . وهذا ما دفع ببعض المربين الى المطالبة بتنويع التعليم مع مراعاة تنوع القابليات .

وتقوم المنافسة ، كما يمارسها المدرسون اليوم في اكثر المدارس ، على اسس مغلوطة . وهي منافسة حرة وليست مقيدة . وينبغي الا تكون مثلا اعلا للطلاب والطالبات . فان حاجة المجتمع الحديث الى التعاون والتنظيم اعظم من حاجته الى المنافسة التي تصاحبها

انفعالات نفسية اقلها الحسد والعداء . ولقد الغيت « المنافسة » في التربية السوفياتية في مرحلة من المراحل واستعيض عنها « بالمنافسة الاشتراكية » Socialistic Competition ، وهي طريقة في العمل التعاوني تؤديه جماعة من الطلاب ، وتنال عليه درجات معينة . وليس من المتصور ان تكون المنافسة الحرة نافعة في المدرسة وفي المجتمع باي وجه من الوجوه الا اذا كانت مقيدة وخضعت لمباديء خلقية عامة . ولكن قد يتعذر على الذين يترعرعون في بيئات ترى المنافسة شيئا مقدسا ومرغوبا ان تحسب المجتمع وحدة عضوية متلازمة ومتعاونة .

٦ - التعليم العالي وحرية الرأي :

ولحرية الرأي في الاقطار الديمقراطية اهمية عظيمة لاسيما في المعاهد العلمية العالية التي تستهدف توسيع نطاق البحث العلمي ، وزيادة المعرفة الانسانية ، واعداد الشباب ليكونوا علماء او موظفين اختصاصيين . فالاساتذة ، عادة ، احرار فيما يكتبون ويحاضرون ويبحثون . ويتمتعون بحصانات تقليدية وامتيازات موروثة لا تزعزعها اعاصير السياسة ، ولا ضغوط اصحاب المصالح المركزة .

فالتقدم العلمي في الدولة لا يتم وفق اوامر الحكومة ولا بتوجيهاتها . نعم قد تستطيع الحكومة ان تبسط بعض مشاكل البلاد الكبرى امام العلماء الاختصاصيين وتطلب منهم دراستها واقتراح الحلول اللازمة اليها ، وبمقدورها ان تمنح المعاهد العالية ما يتيسر لها من مساعدات مالية ، ولكنها لا تستطيع ان تطلب منهم ان يتوصلوا الى

نتائج تتنافى والطريقة العلمية ، ولا ان تضرب عليهم حدودا ضيقة في حرية البحث العلمي ، فالعلماء يبحثون ، عادة ، عن الحقيقة في ضوء معلوماتهم وتجاربهم الخاصة بغض النظر عن معتقدات الحكومة واتجاهاتها . ويبدو هذه الاتجاه في البحث العلمي في الاقطار الديمقراطية وخاصة في بريطانية والولايات المتحدة . اما في الدول الكلية فان اكثر العلماء ينفذون توصيات الحكومة ، ويحورون نتائج البحث العلمي في ضوء اتجاهات الطبقة الحاكمة او الحزب الحاكم ، ويتجاهلون احيانا الحقائق العلمية المجردة .

ولكن تأثير الدولة الديمقراطية في التوجيه يظهر في اتجاه آخر - يظهر في مرحلة اعداد الشباب ليكونوا علماء وموظفين . فقد تفرض الدولة طائفة من الانظمة والتعليمات تتصل بشروط التعيين والاشراف على الامتحان الخاص باختيار الموظفين . وعندئذ فلا مناص من ان يكيف الاساتذة المختصون محاضراتهم وفق هذه الشروط ، وان يحدوا من حريتهم في البحث وفق هذه التعليمات التي تضعها الدوائر المختصة . وتختلف كل دولة ديمقراطية عن اختها في انتقاء الموظفين . ففي الولايات المتحدة الامريكية لا تحتفظ حكومة الاتحاد باي معهد عال لهذا الغرض ، ومن جامعاتها ما هو « حكومي » State . ومنها ما هو « مستقل » . وتتم عملية اختيار موظفي حكومة الاتحاد اما بترشيح من رئيس الجمهورية نفسه ، أو بترشيح من احد وزرائه . اما في بريطانية فقد ألفت الحكومة مجلسا خاصا لاختيار الموظفين ، ويشرف عليه عدد من كبار الموظفين . هذا من جهة ، اما من الجهة الثانية فان اختيار

المعلمين الى المدارس والاساتذة الى الجامعات والكليات منوط بكليات المعلمين والجامعات نفسها ، وتحت اشراف وزارة المعارف . وتختلف طريقة اختيار الموظفين في الاتحاد السوفياتي كل الاختلاف . فلا يكون موظفا الا من كان من اتباع المادية الجدلية او من اعضاء الحزب الشيوعي .

وفي الدول الديمقراطية يكون نشر المعرفة ونتائج البحوث العلمية عادة بعيدا عن كل قيد وسيطرة ، اذ ان طمس الحقائق والحيلولة دون نشر المعرفة لا يتفق ابدا والاسس التي تقوم عليها الحكومات الديمقراطية . ولكن الحكومة الديمقراطية تعمد الى ذلك ايام الحروب حفظا لسلامتها ، ان الحرية قوام العقائد الديمقراطية ، وان تربية « الاحرار » وظيفة التربية الديمقراطية .

مصادر البحث الأساسية

1 — Barker, Ernest, National Character, Third Edition, London, 1939.

2 — Coker, Francis W., Recent Political Thought, New York, 1939.

3 — Educational Policies Commission,

A. The Education of Free Men in American Democracy, Washington. 1941 .

B. The Unique Function of Education in American Democracy. Washington, 1937.

4 — Maxey, Chester C., Political Philosophies (Revised Edition). New York, 1948.

5 — Rugg, Harold (Editor) Readings in The Foundations of Education, Vol., New York, 1941.

6 — Russell, Betrand, Education and The Social Order, London, 1949, Third Impression.

راجع الفصل العاشر والحادي عشر ، والثاني عشر ، والثالث عشر ، والخامس عشر والسادس عشر .

7 — Selections From The Encyclopedia of Social Sciences. The Macmillan Company, New York, 1937.

8 — Wasserman, Louis, Modern Political Philosophies, Reprinted, 1947.

الدول الكلية

الشيوعية ، النازية ، الفاشستية

امتاز القرن التاسع بالحرية الفردية واصبحت طابعه الخاص ، وحاولت النظريات السياسية في غضون هذا القرن إن تحد من السلطة ، وتفرض قيودا دستورية ، وتجعل الحكم ديمقراطيا لا استبداديا ، وجمهوريا لا ملكيا .

ولم يخل هذا العصر طبعا من تيارات فكرية استثنائية ، ومن نظريات سياسية تسلطية نادى بها فريق من رجال الفكر ، امثال الفيلسوف الالماني فيشته الذي نظر الى الحرية نظرة ثانوية وانزل الدولة منزلة عظيمة جدا كما سيأتي ذكره ، وهيكل الذي مجد الدولة وقدسها وجعلها موطن الـ Zeitgeist – او مطلق المطلقات الذي تخطه يد التاريخ الغامضة كما سيأتي بيانه ، وترايتشكه الالماني الذي وضع اسس النظريات القومية ، ومازيني رسول القومية الايطالية ، وكارل ماركس الذي نظر الى الدولة من حيث هي اداة تستخدمها البروليتاريات في توطيد كيانها الشيوعي . فتبلورت من هذه النظريات الشيوعية والنازية والفاشيستية .

وليست الشيوعية والنازية والفاشيستية نظما سياسية متماثلة ، وانما هي صور متنوعة من التنظيم الكلي للحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية ، تجمعها اهداف واحدة واساليب واحدة

ومضامين تربوية واحدة تقريبا . وقد سارت في تطورها سيرا متباينا ، وحققت اهدافها تحقيقا متفاوتا . فقد نفذت الشيوعية خططها الاساسية في الاتحاد السوفياتي عقب ثورة اوكتوبر مباشرة ، واحدثت النازية انقلابا في المجتمع الالماني في وقت قصير جدا من تسنمها مقاليد الحكم ، في حين لم تقم الفاشيستية في ايطاليا بتنفيذ مثل هذه الخطط وهذا الانقلاب بعد استيلائها على الحكم الا اذا استثنينا الاصلاحات التربوية التي قام بها جنتيلي . وقد عطلت النازية الحياة الحزبية ومنعت الاحزاب المعارضة من ممارسة اعمالها اثر مجيئها الى الحكم ، وكذلك فعلت الشيوعية في الاتحاد السوفياتي . اما في ايطاليا فلم تعطل الحياة الحزبية الا بعد مرور اربع سنوات من « الزحف على روما » . واستندت النازية في حركتها الى نظريات مدونة ومدروسة شأنها في ذلك شأن الشيوعية . اما الفاشيستية فقد تبلورت نظرياتها اثناء قيامها باعباء الحكم ، وتجلت في المحاضرات والمنشورات والعناوين البارزة التي سطرها دعاة الحرب في الجرائد والمجلات .

وقد حطمت النازية الحركة النقابية وانكرت نظرية صراع الطبقات ، واوجدت للعمال واصحاب العمل منظمة جديدة هي « جبهة العمل » Labour Front . بينما قامت الشيوعية على خلاف ذلك ، واعتبرت نجاحها في السيطرة على الحكم نتيجة من نتائج صراع الطبقات ، وانكرت ان تتجمع الثروة بيد افراد معينين وان يحرم منها العمال والفلاحون ، وحصرت الملكية في الدولة ، بينما حاولت الفاشيستية ان تجد حلا وسطا ، وتسيطر على منظمات العمال واصحاب العمل وتحول

دون وقوع صراع بين الطرفين المتناقضين . والذي استطاع ان ينجزه الدكتور لي وزير العمل في المانيه سنة ١٩٣٣ هو ما اراد ان يتمه روسيني في ايطالية سنة ١٩٢٥ . واذا كانت حركة تنظيم العمل قد اطلق عليها في ايطالية اسم « النقابات » Carporatiosn فقد سميت في المانيا ، كما قلنا ، « بجبهة العمل » . ولكي تتوحد جهود العمال واصحاب العمل وتطرح فكرة الانخراط في منظمات مختلفة وقع رجال الصناعة في ايطاليا على اتفاقية بلاسو فيدوني Palazzo Vidoni ، وامضى رجال الصناعة في المانية « اتفاقية لايبتزغ » للغرض نفسه .

وقد استطاعت الفاشيستية ان تستولي شيئا فشيئا على العمل ورأس المال والصحافة والاحزاب ، وعلى المعاهد الثقافية العليا والمدارس ، وعلى منظمات الشباب والادارات المحلية . وكذلك فعلت النازية والشيوعية .

وعبأت الشيوعية في الاتحاد السوفياتي جهودها ضد طبقة الكولاكس ، فاجتثت جذورهم ، واهدرت دماؤهم ، وحطمت معالمهم ، وجعلت روسية عدوها « الرأسمالية العالمية » ، والمانيا « معاهدة فرساي » ، وايطاليا استرجاع « تريستا » ! واشتدت حركات التطهير في هذه الاقطار الثلاثة تديرها الشرطة السياسية ، واعدت السجون والمنافي ومعسكرات الاعتقال والتعذيب ، واهدرت كرامات البشر من اجل اختلاف في وجهات النظر .

وكان القصد التربوي في المانية النازية « التنسيق » ، وفي ايطاليا الفاشيستية « كل شيء للدولة ، ولا شيء خارج الدولة ، ولا شيء

ضد الدولة » . اما في روسية الشيوعية فان القصد التربوي هو انتاج مجموعة من الرجال والنساء تسير في « النهج الصحيح » .

وتؤمن كل حركة من هذه الحركات السياسية بالحزب الواحد والزعامة الواحدة ، وبتعبئة موارد الامة تعبئة كلية في سبيل مصلحة الدولة . والدولة الرسية هي الغاية في النظامين النازي والفاشيستية ، ولها مظهر دائم هو صفتها الكلية . بينما تعد الدولة الديكتاتورية في العقائد الماركسية وسيلة لتكوين مجتمع جديد من افراد احرار متساوين . وتستغل النظم الكلية عواطف الناس استغلالا تاما في سبيل توطيد دعائمها ونشر نظرياتها، ويستهدف كل نظام من هذه الانظمة ربط الفرد بالدولة على اسس مادية لا دينية او ميتافيزيقية . فالدولة الشيوعية تريد ان تؤسس « مملكة الله ضد مشيئة الله » ، وتريد ان تبلغ المثل الانسانية العليا التي يطمح اليها الاحرار باساليب يستبشعها الاحرار الانسانيون . ولكل نظام نوايا توسعية . فالالمان يعدون شرق اوروبا « مجالهم الحيوي » ، وكذلك الروس . ويعد الطليان البانيا ويوغسلافيا وبلغاريا منطقة نفوذهم ايضا . هذا في اوروبا اما في الخارج فكل حركة من هذه الحركات تستهدف الاستيلاء والفتح ولكن باساليب ومبررات مختلفة .

واذا كانت الاشتراكية الماركسية في بدايتها ثورة تحريرية وحركة ضد الرأسمالية فقد انتفضت على النظم الديمقراطية ، وانقلبت الى ديكتاتورية عنيفة ، كما انتفضت النازية والفاشيستية ، واصبحت نظما كلية لا تؤمن بالنظريات الديمقراطية من حيث هي قادرة على تنظيم المجتمع على اسس جديدة تكفل للمواطنين الحرية السياسية والمساواة

الاقتصادية . وبعد ان انهارت النازية والفاشيستية والشنتوية بعد الحرب العالمية الثانية انقسم العالم الى معسكرين متحاربين : معسكر يؤمن « الديمقراطية » وتتزعمه الولايات المتحدة الامريكية ، ومعسكر يؤمن بالنظم « الكلية » وتتزعمه روسية . ويقف المعسكران اليوم في اوروبا وآسيا وجها لوجه في صراع شديد لا ندري كيف ينتهي ومتى ينتهي .

التعبئة الكلية واساليبها :

ما هي الطرق التعبوية التي تستخدمها الدول الكلية في كفاحها السياسي ، تتلخص هذه الطرق بما يأتي :

اولا - حزب سياسي واحد قد توطدت اركانه ، واحكم تنظيمه ، واعد انضباطه ، يدين له اتباعه بالولاء والطاعة ، ويتعهد رؤساؤه بالتضحية والجهاد . ومن اجل هذا فان الاحزاب الكلية تختلف عن غيرها من الاحزاب الديمقراطية . فهي تعمل وتتعاون في سوح النضال كما يجاهد الجندي في سوح القتال ، وتعتمد على القلة المؤمنة المناضلة لا على الكثرة الخوارة المترددة .

ثانيا - منهج اصلاحي عظيم، يضم جميع المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ويشخصها تشخيصا دقيقا ويقترح الحلول العملية لها . كل ذلك في سبيل بلوغ « النظام الجديد » الذي يتوخاه الحزب . وهذا المنهج وان انطوى على بعض آراء غير أخاذة الا انه يعد في نظر انصاره وجنوده خطوة جبارة وجريئة لمعالجة مشاكل البلاد معالجة جذرية ، وأملا جديدا .

ثالثا - استنهاض الهمم وتمجيد البطولة وبعث المثل العليا في الافراد.
ان جميع النظم الدكتاتورية تقوم على عقائد اجتماعية متطورة.
وهي وان كانت تتحدى القيم الديمقراطية وتعاديها الا انها
تقدم الى جنودها فكرة عن الحياة متطورة ونامية . ان اكثر
شباب العالم اليوم تحدوه « مثالية » عاصفة تدفعه ذات اليمين
وذات الشمال ، ويود لو تتاح له الفرصة في التضحية لها ،
والتعرض الى المخاطر من اجلها . ولما كانت اكثر العقائد
الكلية تتصف بالحيوية والقوة ، وتديرها قيادة منظمة ومضحية
فان اكثر شباب العالم اليوم تستهويهم مثل هذه الحركات
العقائدية وتجذبهم اليها .

رابعا - تمزيق قوى المدافعين عن الديمقراطية واشاعة اليأس بين
صفوفهم ، ونشر البلبلة والذعر في صفوف الامة .

خامسا - استغلال القيم الديمقراطية لمنفعتها ، كحرية الصحافة والتنظيم
وعقد الاجتماعات ، والتمتع بالفضائل الديمقراطية كالتسامح
وتحقيق العدل والامانة . وبينما نرى ان جميع « الكليين »
يطالبون بضرورة تمتع الافراد بكافة حقوقهم قبل وصولهم الى
الحكم نجدهم يتنكرون الى القيم والفضائل الديمقراطية
ويهدرونها هدرا عند استيلائهم على كراسي الحكم . (١)

---

(1) The Education of Free Men in American Democracy,
راجع الفصل الثاني من هذا الكتاب .

١ - الدولة الشيوعية

وتقوم الدولة الشيوعية في الاتحاد السوفياتي على اسس فلسفية وعلمية مدروسة ومنسجمة ، ولم تكن هذه الاسس وليدة تطورات فكرية حديثة ، وانما كانت خاتمة لسلسلة من التفكير الطوبائي الذي بدأ باليونان وانتهى بالانكليز والالمان . وتستند الفلسفة والحركة الشيوعيه (١)

---

(١) يقول الاستاذ ماكس بير Beer في موسوعة العلوم الاجتماعية : ان كلمة « الشيوعية » التي وضعتها الجمعيات الثورية السرية في باريس بين سنة ١٨٣٤ ـ ١٨٣٩ انبثقت من الكلمة اللاتينية Communis ، ولم تستعمل الا بعد سنة ١٨٤٠ للدلالة على الاعمال والعقائد التي تتوخى ضمان السيطرة الاجتماعية على الحياة الاقتصادية بما في ذلك السيطرة على الملكية . وتتميز عن « الاشتراكية » من الناحية الفنية بكونها تتضمن بصورة عامة ملكية بعض او جميع السلع الاستهلاكية ، بينما تتضمن « الاشتراكية » الملكية الاجتماعية للسلع الانتاجية Productive Goods . وبالاضافة الى هذا المعنى التاريخي العام اخذت تشير كلمة « الشيوعية » بين سنة ـ ١٨٤٠ ـ ١٨٧٢ الى العمل الثوروي الذي يستهدف قلب نظام المجتمع الرأسمالي بالقوة ، في حين ان كلمة « الاشتراكية » اخذت تشير الى الفعاليات الدستورية للقيام باصلاح النظام الاقتصادي مع ضمان السيطرة القومية على وسائل الانتاج . ثم اخذ المعنيان يتقاربان بين سنة ١٧٨٣ ـ ١٩١٧ الى ان صارا كلمتين مترادفتين . وبتبدل نظام الحكم في روسية سنة ١٩١٧ اعيد التمايز القديم بين المصطلحين .

الى المادية الجدلية (الدايلكتيكية) . والى المادية التاريخية . كما عبرت عنها كتابات كارل ماركس ، وفردريك انجيلز ، ولينين ، وستالين . واذا كان ماركس وانجيلز موسسي هذه الفلسفة فان لينين قديسها ، وشارحها ، وزعيمها ، وكاتبها ومفكرها وخطيبها ، وان ستالين مطبقها وحارسها .

المادية الجدلية

« وترجع الفلسفة المادية ، في الاصل ، الى معارضة التفسيرات الدينية لمنشأ الخليقة ، ومحاولة تفسيرها تفسيرا ماديا . فقد حاول فلاسفة الاغريق الاول ان يرجعوا اصل الحياة الى الماء او النار او الهواء ، لكن اول من رفع المادية الى مقام الفلسفة ، الفيلسوف الاغريقي ديمقريطس الذي فسر الوجود بانه ذرات تسبح في فراغ ، وعلل اختلاف الموجودات بتفاوت الذرات عددا وحجما وشكلا وترتيبا ، وهي تسبح في الفراغ حسب احكام الضرورة الازلية ، وراى في الحس محض اعتياد ، فقال : بالمران نميز الحلو من المر ، والبارد من الدفي ، وبالمران نميز الالوان ... ، ووصف الروح بانها ذرات ملساء في غاية الرقة والصفاء تولد بحركتها ظاهرة الحياة » . (١)

وتقبلت « الابيقورية » هذه الفلسفة المادية ، وتقبلها « الرواقيون »

---

(١) عبدالفتاح ابراهيم ، دراسات في الاجتماع ، صفحة ٧١ - ٧٢ ، مطبعة الرابطة بغداد ، ١٩٥٠ . اقرأ الفصل الثاني من هذا الكتاب وفيه استعراض واف عن الفلسفتين المادية والمثالية .

Stoics الا انهم طبقوها على خلاف ما جرى عليه الابيقوريون ، فقالوا : « ان الفضيلة والخير انما يكونان بالاستجابة لنواميس مقرره بحكم الضرورات المادية في الطبيعة ، وان افكار الانسان وعواطفه وما يدرك من خير او شر وحق او باطل ليست سوى مظهر من مظاهر تكوينه الجسماني ».ومرت المادية في ظروف عسيرة منذ عهد سقراط وافلاطون وارسطو ، ولم تقم لها قائمة في القرون الوسطى . ولكن طلائعها الحديثة تجلت بعد حين في فلسفة « ديكارت » في فرنسة ، وفلسفة « بيكن » و « هوبس » في انكلترة ... واخذ الماديون الفرنسيون في عهد اليقظة عن هوبس تعليله المادي للوجود ، وعن « لوك » رأيه في ان الافكار والمعرفة مرجعها التجارب والتأمل ، فجمعوا بينها وحاولوا اتمامها بحل معضلة تولد الاحساس والوعي في المادة وهي في حالة الحركة ... » (١)

وعن التفكير المادي نشأت الافكار الاشتراكية والنظريات « الطوبائية » والاشتراكية العلمية . ومع ان اتباع روبرت اوين Owen الاقتصادي الانكليزي يدعون بانهم اول من عرفوا باسم الاشتراكيين (٢) الا ان المباديء الاساسية للفلسفة الاشتراكية لها تاريخ قديم . فكما ان المذهب « الانساني » ينسب الى افلاطون فكذلك تنسب اليه الآراء الاشتراكية .

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) كان بيير لارو Leroux الفرنسي اول من استعمل كلمة الاشتراكية للدلالة على فلسفة اقتصادية واجتماعية سنة ١٨٣١ ، يوم ان كان رئيسا لتحرير مجلة Globe .

الاشتراكية الافلاطونية :

وصف افلاطون في كتابه « الجمهورية » و « القوانين » الاقتصاد الاشتراكي وتطبيقاته في نظام الدولة والتعليم وصفا جيدا . وقد كان اول من ادرك ان الملكية من حيث هي اساس اقتصادي للدولة تؤدي حتما الى تمركز السلطات المدنية والقانونية في يد الطبقة المالكة ، وبالتالي الى انقسام الناس الى فئتين : فئة تملك وسائل الانتاج ولا تعمل ، وفئة تعمل ولا تملك . وبيّن ان انقسام الدولة الى فئتين متعارضتين في المصالح يدعو ان يحقر اعلاهما الادنى ، ويمقت ادناهما الاعلى ، وتناصب كل واحدة منهما العداء الى الاخرى ، وتصبح الفئتان ، عند اشتداد العداء ، في حالة حرب . وقد اقترح افلاطون في كتابه « القوانين » تأميم وسائل الانتاج ، ورأى في ذلك الوسيلة الوحيدة التي تتقي بها الدول اندلاع نيران حرب طبقية ، فقال : « اولا ، ينبغي ان توزع الاراضي والمزارع والعمارات بين جميع الافراد ... وان يتعهد كل مواطن بحصته منها ويحافظ عليها من حيث هي ملك الدولة ، ومن حيث ان مزرعته بقعة من ارض الوطن ، وان يرعاها رعاية تفوق رعاية الامهات لاولادها » . (١)

وقد ذهب افلاطون الى ان حدوث هذا التبدل يجري اما وفق اصلاح جذري في نظام التعليم ، واما ان يسايره جنبا الى جنب وهو عمل لا تقوم به الا الدولة . كما ذهب الى ان الانقسام الحتمي للعمل يدعو الى تدريب المواطنين تدريبا عمليا على اساس قابلياتهم لا وفق

(1) Hans, Nicholas Comparative Education, P. 196.

اصولهم الاجتماعية . ولم يفرق افلاطون بين تربية البنين والبنات . ثم انه بحث ايضا موضوع التدريب العسكري الالزامي للطلاب والطالبات . وقد علق الاستاذ هانز على آراء افلاطون هذه فقال : « اننا نجد في مؤلفات افلاطون جميع الآراء المتعلقة بنظم التعليم الاشتراكية الحالية : سيطرة الدولة على التعليم ، والتدريب العلمي ، والتعليم المدني لا الديني ، والعمل الحقيقي ، والتدريب العسكري ، والمساواة بين الجنسين . (١)

الاشتراكية الطوبائية :

ويعد توماس مور More (١٥١٥ م) في كتابه « طوبيا » احد مؤسسي الاشتراكية الحديثة . وقد تأثر بآراء افلاطون تأثيرا كبيرا. ولذلك سمي جميع الكتاب الاشتراكيين الذين ظهروا في اوائل القرن التاسع عشر بالاشتراكيين « الطوبائيين » . وكان اكثرهم من دعاة « المذهب الانساني » ، وكان توماس مور زعيم هذا المذهب . وقد وجه « الانسانيون» جل عنايتهم في القرن الثامن عشر الى جعل التعليم دنيويا وحكوميا ، وقد كان كل من روسو وكوندورسه في فرنسة يؤمن بمثل هذه الافكار ، ويمثل جانبا من جوانب التربية الاشتراكية والاقتصاد الاشتراكي . وكان كتاب روسو الموسوم « بالعقد الاجتماعي » قائما على نظرية « الارادة العامة » volonte generale التي تدعو الى خضوع مصالح الافراد لمصلحة الجماعة . ومع ان روسو لم يبشر بنظريات اقتصادية اشتراكية واضحة الا انه اقترح ان تحدد الملكية الفردية .

(1) Ibid, P., 196.

وقد خاطب الكورسيكيين ناصحا : « ينبغي ان تملك الدولة كل شيء . وان يكون نصيب كل فرد من الثروة العامة يتناسب والخدمات التي يؤديها الى الدولة » .

وفي ميدان التربية يعد روسو من غلاة المذهب الفردي . فقد ربى طفله « اميل » في معزل عن تأثيرات المجتمع وتدخلات الدولة بالنظر لفساد اوضاع المجتمع في ذلك الوقت . اما كوندورسه فقد طالب ان تكون المدرسة عامة ومجانية يؤمها جميع الاطفال ، بحيث لا يفضي التفاوت الموجود في الملكية الخاصة الى احداث فرص غير متساوية بين الاطفال انفسهم . وقد نحا المربي الشهير بستالوتزي ايضا منحى اشتراكيا في التربية ، ولكنه دافع عن قوانين الملكية ، وربط المدرسة بحياة الجماعة ربطا مباشرا . اما الفريق الآخر من المصلحين الطوبائيين . ومنهم بلان فقد دلت اتجاهاتهم وبحوثهم في شئون التربية والتعليم على روح اشتراكية . (١)

الاشتراكية العلمية :

وحينما وضع كل من كارل ماركس وفردريك انجلز اسس « الاشتراكية العلمية » في الميثاق الشيوعي سنة ١٨٤٧ كان استعمال كلمة « الاشتراكية » معروفا آنذاك . ولم تضف المرحلة الثانية من مراحل تطور الاشتراكية ، وهي الاشتراكية العلمية ، شيئا جديدا الى

---

(١) للتوسع في آراء هذا الفريق يستحسن مراجعة المصدر الآنف الذكر صفحة ١٩٨

النظريات الاشتراكية سوى انها ربطت التربيـــة ربطا وثيقا بالفلسفة المادية كما عبر عنها ماركس وانجلز · ولقد تأثر ماركس بالطريقة الدايلكتيكية (١) المنطقية التي وضعها الفيلســوف الالماني هيكل ، وبالمذهب الايجابي Positivism الذي دعا اليه لدفج فيرباخ Feurbcah وبالفلاسفة الافرنسيين · وبذلك جمــع ماركس بين دايلكتيكية هيكل والتفسير المادي للعالم· وتسمى فلسفته « المادية الجدلية » (او المادية الدايلكتيكية) ·

وقد كان الانغماس في بحث القضايا الاجتماعية في القرن التاسع عشر عاملا مهما من عوامل ظهور « المادية الجدلية » · وفي معنى من المعاني الفلسفية الشكلية نجد ان هــــذه الفلسفة منحدرة من المثالية الالمانية التي ابتدأت بكانت وانتهت بهيكل · فالطريقة « الجدلية » التي وضعها هيكل اقتبستها المادية الجديدة ، وطبقتها في ميدانها الخاص · وشهد القرن التاسع عشر توسعا في التفكير المادي وامتدادا الى علمي الحياة والنفس · وفي الوقت نفسه اظهرت طرائق التفكير المادي نقائص المادية التقليدية التي حاولت ان ترد قوانين سلوك الحيوان وتفكير الانسان الى حركات آلية بسيطة · وقد اخذ تكيف الكائنات الحيوانية الطبيعي الى البيئة ، الذي كان يفسر قبلا تفسيرا معقدا جدا ، يفسر الآن في حدود التنوع variation وتنازع البقاء وبقاء الاصلح ، وفي حدود انتقال الصفات الموروثة · ثم ان الدلائل التي برهنت على ان الاحيـاء

---

(١) كان الاغريق اول من استعمل كلمة الدايلكتيك (الجدل) للدلالة على طريقة الوصول الى الحقيقة بالجدل الذي يقوم به طرفان ·

الجديدة ظهرت بتحوير الاحياء القديمة ايدت فرضية ان الاحياء ترجع كلها الى اصل واحد ، وساعدت على ان ينظر الى الانسان والى كل فعالية من فعالياته من حيث هي قسم من تاريخه الطبيعي . وانتهت تجريبات علم الفسلجة في اعضاء الحس والجهاز العصبي الى ان التحسس النفسي متوقف على تكوين الجسم والمؤثرات الخارجية لدرجة عظيمة جدا . وبتقدم المعرفة اتضح ان الصفات الخاصة في سلوك اي نوع من التركيب Structure لا يمكن ان تستخلص من سلوك الانواع التي هي ابسط تركيبا وتكوينا . وينبغي ان ينظر الى كل مجموعة من قوانين علوم الحياة والفيزياء والنفس مثلا من حيث هي متطورات طالعة emergents وحقيقية ، والا فان الحداثة والتنوع في العالم تقود حتما الى التركيب (الشكل) الميكانيكي للحمأة الاصلية التي انبعثت منها الحياة .

وفي ختام القرن التاسع عشر تحطم التفسير الميكانيكي للمادية بتفسير المادة تفسيرا كهربائيا مغناطيسيا electromagnetic وتصبح حتى المادة mass بموجب هذه النظرية ليست ثابتة . وقد ساهمت « نظرية الكم Quantum Theory بالامس والنظرية النسبية اليوم في تحطيم قواعد المادية التقليدية من نواحي عديدة ، من هذه فكرة الزمان والمكان المطلقة ، وعمومية القدرية universality of determinism والعلاقة السببية . (١)

ان هذا الاستعراض الموجز لأهم انواع الاشكال التاريخية

---

(١) للتوسع في هذا البحث وما يليه راجع كلمة « المادية »

للمادية ، من ايام الاغريق حتى يومنا هـــذا ، يكفي للدلالة على ان مجموعة من المواقف والدوافع المختلفة قد تسربت الى تكوينها العام ، واصبحت جزءا منه. لقد سعت النظرية المادية الى ان تفرض سيطرتها على نواح من الحيـــاة عدة ، وتتغلب على الافكار الروحية والدينية . فكان من اثر ذلك لن تغلغلت في نواحي الحياة الثقافية والاجتماعية .

المادية الجدلية :

وهي الفلسفة التي انطوت عليها كتابات ماركس وانجليز ، والتي اتخذت اهمية خاصة بظهور الدولة السوفياتية في روسية . وقد ذكر سدني هوك Hook في « موسوعة العلوم الاجتماعية » اهم المباديء التي تقوم عليها المادية الجدلية نقتطف منها ما يأتي :

١ - مبدأ الدايلكتيك :

استعارت المادية الجدلية تفسيرها « الجدلي » للحقيقة من فلسفة هيكل المثالية . فقد كان هيكل اول من جعل « الفكرة » idea حقيقة الوجود ، واعطى « المادة » مركزا ثانويا . فقد نظر الى المادة من حيث هي تعبير عن « المطلق » Obsolute او الفكرة وحسبها ظلا زائلا ، وان سير الخبرة يمثل في نفسه نوعا من حوار منطقي تقوم به الحقيقة ، وتنتج

= Materialism في موسوعة العلوم الاجتماعية ، فقد بحثها الاستاذ سدني هوك Hook بحثا قيما . وقد اعتمدنا في كتابة هذا القسم الخاص بالمادية على ما كتبه الاستاذ هوك اعتمادا كليا .

فيه حركات لا نهائية للوصول الى « حل » او تركيب جديد اسمي . ان الهدف النهائي في الطريقة الدايلكتيكية الهيكلية هو « الله » او الروح النقية المتحررة من عبودية المادة . وبعبارة اخرى كان هيكل يعتقد ان هذه الحقيقة او الفكرة تمر ، من اجل توضيح نفسها ، في كفاح دايلكتيكي يمكن تفسيره في مثلث فلسفي ، وكان يرى ان جميع الظواهر التي تحيط بالانسان تخضع الى الطريقة الجدلية الا « الفكرة المجردة » او المطلقة التي برأها من التناقض .

فاذا اردنا ان نطبق الطريقة الدايلكتيكية على عالم الحقيقة ، وهو عند هيكل البيئة السياسية للعلاقات الانسانية ، نجد ان هيكل يحسب الفرد الفكرة الاساسية ، والمجتمع نقيض الفرد ، ويعد « الدولة » هي المؤسسة التي تجد « حلا » للافكار المتناقضة التي تربط الفرد بالمجتمع . وتمثل « الدولة » المجتمع المدني من حيث هي منظمة سياسية متميزة عن المنظمة الاجتماعية . فيحصل المثلث الدايلكتيكي بالصورة الآتية : يصبح الانسان « مسألة » thesis ، والمجتمع المدني « نقض المسألة » Antithesis ، والدولة « حل المسألة » Synthesis

ولقد ادرك كل من انجلز وماركس ما للطريقة الجدلية من اهمية في وضع اسس « الاشتراكية العلمية » ، فبينما يعد هيكل « الفكرة » هي الحقيقة والمادة شيئا ثانويا فان ماركس يعد المادة هي الشيء الحقيقي ، والفكرة تعبير عقلي للمادة . ثم انه حول « المثالية المجردة » التي جاء بها هيكل الى « مثالية حركية » . واذا كان هيكل يرى ان العملية الفكرية هي التي تخلق الشيء الحقيقي ، وان الحقيقي ليس الا

تعبير خارجي للفكرة فان الشيء المادي هو المثل الاعلى لماركس . ويقول ماركس في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه « رأس المال » Das Kapital : « ان طريقتي الجدلية لا تختلف عن طريقة هيكل حسب ، بل هي عكسها تماما . فهيكل يعتقد ان طريقة التفكير التي جعلها ، تحت عنوان « الفكرة » ، امرا مستقلا هي خالقة العالم الحقيقي ، ولن العالم الحقيقي ليس الا الشكل الخارجي « للفكرة » . اما في رأيي ، فالامر معكوس . فالصورة الفكرية ideal ما هي الا انعكاس العالم المادي في الفكر الانساني منقولة في ضروب من الافكار » . ويقول : ان طريقة هيكل الجدلية قد جاءت « منتصبة على رأسها » ، ولهذا وجب ان « تقلب وتقف على قدميها » .

وكان هيكل يعتقد ان الدايكلتيكية هي سبيل التقدم ، اي انها قانون التطور في تاريخ الانسان . وذهب ماركس الى انها الدافع الاساسي للتاريخ . اما انجلز فقد رأى ان المادية التاريخية في اصلها دايلكتيكية . واذا اردنا ان نطبق هذه النظرية الدايلكتيكية على الملكية الخاصة وعلى الدولة تصبح الملكية الخاصة هي « المسألة » ، والبروليتاريات هي « نقض المسألة » ، والغاء الملكية الخاصة « حل المسألة » . وبعبارة اخرى تصبح :

الدولة الرأسمالية	المسألة
والدولة البروليتارية	نقض المسألة
والغاء الدولة	حل المسألة

وهكذا تذهب نظرية ماركس الى ان الدولة ليست خاتمة سعيدة

للعلاقات الاجتماعية التي اقامها الانسان بجهوده الصادقة كما ارادها وتصورها هيكل ، وانما المجتمع الابتدائي الاول .

٢ - مبدأ التفاعل interaction :

ان الاثر الذي تركه مبدأ الفعالية في افكار ماركس جره الى بحث قضيتين فلسفيتين حيرت قبله جميع الفلاسفة الماديين : الاولى تتصل بالصفة المؤثرة لشعور الفرد التي نظر اليها الماديون الاولون من حيث هي مادة كيمياوية مجردة للجسم ، والثانية تتعلق بتفسير طبيعة الشعور الطبقي ، الذي هو قسم لا يتجزأ من اي فلسفة اجتماعية تنادي بفضائل العمل الجماهيري الثوروي . ويعالج ماركس القضية الاولى في ضوء نظريته الجدلية للادراك Perception ، فيذهب الى ان الادراك الحسي ليس نوعا من المعرفة بل فعالية حسية عملية يقوم بها العضو لتكييف نفسه الى مؤثرات خارجية . ومن نتاج طريقة التكيف التفاعلية تتولد المعرفة . ويعالج القضية الثانية حينما يحسب الشعور الطبقي ناقلا للقوى التاريخية . فالفعالية الطبقية هي الحالة التي يحدث بها المقدور الاجتماعي . ولا تصبح هذه الفعالية الاجتماعية مفيدة الا اذا اتخذت الحاجات الاجتماعية اساسا لتكوين المثل العليا وعملت لها . وفي هذه الفعالية تتولى الطبقة المتصرة القيادة ، وتعمل على استثمار النصر . فالعقائد المادية التي تحسب الانسان نتج الظروف والتربية تنسى ان الناس يستطيعون ان يغيروا هذه الظروف ، وان المربي ينبغي ان يُربي هو نفسه . هذا ما ذكرّ به ماركس فيرباخ .

٣ - مبدأ المادية البايولوجية :

كان ماركس من تلاميذ جارلز داروين، ومن مناهضي « الديمقراطيين الاجتماعيين » الذين حاولوا ان يدخلوا فكرتي الكفاح من اجل البقاء وبقاء الانسب في علم الاجتماع . وبالرغم من هذه المعارضة التي ابداها الا انه نظر الى آثار داروين العلمية من حيث انها تشيد الاسس الطبيعية للمادية الجدلية . وهذا معناه ان جميع الخصائص الانسانية ينبغي ان تتصورها مستمرة مع الاتجاهات البايولوجية الموجودة حاليا في الحيوانات الدنيا ، وان نحسب التفكير حدثا طبيعيا ، وان جميع انواع الثنائيات صورا ممسوخة لنتائج العملية التطورية ، وان جميع الحياة الثقافية ، مع كونها متميزة عن الاتجاهات البايولوجية العضوية ، لابد لها من وجود هذه الاتجاهات كشرط اساسي لبقائها . وقد مال ماركس وانجلز الى الاعتقاد بانه لا يوجد سلوك بايولوجي محض - اي ان بعض التبدلات التي تجري في الانسان ، كالتي يتعرض اليها قوامه ، يمكن ان تكيف عن طريق الثقافة . واعتقد ماركس بما اعتقد به هيكل من قبل وهو انه حتى الادراك الحسي ظاهرة ثقافية بقدر ما هو ظاهرة نفسية .

٤ - مبدأ المادية التاريخية :

وهذا المبدأ ينشأ من تطبيق المادية الجدلية في ميدان الثقافة ، اي في الناحية الخاصة بفعاليات الناس المشتركة من حيث هم اعضاء في مجتمع من المجتمعات . ويشرح انجلز هذا المبدأ فيقول : « ان جميع اسباب التبدلات الاجتماعية والثورات السياسية ينبغي الا يفتش عنها في افكار الناس حسب ، ولا في نفاد رأي الانسان للتوصل الى

الحقيقة والعدالة الخالدة وانما في التبدلات التي تطرأ على حالات الانتاج وتبادله ، ولا ان يبحث عنها في الفلسفة بل في الاقتصاديات الخاصة بكل عهد من العهود » .

٥ - مبدأ التمرين :

ولعل اهم مبدأ من مباديء الفلسفة المادية الجدلية هو الجمع بين الناحيتين النظرية والعملية . وتشتق من هذا المبدأ عمليا جميع مباديء كارل ماركس الاخرى . فقد وضع ماركس نظريته لتكون طريقة عامة لحل جميع مشاكل الانسان والتاريخ والطبيعة . وعنده ان كل نظرية لا تكتسب معنى الا اذا اعطت شيئا ملموسا يساعد على حل المشكلة . فالافكار ينبغي ان تختبر بالتطبيق ، وان تواجه اوضاعا جديدة . وكل فكرة هذا شأنها تحدث تبدلا في الاوضاع الملمة بها اذا استجابت الى الحاجات التي ظهرت فيها المشكلة . ان الحقيقة لا تختبر الا بالفعالية ، وان انكار هذه الحقيقة معناه التخلي عن فكرة المادية الجدلية نفسها .

هذه بعض المباديء الاساسية التي تستند اليها المادية الجدلية . وهناك مباديء اخرى منها : ان المادية الجدلية تؤمن بالمذهب الواقعي ، وتتمسك بالتقاليد الواقعية العظيمة للافكار الغربية التي تذهب الى ان تأثير الارادة والمعرفة والفاعلية يتوقف على بعض مقومات الظرف الذي تؤدي فيه هذه عملها ، ومنها ان البحث العلمي يسير وفق قانون خاص ، وانه ليس للتقدم العلمي من حدود ، وانه وان ظلت بعض الحقائق العلمية مجهولة ولكن لا تتعذر معرفة اي شيء من الاشياء ، ومنها الاعتقاد بالتطور الطالع emergent evolution او بمبدأ الصفات الطالعة ،

وفحواه ان الاختلاف في الكمية يؤدي نهائيا الى اختلاف في النوعية ، وان العلاقات بين النوعيات لا يمكن ان تستنتج من العلاقات الكمية التي تتصف بها المراحل الابتدائية الاولى ، وانه كلما مر الزمن وتعددت المراحل ظهرت مجموعات جديدة من الكميات وانماط من السلوك . وهكذا فان قوانين الفيزياء تتعلق بجميع الاشياء الحية او غير الحية ، ولكن قوانين علم الحياة ، مع انها تعتمد على قوانين الفيزياء ، تختلف عنها ولا يمكن ان تستنتج منها . وشبيه بهذا فان قوانين علم الحياة تتصل بجميع الكائنات الحية او غير الانسانية ، ولكن قوانين علم النفس البشري ، وان كانت تعتمد على قوانين علم الحياة ، غير انه لا يمكن ان تستخلص منها . وفي هذا تساير المادية الجدلية آراء الذين يعتقدون بفلسفة « التطور الطالع » والمذهب الطبيعي الطالع في انكلترة والولايات المتحدة .

ولقد ادى التأكيد على الناحية الكيفية الفريدة والخاصة بكل وضع من الاوضاع الى انقسام في صفوف الماديين الجدلين في روسية . فالذين يحاولون ان يفسروا الاوضاع في حدود قوانين الفيزياء او السلوك الاجتماعي العامة يتهمون بانهم ميكانيكيين موحدين ، وانهم يتغاضون عما قاله هيكل بان المباديء تتحور في كل تطبيق معين ، وانهم يتجاهلون قول انجيلز بان المادة اذا ما استقلت عن المعبرات الخاصة التي تحيطها دائما انقلبت الى بناء عقلي محض ، او شيء مجرد .

ومن المباديء الاخرى التي دعا اليها ماركس هو ان التبدل يجري في كل مكان ، وان الزمن هو مقياس هذا التبدل ، وان الاشياء التي تستخلص منها الاحكام وكذلك الآراء والاحكام نفسها تكتسب بصورة

مستمرة صفات وخصائص جديدة ، وان الافكار و « المقولات » ليست بأخلد من العلاقات التي تعبر عنها ، اذ انها محصولات تاريخية وعابرة .

وتوجد بالاضافة الى ما تقدم، بعض الآراء الاساسية في الفلسفة الماركسية التي يجدر شرحها . وقد المحنا الى بعضها واغفلنا البعض الآخر . ونظرا لاهميتها فقد نسبنا شرحها وهي : المادية التاريخية ، وصراع الطبقات ، وتلاشي الدولة ، وفترة الانتقال الثورية .

المادية التاريخية

تستند الفلسفة الماركسية (١) الى النظرة المادية للتاريخ ، او تستند ، كما يقولون ، الى « المادية التاريخية » . وفحواها « ان حالات الانتاج تقرر في الاعم الاغلب طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية » . والمادية التاريخية ، كما يدل عليها اسمها ، تختلف عن التفسيرات المادية الاخرى للتاريخ ، وترفض ان تعزو اسباب قيام وسقوط النظم الاجتماعية الى تأثير عوامل ليست اجتماعية . ومع انها تعترف بان الطبوغرافية (طبيعة الارض) والمناخ والرس والتربة عوامل اساسية مكيفة للفعاليات الاجتماعية والتاريخية الا انها تنكر ان تقرر هذه العوامل الطبيعة العامة للثقافة ، اذ انها ثابتة نسبيا ، بينما الحياة الاجتماعية اكثر تبدلا .

---

(١) ظهرت المباديء الماركسية الاولى في كتاب لدفج فيرباخ الذي يعد مؤسس المادية الحديثة . فقد قال : « المرء بقوته »

Der Mensch ist wasser issit

وقد وضع ماركس اسس المادية التاريخية لاول مرة سنة ١٨٤٥ حينما قال : « حينما ادرك علماء الاقتصاد جيدا ان الناس تصنع القماش والكتان والحرير في علاقات انتاجية مقررة فاتهم ان يدركوا ان هذه العلاقات الاجتماعية هي من صنع الانسان نفسه شأنها في ذلك شأن القماش والكتان والحرير . وتتصل العلاقات الاجتماعية اتصالا وثيقا بقوى الانتاج ، وعند ظهور قوى انتاجية جديدة يلجأ الناس الى تبديل طرق الانتاج التي هي وسيلة كسبهم وعيشهم . وبتبديلها تتبدل جميع علاقاتهم الاجتماعية . فالطاحونة تعطينا مجتمعا يسوده رجل اقطاعي ، والماكنة البخارية تعطينا مجتمعا يتحكم فيه رجل رأسمالي صناعي . فالناس الذين ينظمون العلاقات الاجتماعية المتصلة بقابلياتهم الانتاجية المادية هم انفسهم ينتجون الآراء والمبادىء والمقولات المتصلة بعلاقاتهم الاجتماعية . (١)

وقد اوضح ماركس نظريته في المادية التاريخية سنة ١٨٥٠ حينما قال : يدخل الناس في علاقات معينة ضرورية وخارجة عن ارادتهم اذا ما قاموا بانتاج اجتماعي . وتتناسب هذه العلاقات مع تطور قواهم المادية في الانتاج نفسه ، وتؤلف كلها كيان المجتمع الاقتصادي .... ثم قال : ان حالات الانتاج في الحياة المادية تقرر الطابع العام لعمليات الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية ، وان مشاعر الناس لا تقرر وجودهم المادي ، والعكس هو الصواب . ان وجودهم الاجتماعي هو الذي يقرر مشاعرهم . وفي مرحلة معينة من مراحل تطور قوى الانتاج

---

(1) Shore, Maurice J., Soviet Education, P., 13

المادية في المجتمع تصطدم هذه القوى بعلاقات الانتاج الموجودة ، او بتعبير قانوني تصطدم بعلاقات الملكية التي كانت تتصل بها من قبل . وحينما يستمر النزاع مدة من الزمن بصوره المختلفة يمهد السبيل الى اندلاع ثورة اجتماعية .

وفي سنة ١٨٨٨ فسر انجلز في المقدمة التي كتبها « للميثاق » مفترضات ماركس في المادية التاريخية ، فقال : تتلخص هذه الفرضية في ان طريقة الانتاج وتبادل المنتجات الاقتصادية السائدة والتنظيمات الاجتماعية الناشئة عنها تؤلف ، دون شك ، وفي كل عصر اساس تاريخ ذلك العصر السياسي والثقافي .

ويلخص الاستاذ سدني هوك المباديء التي تنطوي عليها المادية التاريخية في النقاط الآتية : (١)

١ - كل ثقافة قائمة تعد من ناحيتها التكوينية « كلا » متداخلا . وعلى هذا فكل مظهر من مظاهر هذا « الكل » ، كقوانينها واساليبها التربوية وعقيدتها الدينية وفنونها الى غير ذلك ، لا يمكن ان يفهم فهما حقيقيا منفصلا عن الاجزاء الاخرى التي يتألف منها ذلك « الكل » . فينبغي ان يفهم ضمن محتويات نظام القوى الاجتماعية التي يؤدي ذلك الكل عمله فيها . ويترتب على هذا ان كل تحليل لقانون من القوانين او لتاريخ ذلك القانون لا يتم بدراسة النظريات القانونية وعلاقاتها

---

(١) راجع موسوعة العلوم الاجتماعية تحت كلمة « مادية » للتوسع في الموضوع .

الترابطية المعروفة فقط ، بل يحتاج الى اكثر من ذلك . ان ادراك الطبيعة العضوية للثقافة وتركيبها العضوي هو الذي هيأ لكارل ماركس الفرصة لفهم مشكلته الفلسفية الحقيقية ، هذه المشكلة التي تنحصر في الاجابة عن هذا السؤال : ما العامل الذي يقرر الشكل العام الذي تتخذه الثقافة التاريخية ؟ لقد توصل ماركس من دراسته لفلسفة هيكل ان العلاقات القانونية ، وكذلك شكل الدولة ، لا يمكن ان تفهم او تفسر بواسطة تقدم الفكر البشري العام وحده .

٢ - وليست الثقافة كلا متداخلا حسب ، وانما هو كل نام ايضا . ان « العامل المتغير المستقل » independent variable الذي يسبب نمو « الكل » الاجتماعي هو نقطة الانطلاق لا في معرفة اسباب التبدل الاجتماعي حسب ، وانما في معرفة التبدل الذي يطرأ على النمط الثقافي السائد في اي وقت من الاوقات . وتعد حالات الانتاج المادية التاريخية هي العامل المتغير المستقل ، وهذه هي التي ترسم الحدود الفاصلة بين المادية التاريخية والمثالية الاجتماعية غير الميكانيكية منذ ايام هيكل حتى يومنا هذا . لقد كان هيكل يعتقد ان التاريخ السياسي ، وشكل الحكومات ، والفن ، والدين ، والفلسفة تلتقي كلها في جذور مشتركة هي « روح العصر » ، بينما ذهب ماركس الى ان جذور هذه الظواهر قاطبة تتصل في ظروف الحياة المادية .

ولا تنكر حالات الانتاج ، وفق نظرية العامل المتغير المستقل ، ان الانتاجات الثقافية للنمو الاقتصادي لا تؤثر في النمو نفسه . وقد

كتب انجيلز سنة ١٨٤٩ : « ان التطور السياسي والقانوني والفلسفي والادبي والفني يستند الى الاقتصاد . غير ان هذه التطورات جميعا تؤثر الواحدة في الاخرى وفي الاساس base الاقتصادي . فليس الوضع الاقتصادي هو العلة الوحيدة الفعالة وما عداها معلول غير فعال محض . بل هو تبادل ضمن نطاق الضرورة الاقتصادية التي تفصح عن نفسها دائما في مرحلتها النهائية » . وشبيه بهذا فان المادية التاريخية لا تنكر ما للتقاليد الاجتماعية من اهمية في تحوير سرعة التبدل في النواحي الثقافية غير المادية . فقد كتب ماركس يقول : « ان تقاليد الاجيال السالفة تخيم جمعاء على افكار الاحياء كالكابوس » . فالعلاقات العائلية والدين والفن والفلسفة ، مع كونها تعكس علينا التوازن الاجتماعي الجديد المتأتي من التبدلات في النظام الاقتصادي ، الا انها متخلفة في الزمان والتكوين العام . وقد يبدو ان ظواهر التخلف الثقافي Cultural lag ، من ناحية الفائدة المتأتية من النظرة البعيدة ، مهمة ، ولكن من ناحية العمل السياسي القصير المدى قد تبدو اهم .

٣ - ويقصد الماديون التاريخيون بالكيان الاقتصادي للمجتمع « حاصل جمع علاقات الانتاج » فهذه العلاقات (تضم القوى المادية للانتاج بموادها الخام واختراعاتها ومهاراتها وفنونها الصناعية ومعارفها) تؤلف حقيقة « الاساس » الذي يقوم عليه التركيب الثقافي كله . وعليه فينبغي ان نفرق بين المادية التاريخية والتفسير التكنوقراطي للتاريخ ، او القدرية الاقتصادية . ولم يقصد ماركس « بعلاقات الانتاج » الوسائل الميكانيكية التي تستخدم في صنع الآلات او تنظيم المعمل تنظيما فنيا ،

بل العلاقات الاجتماعية التي يرتبط بهـــا الناس ، او بكلمة احسن ، العلاقات التي يواجهونها كلما ساهموا في حياة المجتمع الاقتصادية . وليست علاقات الملكية التي تؤلف بدورها مجموعة يكون العنصر الفني الصناعي جزءا واحدا من اجزائها الا تجسيد لهـــذه العلاقات . ويقول ماركس ان الآلة ليست بمقولة اقتصادية اكثر من الثور الذي يسحب المحراث ، فهي قوة انتاجية . والحق انه لمن الممكن ان نجد مجتمعا يرتبط اعضاؤه بعلاقات انتاجية مختلفة ، وفي الوقت نفسه يحتوي على بعض القوى الانتاجية المتشـــابهة : فقد كانت اساليب حراثة الارض مثلا في الاقتصاد الاقطاعي هي نفسها في الاقتصاد الرقيقي ، وان استخدام الآلة في الاتحاد السوفياتي يماشي استخدامها في الولايات الامريكية المتحدة . واهم من هذا هو ما يؤكده الماديون التاريخيون من ان تطور الاساليب الفنية ليست مستقلة عن حاجـــات المجتمع الاخرى ، وانما توجهها مجموعة انتاجية اجتماعية اكبر ، وان هـذه الاساليب جزء من المجموعة الكبرى . ففي نواحي المخترعات العلمية مثلا لا تقرر « روحية المخترع » مدى الاستفادة من الاختراع ولا بما يوحيه اليه اختراعـــه هذا ، بل بالاثر المباشـــر او غير المباشر الذي قد يتركه في تخفيض تكاليف الانتاج او زيادتها .

٤ ـ تظهر حالات الانتاج الاقتصادي في بعض العلاقات الاجتماعية التي لا صلة لها بكل فرد من الافراد . فالانسان يولد في مجتمع قد اتخذت علاقات الملكية فيه شكلها المقرر . وهذه العلاقات تميز الطبقات الاجتماعية بعضها عن بعض ، فالسيد الاقطاعي ، والقن ، والعـــامل ، وصاحب العمل يرمز كل واحد منهم الى نوع من الملكية خاص ، والى

طبقة اجتماعية خاصة تتضارب مصالحها وتتناقض اثناء مساهمتها في عمليات الانتاج. واذا ما اختفى هذا الصراع الطبقي ، بجهود بعض افراد المجتمع ، فان حقيقة النزاع بين المصالح الطبقية لا تنعدم ابدا .

ان التأكيد على العلاقات الاجتماعية والمصالح الطبقية هو الحد الفاصل بين المادية التاريخية والعقائد الاخرى التي تحاول ان تفسر العمليات الاجتماعية في حدود مصالح الافراد الشخصية الذاتية . ويرى ماركس ان البواعث التي تحفز الانسان على العمل متنوعة جدا ، وان المادية التاريخية لا تعني بمصالح الافراد الذاتية . وقد كانت مشكلته تنحصر في معرفة الاسباب التي تجعل بعض المثل العليا الاجتماعية تسود في عهد من العهود بدلا من عهود اخرى ، وفي معرفة العوامل التي تقرر تعاقب هذه المثل التي من اجلها يحيا الانسان ، ومن اجلها يموت . من هذا يظهر ان الاوضاع الاقتصادية شيء والمصالح الاقتصادية شيء آخر .

٥ - ان انقسام المجتمع الى طبقات متفاوتة يؤدي الى ظهور عقائد سياسية وخلقية ودينية وفلسفية مختلفة ، وان هذه العقائد تعبر عن العلاقات الطبقية القائمة ، والانقسام الطبقي القائم . ويحاول هذا الانقسام اما الى زيادة في سلطان الطبقة المسيطرة واما الى تقويضها . وهذا الكفاح من اجل البقاء يقع في ميدان الآراء والافكار . وحيث ان المسيطرين على وسائل الانتاج يسيطرون كذلك على وسائل النشر بصورة مباشرة او غير مباشرة فان العقائد السائدة دعامة النظام القائم . او كما يقول ماركس : « الافكار القائمة في كل عصر هي افكار الطبقة الحاكمة » .

وترى المادية التاريخية ان « مفتاح هذه المسائل كلها يظهر في انقسام المجتمع الى طبقات وفي الصراع الطبقي الذي يؤدي اليه هذا الانقسام بحكم الضرورة فيقوم القوة الفعالة التي تأخذ بيد المجتمع في مضمار التقدم . وبهـــذا الاعتبار ، يكون الرجحان في كل مرحلة للمباديء والآراء والمنظمات والنظم التي تعبر عن مصلحة الطبقة المتحكمة بشئون المجتمع بنسبة ما تيسر لهذه الطبقة من اسباب القوة والبقاء . ففي كل مرحلة من مراحل التاريخ تسلطت على شئون المجتمـــع الطبقة التي سيطرت على وسائل الانتاج : في النظام القديم طبقة الاسياد الذين ملكوا العبيد باعتبارهم وسائل الانتاج ، وفي الاقطاع طبقة النبلاء الذين ملكوا الارض وسخروا القن : وفي الرأسمالية طبقة الرأسماليين الذين يسيطرون على مشاريع الانتاج ويستخدمون العمال المأجورين . وفي كل هذه المراحل تدار شئون المجتمع ويعين مدلول المباديء الاجتماعية والقيم الروحية والاخلاقية وتوجه الافكار والعلوم وتثبت الوظائف والمنظمات وتنظم العلاقات الاجتماعية بحسب مقتضيات مصلحة الطبقة المسيطرة ، فتتحكم العادات والتقاليد وتستبدل ، وتسود روح الحرب وتوجه القوى الاجتماعية الى التوسع او الاعمار ، ويتسع مجال الحرية الفردية او يضيق ، وينشر التعليم او تعم الامية ، ويعنى بشئون الصحة او تهمل ، كل ذلك او غيره من شئون المجتمع يتوقف مصيره على ما تتطلبه مصلحة الطبقة المسيطرة على شئون الحياة العامة التي لا يعنيها من هذه الامور كلها غير رعاية مصالحها الخاصة وحمايتها . وبحسب مصلحة هذه الطبقة وقوتها وموقفها من تطور وسائل الانتاج

يصير المجتمع الى الركود او الى الرجعة او الى اجتياز المرحلة التاريخية الى مرحلة جديدة ، فيصير المجتمع الى الركود اذا ما اصبح اطراد تقدم وسائل الانتاج مناقضا لمصلحة الطبقة ، ويصير الى التقهقر عندما تتمكن هذه الطبقة من سحق قوى التحرر ولو الى حين بالارهاب المكشوف ، ويصير الى التحول عندما تغلب قوى الثورة على قوة النظام القائم » . (١)

٦ - وتتبدل قوى الانتاج المادية في كل نظام اجتماعي تبدلا مستمرا ، ويحدث هذا التبدل احيانا ، وكما في المجتمعات القديمة ، من جراء وقوع ظاهرة طبيعية كجفاف الانهر او انعدام خصوبة التربة . اما في النظام الرأسمالي فانه يتم بتطور وسائل الانتاج . وتتصادم العلاقات المتبدلة في مرحلة من مراحل تطورها بعلاقات الملكية القائمة ، وعندئذ يتعذر على العمليات الانتاجية في مقاييس طرق توزيع الدخل المعروفة ان تؤدي وظيفتها تأدية تامة ، ويذهب الماديون التاريخيون الى ان علاقات الملكية قيد يحول دون تقدم المجتمع تقدما مطردا ، وان الطبقة التي تحاول ان تربح من جراء تعديل هذه العلاقات تكتسب طابعا ثوريا ، وتفرض نفسها من حيث هي قوة سياسية ، وتتخذ لها عقيدة ثورية تستعين بها من اجل اغتصاب الحكم . ولعل من اهم وظائف المادية التاريخية هي ان تنتقي العقائد الاجتماعية والثقافية وتبحث عن

---

(١) عبدالفتاح ابراهيم ، دراسات في الاجتماع ، صفحة ٢٦٦ - ٢٦٧ ، مطبعة الرابطة ، بغداد ، سنة ١٩٥٠

جذورها الاجتماعية ومفترضاتها الاساسية وعن قيمها وولاءاتها المقررة، وعن الهدف الاجتماعي الذي تتجه اليه عمليا .

٧ - ان تاريخ الانسان كله منذ اختفاء معالم الشيوعية الابتدائية حتى يومنا هذا نستطيع ان نحسبه تاريخ صراع الطبقات . وكل صراع طبقي كفاح سياسي ، اذ الدولة اداة من ادوات القمع الطبقي ، وليس بمقدورها ان تبقى محايدة في اي صراع كان .

٨ - ويمثل الكفاح بين الرأسمالية والبروليتارية آخر صورة تاريخية من صور الصراع الطبقي . فلم يعد الصراع في هذا الامر يتعلق في اي طبقة منهما ستتمتع بملكية وسائل الانتاج ، بل في بقاء الملكية الفردية نفسها . ان الغاء الملكية الفردية في وسائل الانتاج معناه الغاء جميع الطبقات ، ولن يتحقق هذا الالغاء الا بانتصار طبقة ديكتاتورية البروليتاريات التي ستؤل اليها السلطة السياسية في « فترة الانتقال » ، ومن ثم تأخذ الدولة بالتلاشي شيئا فشيئا . وعندئذ تنعدم طبيعتها القمعية ، وتصبح وظيفتها ادارية ، وتكون قسما لا يتجزأ من العمليات الانتاجية .

• • •

ومجمل القول ان المادية التاريخية تذهب الى ان علاقات الانتاج تنتج تلك العلاقات الاجتماعية التي نسميها عادة « بالمجتمع » - هذا المجتمع الذي يمر في درجات معينة من التطور التاريخي . فمن مجتمع ابتدائي ، الى مجتمع اقطاعي ، والى مجتمع بورجوازي .

ان حالات الانتاج ، حسب ما تذهب اليه هذه النظرية ، لا تقررها

العلاقات الاجتماعية حسب ، وانما تقررها ايضا جميع انواع التنظيمات الاجتماعية ، وان التبدلات الاجتماعية كلهـــا لا يتوقف مصيرها على المنتوج بل على كيفية انتاجه ، وطريقة تبادله ، وان تحريهـا لا يكون في النظريات الفلسفية بل في اقتصاديات كل عصر من العصور . ولما كانت التربية تعبيرا عن التنظيمات الاجتماعية فلابد لها من الاتصال بحالات الانتاج نفسها ، ولابد لنا من دراسة قصة التربية في كل مرحلة تاريخية وذلك في نطاق التبدلات المادية والعلاقات الاجتماعية المتبدلة الخاصة بتلك المرحلة .

صراع الطبقات :

احدثت المـــادية التاريخية انقلابا خطيرا في دراسة موضوع التطور الاجتماعي « ليس بخصوص عوامله ... وانما في فحوى التطور وفي وجوه تحققه كذلك ، بنظريتهـــا التاريخية القائمة على اساس الطبقات الاجتماعية والصراع الطبقي والثورة الاجتماعية ، واصبحت هذه النظرية الآن بالغة الخطورة بعد ان قبلتها وطبقتها مجتمعات كبرى في العالم الحديث وتأثرت بها - بدرجات متفاوتة - جميـــع نواحي التفكير الاجتماعي والسياسي المعاصر ، بحيث اصبح التباين ظاهرا في هذا الخصوص بين النظريات الاجتماعية التي قامت بتطـــور التفكير التقليدي من جهة والنظريات المتأثرة بنظرية المـادية التاريخية من جهة اخرى ..... وبينما يجري التطور في النظريات التقليدية بالتدرج السلمي ، تنظر اليه المادية التاريخية باعتبار انه يقوم بالصراع الطبقي الذي يبلغ درجة الثورة التي هي في المادية التاريخية عنصر اساسي

من عناصر التطور » . (١)

لقد ذكر ماركس في مقدمة « الميثاق » ان تاريخ جميع المجتمعات الحاضرة تاريخ صراع الطبقات ، وان هذا الصراع طابع المجتمعات القديمة والحديثة معا ، وان المجتمع آخذ بالانقسام يوما بعد يوم الى معسكرين متعاديين كبيرين ، او الى طبقتين متناحرتين تقفان وجها لوجه : الطبقة البورجوازية ، والطبقة البروليتارية .

فما « الطبقة » ، وما طبيعة الصـــراع الطبقي » ؟ (٢) يعرف الاستاذ موريس كنزبيرغ Ginsberg « الطبقات » في المجتمعات الحديثة بانها طوائف من الافراد تملك ، بحكم الاصل المشترك والتشابه المهني والثروة والتربية ، خصائص حياتية عامة ، ومجموعة من الافكار والمشاعر والمواقف وصور من السلوك واحدة ـ طوائف يحسب افرادها انفسهم متساوين مع غيرهم في جميع هذه الخصائص او في بعضها ، وانهم ، سواء اذكروا ذلك ام لم يذكروا ، ينتمون الى طائفة واحدة . والحقيقة انه يتعـــذر في كثير من الاحيان ان نعرف « الطبقات » تعريفا يتناول وظيفتها الاجتماعية ، كما يتعذر ان توضح

---

(١) عبدالفتاح ابراهيم ، دراسات في الاجتماع ، صفحة ٢٥٢ ـ ٢٥٣ ، مطبعة الرابطة بغداد ، سنة ١٩٥٠

(٢) راجع موضوع الشعور الطبقي Class Consciousness والصراع الطبقي Class Struggle في موسوعة العلوم الاجتماعية للتوسع في هذين الموضوعين .

المصالح والاغراض التي يشترك فيها اعضاء طبقة معينة توضيحا دقيقا . فالشعور الطبقي تغمره تيارات نفسية كثيرة ، وتلازمه عواطف ثلاثة هي : عاطفة « الشعور بالنوع » التي يتحسس بها كل فرد من افراد الهرم الاجتماعي نحو طبقته ، وعاطفة « الشعور بالنقص » التي تتحسس بها الطبقة العليا التي تحتل قمة الهرم الاجتماعي ، وعاطفة « الشعور بالتفوق » التي تتحسس بها الطبقة العليا تجاه الطبقة الدنيا التي تحتل قاعدة الهرم الاجتماعي .

و « الصراع الطبقي » في العقائد الاشتراكية اصطلاح يدل ، كما يقول الاستاذ لوروين Lorwin في موسوعة العلوم الاجتماعية ، على شكل من اشكال الكفاح الاجتماعي ، وعلى النظرية نفسها ، وعلى طريقة عملها. ومع ان هذه النظرية قديمة الا ان الفضل في بعثها ووضعها في قوالب علمية معينة يعود الى ماركس اولا والى انجلز ثانيا . فقد صيغت لاول مرة في « الميثاق الشيوعي » سنة ١٨٤٧ ، وذهبت الى ان الناس اثناء انصرافهم لتحصيل ارزاقهم واستخدام معداتهم الفنية والصناعية يتكتلون في طبقات معينة ويتباعدون بعضهم عن بعض ويؤدون وظائف مختلفة ، فتحتل كل طبقة في التنظيم الاجتماعي مركزا يختلف عن المركز الذي تحتله الطبقة الاخرى ، فتتناقض مصالحها ، ويحتدم الصراع بينها . وقد ظل الصراع والانقسام الاجتماعي باقيا بالرغم من التبدلات التي طرأت على التنظيم الصناعي للمجتمع ، وعليه فان تاريخ البشر ليس الا صراع متواصل بين الطبقات . ولم يقض النظام الرأسمالي الحديث عليه ، بل خلق طبقات جديدة ، وادى الى صراع جديد ، يزداد حينا ويضعف احيانا ، وبتطور هذا النظام انقسم العالم

شيئا فشيئا الى معسكرين متعاديين كبيرين : معسكر بورجوازي يسعى الى تحويل « القيمة الفائضة » الى فوائد ، ومعسكر بروليتاري يسعى الى تحشيد قواه لمقاومة هذا الاستغلال . وفي عنفوان هذا الصراع يدرك العمال ان قوة البورجوازيين تعتمد على ملكية وسائل الانتاج كل الاعتماد ، وان الاستغلال الاقتصادي لا سبيل الى انهائه الا بتأسيس المجتمع الاشتراكي الذي يستند الى ملكية اجماعية .

وقد تنبأ ماركس بان المعسكر البروليتاري سينتصر حتما في هذا الصراع بالنظر لما تتمخض عنه الرأسمالية من اتجاهات اهمها : سرعة تمركز الصناعة ، واختفاء الطبقة الوسطى ، وتزايد الطبقة العاملة وتفاقم بؤسها وآلامها . وحيث ان الطراع الطبقي هو العامل الحركي في توجيه العملية التاريخية نحو تفتحها النهائي ، وهو تحرير البروليتاريات ، فقد صار لزاما على العمال ان يبذلوا كل ما في وسعهم لزيادة سرعة هذه العملية التاريخية . ولم يكن الصراع الطبقي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر نظرية مجردة ، بل صار مبدأ مقبولا في الحركات الاشتراكية .

وتعرضت نظرية صراع الطبقات في اوائل القرن التاسع عشر الى هجمات وانتقادات . فقد حاول اعداء الاشتراكية ان يظهروا ناحية الانسجام الطبقي في كل مجتمع من المجتمعات ، فاشاروا ، ومنهم العالم الاجتماعي دركهايم Durkheim ، الى اهمية الصراع الدائر بين الطوائف الرسية والقومية . الا ان اهم الانتقادات التي وجهت الى هذه النظرية هي التي صدرت من « الاشتراكيين الاصلاحيين » في المانية ،

والفابائيين في انكلترة ، والسنديكاليين في فرنسة . فقد ذهب بير نشتاين Bernstein مثلا الى ان الاتجاهات التي كشف عنها ماركس لم تكن تلك القوة والاهمية التي عوّل عليها . فقد استطاعت الديمقراطية السياسية وتعميم الفرص الاقتصادية ان تخفف من شدة الصراع الطبقي ، وان تشجب فرضية التبدل الجارف ، واقترحت ان يعيد الاشتراكيون النظر في اساليبهم ، وان يفسحوا في المجال لقيام تعاون اوثق بين الطوائف الاقتصادية والاجتماعية المختلفة . وذهب الفابائيون الى ان التبدل الاجتماعي يتم بتطور النظام الديمقراطي والتربوي ، وان الصراع الطبقي ، من حيث هو مبدأ وطريقة ، لا ضرورة له . اما السنديكاليون فلم يجدوا في هذه النظرية جدة كافية ، وحسبوها بطيئة ، ونسبوا « العمل المباشر » direct action .

وطرأ على نظرية صراع الطبقات هزال جديد من جراء نمو الحركات القومية في بعض الاقطار الاوروبية والآسيوية بعد الحرب العالمية الاولى . وتتمثل هذه النظرية اليوم بدرجات متفاوتة في الاشتراكيين الاصلاحيين ، والاشتراكيين الراديكاليين ، والشيوعيين . وفي هذا يقول الاستاذ لوروين في موسوعة العلوم الاجتماعية : « ويميز الشيوعيون بين الطائفة الاجتماعية social caste التي تقوم على صفات قانونية والطبقة الاجتماعية التي هي مقولة اجتماعية ، وتضم اشخاصا يؤدون وظيفة واحدة في عملية الانتاج ، وتكون علاقاتهم واحدة مع من يشتركون واياهم في العملية نفسها . وكما ان صور الانتاج تؤثر في صور التوزيع فان الطبقة الاجتماعية تعرف كذلك بمصدر دخلها .

وبعبارة اخرى ، تصبح الطبقة الاجتماعية مجموعة من الاشخاص يؤدون في عملية الانتاج وظيفة واحدة ، ولهم ، على هذا الاساس مصدر واحد للدخل » .

وتتضح معرفة اصل الطبقات من قانون تقسيم العمل . ففي كل مجتمع طبقتان رئيستان : طبقة تحتكر وتسيطر على وسائل الانتاج ، وطبقة تنتج . وتوجد ، بالاضافة الى ذلك ، طبقات وسطى تحتل مركزا وسطا بين المسيطرين على وسائل الانتاج والمنتجين بها : طبقات انتقالية نشأت من انحلال اشكال الطوائف الاخرى ، وطبقات مختلطة تحتوي على اشخاص ينتمون الى هذه الطبقة تارة والى تلك الطبقة تارة اخرى ، وطوائف من الافراد لا ينتمون الى طبقة خاصة declasse تتألف من المتسولين والمتطفلين والمتشردين واضرابهم .

وتعد عملية الانتاج في كل مجتمع طبقي عملية استغلال اقتصادي . فالافراد الذين يستخدمون قواهم الجسمية ينالون اقل مما ينتجون وينظرون الى مستغليهم نظرة عداء وازدراء . وينشأ من هذا العداء صراع يستهدف تنظيم الروابط وتوزيع الدخل العام توزيعا عادلا . وحينما يقوم هذا الصراع على عمل شعوري تتبلور المصالح الطبقية ويشتد الكفاح الطبقي ، وتحاول الاقلية المستغلة ان تحتفظ بمصالحها وتوسع مجال استغلالها ، بينما تسعى الاكثرية المستغلة الى تحرير نفسها بصورة متواصلة ، وتتحول المصالح الطبقية الى نظام يتناول جميع نواحي الحياة ، وتتداخل مع المصالح الدينية والسياسية . وحينما تتوحد هذه التعابير المتنوعة لصراع الطبقات تظهر مثل عليا ونفسيات مختلفة

للطبقات . وليس وجود المصالح الطبقية بدليل على ان هذه المصالح تدركها الطبقة نفسها دائما . فقد يكون الوعي الطبقي غير متكامل بعد ، والتناقض الموجود بين الطبقات الاجتماعية غير واضح من جراء مرور العمليات الاقتصادية في مراحل من التطور عدة .« يضاف الى ذلك ان الطبقات الحاكمة تحاول ان تؤثر في افكار الجماهير ونفسياتها لتحطم وعيها وتصرفها عن مصالحها الطبقية .... وحيث ان قوة الطبقة الحاكمة تتصرف دائما وابدا الى تنظيم جهاز الدولة فينبغي على الطبقة المضطهدة ان تستهدف بصورة مباشرة تحطيم هذا الجهاز . وهكذا فان كل صراع طبقي هو صراع سياسي يرمي الى محو النظام الاجتماعي القائم ، وتأسيس نظام جديد . ولكي تبرهن الطبقة على انها تستطيع القيام بالتنظيم الاجتماعي فلابد وان تكون لها بعض الخصائص العامة : فمثلا ينبغي ان تكون مستغلة اقتصاديا ، ومضطهدة سياسيا ، وان تكون طبقة منتجة ، وا ن تكون ظروفها الاقتصادية عسيرة جدا ، وان تؤلف جمهورا كبيرا او اكثرية السكان » .

وتذهب نظرية « صراع الطبقات » الى ان جميع هذه الخصائص متوفرة في طبقة العمال الصناعيين في الوقت الحاضر ، وان البروليتاريات الصناعية هي الطبقة الوحيدة التي تستطيع ان تنظم ثورة اجتماعية وتؤسس مجتمعا جديدا وفق مثل اشتراكية عليا ، وان على العمال الصناعيين ان يتعاونوا في اشعال نيران هذه الثورة مع الفلاحين الفقراء الذين يؤلفون اكثرية السكان في جميع اقطار العالم تقريبا . وفي كل طبقة اجتماعية توجد دائما طوائف وفئات من الناس تختلف في قابلياتها

ومراكزها . وحيث ان فعاليات « الطبقة » بحاجة ماسة الى من يوجهها وينظمها فقد صار ضروريا ان تتحمل احدى هذه الطوائف مسئولية القيادة والتنظيم ، فتجمع نفسها حول حزب سياسي يمثل عقائدها وطرائقها في العمل .

وتذهب النظرية ايضا الى ان الصراع الطبقي قد اتخذ في الوقت الحاضر صورة التحالف بين العمال والفلاحين للوقوف دون سلطان المال في الداخل ، اما في الخارج فقد اتخذ صبغة عالمية باتساع نطاق رؤس الاموال والصناعة وخروجها من الميدان الداخلي الى الميدان العالمي ، وان هذا الصراع العالمي سيؤدي الى ثورة عالمية عنيفة توجهها قيادة عمالية ، وتستمرها ديكتاتورية طبقية في اول مرحلة من مراحلها لتأسيس كيان اشتراكي عالمي . وللوصول الى هذه النتيجة يدعو الشيوعيون الى الاسراع في عملية الثورة ، وتأجيج نيران حرب الطبقات والتشهير بالمنحرفين الذين يدعون الى « تعاون طبقي » .

ان التطورات التي مرت بها نظرية صراع الطبقات والتحويرات التي طرأت عليها تدل ولاشك على ما تنطوي عليه من ضعف ونقص . فمثلا ليس من السهل ان تعرف « الطبقة » تعريفا جامعا مانعا ، ولا ان ترسم حدود فاصلة بين طبقة واخرى . ويعتقد لفيف من العلماء ان اتخاذ عوامل الانتاج ، او قانون انقسام العمل ، او مصدر الدخل اساسا لتقسيم المجتمع الى طبقات متميزة ليس بالامر اليسير . وكل ما نستطيع ان ندل عليه ، كما يقول الاستاذ لوروين ، هو وجود اتجاهات نحو تكتلات اقتصادية واجتماعية ، وان هذه التكتلات تتفاوت بالنسبة الى

الظروف الاقتصادية والاجتماعية العامة لكل مجتمع من المجتمعات ، وان صراع الطبقات فرضية اولية لا حقيقة ثابتة . ويقول ان الصراع الذي يجري في المجتمعات الحديثة بين الطوائف الاقتصادية والاجتماعية المختلفة جزئي ومتقطع ، وانه يدور حول قضايا كبرى آنية ، وان اهميتها قد تكون وقتية . ثم ان القومية ، من حيث هي ظاهرة اقتصادية واجتماعية ، تميل وتحول دون تكوين طبقات اجتماعية . فكل امة من الامم تحسب نفسها من الناحية الاقتصادية وحدة ينتظرها مستقبل واحد وتجمعها مصالح واحدة ، وتقف صفا واحدا في وجه امم العالم . وتحاول من الناحية الثقافية ان تعزز كيانها الاقتصادي بالافكار والمثل القومية العليا التي توصلها الى كل طبقة من طبقات المجتمع ....»

ويرى كثير من العلماء ان الامة التي تبتلى بصراع طبقي وهي في اول مرحلة من مراحل تكوينها الثقافي والاقتصادي ستتعرض الى اخطار جسيمة ، والى ازمات اجتماعية شديدة ، ولكن هذه الازمات لا تزيدها الا تماسكا وتضامنا .

وظيفة الدولة :

ويقودنا هذا الموضوع الى بحث وظيفة الدولة في المجتمعات الطبقية . وتتلخص النظرية الماركسية لوظيفة الدولة الرأسمالية في انها تخضع المضطهدين وغير المالكين لسلطانها ، وتحول دون قيام صراع طبقي ، وتستغل جهود العمال ، وترمي الى تخليد عدم المساواة بين افراد المجتمع . وهي حالة ، كما يقول الماركسيون ، كانت موجودة في الماضي البعيد ، وفي عهود الرق ، والاقطاع ، وموجودة حتى في

يومنا هذا ، بل موجودة في كل مرحلة من مراحل التاريخ . وستستمر عملية الاستغلال هـذه حتى تبدو طلائع الثورة الكبرى . فاذا بدت ونجحت ولى عهد الطبقات ، واشرف على العالم فجر جديد ، وعهد من الحرية جديد .

واذا قيل : ما الذي سيقضي على الدولة الطبقية ، وكيف تندلع الثورة ، فان الجواب ينحصر في رأي الماركسيين في « الجبرية الاقتصادية » economic determinism . فالنظام الرأسمالي يهدف الى الربح بالعمل . ولما كان « العمل » قوة اقتصادية ناتجة اكبر من كلفته « فالرأسمالي » الذي يدفع في الاصل هذه الكلفة ينال في الحقيقة « قيمة فائضة » من جراء الزيادة الناتجة عن عمل لم يدفع عنه كلفة ما .

غير ان كلفة الانتاج تتوقف ، كما يقول النقاد على عوامل عدة منها : كلفة رأس المال المستخدم وتكاليف التنظيم واجور العمل والمواد الاولية . ثم ان السعر لا يتقرر بنفقات الانتاج حسب بل يتأثر بالعوامل الاخرى التي تتحكم في الطلب ومنها عامل الفروق في الذوق . فمثلا قد تباع ربطة لم يصرف العامل عليها الا جهدا قليلا بسعر اعلى مما تباع به اداة اخرى انفق عليها من العمل اكثر ما انفق على الربطة . ومن نظريات ماركس ايضا نظرية السبب الاقتصادي economic determinant والاثر الاجتماعي . فعنده ان الاسباب الاقتصادية تنشيء الدولة الاقتصادية والدولة الرأسمالية ، وتنشيء الدولة البروليتارية كما حدث فعلا في روسية . ويقول الماركسيون ان هذه الدولة البروليتارية التي تسيطر عليها طبقة واحدة ليست في الحقيقة « طبقة » كما يبدو لاول وهلة ، وان تطورها التاريخي الناجم من عمليات الانتاج والعلاقات الاجتماعية لا يعد تطورا

طبقيا تماما . وحيث ان الاضطهاد والاستغلال ليس من خصائص هذه الدولة فستتعدم حاجة المجتمع الى الدولة ، او بكلمة اخرى « ستتلاشى الدولة » .

ويقول ماركس ان الدولة من حيث هي اداة لطبقة معينة تحاول ان تعمم ذلك القدر من التعليم الذي يساعدها على بقائها في الحكم ، ويمهد لها سبل الاستغلال . ويصح هذا القول على نظام التعليم في كل دولة من الدول . ويستنتج من هذا ان التربية الحرة الحقيقية لن تتحقق الا في مجتمع « تتلاشى » فيه الدولة .

فعل الارادة في التبدل :

ويرى ماركس ، وكما ذكرنا ذلك في محل آخر ، ان الناس يدخلون في علاقات اجتماعية معينة اثناء قيامهم بالانتاج الاجتماعي ضرورية وخارجة عن ارادتهم . ومعنى هذا ان الدور الذي يقوم به الانسان في تبديل العلاقات الاجتماعية ليست له اهمية في رأي ماركس . « فالسبب الاقتصادي » هو الذي يتحكم في سير التاريخ وتطوره ، اما الانسان فلا ارادة له ولا اختيار . ويذهب ماركس الى « ان الناس يصنعون تاريخهم بانفسهم لا بمشيئتهم ، وانهم لا يختارون ظروفهم ، بل يعملون في الظروف التي يجدون فيها انفسهم ... » .

يستنتج من هذا ان التبدل الاجتماعي لا يحدث بارادة محضة لزعيم من الزعماء ، او لمجتمع من المجتمعات ، بل يحدث اذا ما هيأ المجتمع لذلك الزعيم « السبب الاقتصادي » ، اي حالات الانتاج المادية التي تخلق علاقات اجتماعية معينة . وحيث ان هذه العلاقات الجديدة ستتصادم

مع حالات الانتاج القائمة فان هذا التصادم يؤدي الى ثورة خارجة عن ارادته . وحينما تتهيأ هذه المرحلة تصبح الارادة سببا قريبا Causa Proxima ومهما في عملية التبدل الثوروي ، اما السبب البعيد Causa remota فهو النزاع الناشيء بين حالات الانتاج من جهة وعلاقات الانتاج من جهة اخرى ، واما السبب القريب والحتمي للتبدل فهو الارادة . وتتضح حتمية التبدل وضرورته في مرحلة معينة من مراحل التطور التاريخي ، وحينئذ تلعب الارادة دورها ، وتصبح حرة ، الا انها في الوقت نفسه تبقى خاضعة لظروفها المادية .

وللارادة في النظريات التربوية الماركسية اهمية خاصة . فحينما تفهم الحقائق تصبح الفرصة مواتية جدا للعمل والعزم . وحينئذ لا تكون الارادة السبب القريب المباشر للتبدل الثوروي بل السبب المسرع . وبينما تنكر الماركسية اهمية التربية من حيث هي الدافع الرئيس في سير العملية الاجتماعية فانها في الوقت نفسه تضفي عليها اهمية كبيرة . فاذا كانت التبدلات لا تحدث ، كما يستنتج من النظرية الماركسية ، الا وفق قوى خارجة عن ارادة الانسان ، فعندئذ يتعذر على التربية ان تصمم خططها تصميما مقصودا او عائيا .

نظرية تلاشي الدولة :

ولقد تنبأ كارل ماركس بتلاشي الدولة تلاشيا تاما ، ونظر الى المجتمع الشيوعي من حيث هو خاتمة المطاف في عملية التطور الاجتماعي ، وقد اوضح انجلز نظرية تلاشي الدولة البروليتارية وضوحا حسنا حينما قال : « تستولي الطبقة البروليتارية على القوة

السياسية ، وتحول ملكية وسائل الانتاج الى ملكية الدولة . وستلغي بعملها هذا نفسها من حيث هي طبقة ، وتلغي جميع العداوات الطبقية . وتغلي الدولة من حيث هي دولة .... » .

وقد آمن لينين بهذه النظرية ايضا ، كما آمن بضرورة وجود الدولة في مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية . ويعترف جميع الماركسيين بهذين النظريتين ، ولكنهم يختلفون في تفسيرهما اختلافا كبيرا مما سبب انقسامهم الى فئات متناحرة ، كل فئة تدعي انها تمثل الماركسية تمثيلا صحيحا .

لقد وضعت المدارس الماركسية المختلفة عدة تفسيرات لنظرية « تلاشي الدولة » التي جاء بها ماركس وانجلز . فقد ذهب الاشتراكيون التطوريون الى ان الثورة ، سواء احدثت بعمل مباشر ام بخلافه ، ليست من مستلزمات العقيدة الماركسية . فالتطور التدريجي ، كما يقولون ، يساعد على الانتقال من مرحلة الرأسمالية الى مرحلة الشيوعية . وذهب « اصحاب العمل السياسي » الذي يرون في الديمقراطية وسيلة عظيمة من وسائل الاصلاح العملية الى ان الدولة ستتلاشى نهائيا عند انجاز سلسلة من المشاريع الاشتراكية العظيمة ، وذهب « الفرصيون » الى ان الدولة ستتلاشى بنتيجة وقوع ازمات عنيفة في المجتمع الرأسمالي ، وان على الطبقة البروليتارية ان تستعد للاستفادة من هذه الفرصة عند اقترابها استعدادا كبيرا ، وتنظم صفوفها تنظيما صحيحا . اما « الفوضويون » والسنديكاليون الذين ذاقوا ذرعا بالتناقض الاجتماعي والاستغلال الاقتصادي فقد ذهبوا الى ان الثورة البروليتارية هي التي تسبب « تلاشي الدولة » ، وهي التي ستلغيها بجرة قلم .

ولقد ندد لينين بهذه الآراء المتطرفة وعدها تشويها للعقائد الماركسية ، وخيانة بروليتارية ، وحسبها تقوم على اسس علمية وفلسفية مغلوطة . وكان يرى ان فلسفة ماركس تدور كلها حول « المادية الجدلية » التي استعارها من هيكل ، وطبقها في ميدان الحياة السياسية والاقتصادية ، وان المعادلة الهيكلية اسمى من المعادلة الداروينية في ميادين النظريات الاجتماعية ، وان الدايلكتيكية (او المنطق) ليست مصنعا للآراء ، بل هي اكثر من ذلك ، انها وسيلة من وسائل فهم التطور الاجتماعي في اتم واعمق نواحيه ، وانعكاسا صحيحا للعالم الباطني ، وان طريقة الوصول الى معرفة موضوعية علمية للادراك تتوقف على بحث الاشياء مستقلة عن العقل والاحساس والخبرة كل الاستقلال ، وبعبارة اخرى كان لينين يعتقد انه من الضروري جدا ان نبحث في الحقائق المادية المحسوسة فقط ، وكان يرى ان الافكار ، سواء أكانت فردية ام جمعية ، ليست الا نتج الاشياء التي تؤثر في حواسنا وتعمل فيها ، وان تحليل العمليات الاجتماعية ينبغي ان يعتمد على ادراك تام وحسن للحقائق والقوى المادية المسببة . وهي في اعتقاده حقائق اقتصادية قبل كل شيء .

ان هذه الدايلكتيكية ليست ، كما يقول لينين ، اعظم ما قدمه ماركس الى التفكير الاجتماعي حسب ، وانما هي « المفتاح الرئيس » لتفسير نظرياته الاقتصادية والسياسية تفسيرا صحيحا . ويرى لينين ان التبدل الاجتماعي تسببه القوى المادية ، وانه لا يتم بتطور تدريجي ولا بانتفاضة تلقائية ، وانما يتم اذا ما ساير افراد المجتمع في نموهم

قانون الطبيعة في النمو ايضا ، واذا ما انصرفوا لتحقيق غاياتهم كل الانصراف • ولربما يحصل الافراد في حالات خاصة على نتائج محدودة ، وقد تستطيع حالات اخرى ان تخمد الطريق لاندلاع نيران ثورة عنيفة •

وقد نصح لينين طبقة البروليتاريات بان تدرس ظروفها دراسة شاملة لمعرفة مدى ما تستطيع ان تقدمه هذه الظروف من اجل تحقيق اهدافها ، وان تتخذ قرارها في ضوء الحقائق المادية للظروف نفسها بعد دراستها ، وان تسير في تنفيذ مقرراتها ، ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، بسرعة الاحداث المتعاقبة نفسها ، وان تقف في اندفاعها عند حدود الحقائق العملية ، ولا تنطلق وراءها •

واذا كانت هذه هي الصفة العلمية لعملية التبدل الاجتماعي فينبغي ان يكون واضحا ، كما يقول لينين ، ان نجاح الحركة البروليتارية لا يتوقف على التطور وحده ، ولا على مماشاة الظروف كما يريد الاصلاحيون والفرصيون ، ولا على احلام الفوضويين الذين يريدون الاستغناء الآني عن الادارة السياسية ، بل ان نجاح الحركة البروليتارية يتوقف على عمل ثوروي ومنظم وموقوت ، ويسير في سلسلة من الخطوات الحكيمة • وليست نظرية ماركس ، كما يقول لينين في كتابه « الدولة والثورة » الا تطبيق لنظرية التطور على الرأسمالية الحديثة تطبيقا تاما ومعقولا وثابتا ومثمرا •

فترة الانتقال الثورية :

لقد اوضح ماركس ان الشيوعية لا يمكن ان تحل محل الرأسمالية

مباشرة ، وانه لابد من فترة انتقال ثورية . وقد ذهب لينين الى ان هذه الفترة ستكون ادق فترة يمر بها النظام البروليتاري . ومع ان الرأسمالية تحمل في اطوائها قوى تسبب فناءها ، كما قال ماركس ، الا ان هذه القوى الفانية لا تقيم الشيوعية . فمن انبل واجبات البروليناريات هي ان تسير بالثورة ، عند انهيار الرأسمالية ، الى اقصى حد ممكن حتى لا تفكر الرأسمالية بالعودة ثانية . وفي هذا يقول لينين :

« نحن بحاجة الى قوة ثورية ، وبحاجة (لفترة انتقال معينة) الى الدولة . وهذا هو وجه الخلاف بيننا وبين الفوضويين . فالفرق بين الماركسيين الثوريين والفوضويين لا ينحصر في ايمان الماركسيين بانتاج شيوعي ضخم ومركزي ، وايمان الفوضويين بانتاج قليل ولا مركزي ، بل في السلطة الحكومية التي تتعهد ذلك ....

« نحن بحاجة الى الدولة ، ولكن لسنا بحاجة الى الدولة التي اسسها البورجوازيون في كل مكان ، والتي تتفاوت في اشكالها : فمن ملكية دستورية الى جمهورية ديمقراطية . وهذا هو الفرق بيننا وبين الفرصيين والاحزاب الاشتراكية القديمة المنحطة ....

« نحن بحاجة الى الدولة ، ولكن ليست الدولة التي يحتاجها البورجوازيون حين حصروا كل وسائل القوة في ايديهم ، الجيش والشرطة والموظفين ، وحكموها في رقاب الشعب . لقد جعلت جميع الثورات البورجوازية وسائل القوة كاملة ، وانتقلت بها من حزب الى آخر .

« ومع هذا ، فاذا ارادت البروليتاريات ان تحافظ على ثمار الثورة

الحاضرة وتواصل عملها للظفر بالسلم والخبز والحرية فعليها ، بتعبير ماركس ، ان (تحطم) ماكنة الدولة (القائمة) وان تبدلها بماكنة اخرى بضم الجيش والشرطة والموظفين الى صفوف الشعب المسلح » .

يتضح من هذا ان واجب البروليتاريات ينحصر في السيطرة على الدولة باستعمال القوة ، وفي مواصلة نظامها الديكتاتوري وفرضه على انصارها بشرط ان يستهدف قبل كل شيء خدمة طبقة البروليتاريات فقط . وهذا ما ذهب اليه لينين حينما بحث في ديكتاتورية البروليتاريات . فقد آمن ان الديمقراطية والثورة البروليتارية صنوان لا يجتمعان . ففي الدولة الديمقراطية قد تستخدم العناصر غير الثوروية الحرية وسيلة لعرقلة النظام الجديد . ومن اجل هذا فان الحرية لا محل لها في الدولة البروليتارية حتى يقضي على الطبقة البورجوازية قضاء مبرما . وقد نصح لينين ان تؤسس ، كما بينا ، في فترة الانتقال حكومة ديكتاتورية بروليتارية . « فالجماهير البروليتارية لا تستطيع ان تحكم نفسها بصورة مباشرة ، او توجه السياسيات والاعمال في دولة حديثة معقدة توجيها مدركا . فينبغي والحالة هذه ان ينحصر الحكم في صفوة مختارة من قادة قد تبلورت افكارهم واحسن تنظيمهم ، واحكم ضبطهم - قادة تنبثق من الطليعة المسلحة ، للبروليتاريات » . (١)

ولم يتسرب الى لينين شك حول رسالة الحزب البولشفيكي الخاصة من حيث هو « الطليعة المسلحة » التي ستستولي على الحكم لتحقيق الاهداف الشيوعية . فقد كان هذا الحزب ماركسيا وثورويا

(1) Maxey, Chester, Political Philosophies, P., 671 .

موءمنا ، وكان لينين يعتقد ان الشيوعية آتية لا ريب فيها ، وان المسألة مسألة زمن . وقال ان هذه هي تعاليم ماركس ، وهذا هو قانون التاريخ الذي لا يخطأ .

ومما قاله لينين : لا مجـــال للعواطف والشعور في النظريات والاساليب البولشفكية ، فينبغي ان نتوصل الى حل كل مشكلة ودراسة كل حالة بطريقة موضوعية ، فتحقيق الشـيوعية بالطفرة ليس الا جنون محض . فكن صبورا ، وتعلم متى تنتظر ومتى تتريث ، ومتى تنزل الضربة السريعة والقاضية وتندفع الى الامام . وتمسك قبل كل شيء بالسلطة ، ولا تدع الدولة تفلت من بين يديك . ولا تخاطر فيها .

وقد شاهدت روسية بعد وفاة لينين كفاحا مريرا بين ستالين من جهة وتروتسكي من جهة اخرى . ولم يكن هـــذا الكفاح من اجل السيطرة على الحكم حسب ، بل كان من اجل تفسير تعاليم لينين ، ومن يكون مرجع الاحكام . وحينما انتصر ستالين على خصمه تروتسكي وفر الثاني من روسيا واغتيل في المكسيك شاهدت روسية بعده شيوعية معتدلة ، انصرفت الى القيام باصلاحات داخلية في ظل نظام ديكتاتوري . اما تروتسكي فقد كان يعتقد ان الوقت قد حان للعمل خارج الاتحاد السوفياتي ، وان الثورة العالمية التي اشار اليها كل من ماركس ولينين ينبغي ان توءجج نيرانها في العالم . هذا ما آلت اليه الشيوعية في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين . اما بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة فقد تخلى ستالين عن فكرته الاولى ، واخـــذ يعتقد ان الثورة العالمية وشيكة الوقوع ، وان مقدماتها ماثلة للعيان ، وان على روسيا ان تشعل نيرانها في كل مكان .

أسس التربية الماركسية

كان الماديون الافرنسيون في القرن الثامن عشر يعتقدون ان الانسان وليد بيئته وتربيته ، وان تمتعه بحقوقه الطبيعية في الحرية والمساواة والتعليم سيساعده دون شك على بناء « مملكة العقل » التي ستجد الانسانية فيها سعادتها . وكانوا يعتقدون كذلك ان التربية قوة سياسية عظيمة بمقدورها ان تصل بالانسان الى هذه الدولة العقلية الاجتماعية المثالية .

وتنكر الماركسية ، كما يقول الاستاذ شور Shore ، ان الانسان وليد تربيته وبيئته بصورة غير فاعلة Passive ، او انه يتبدل بسبب نشوء حالات تربوية جديدة ، وبهذه الصورة غير الفاعلة ايضا . وتدعي انها تستطيع ان توجد علاقة جديدة متبادلة بين البيئة والتربية من جهة وبين البيئة والانسان من جهة اخرى . ولما كان الانسان المتبدل يحدث تبديلا في البيئة المتبدلة وفي العملية التربوية التي تبدل فيه فعندئذ تصبح عملية تبدل الانسان بهذه الصورة عملية لا نهائية .

وتؤكد الماركسية ان آراء الانسان وشعوره متصلة كلها بالفعاليات المادية والعلاقات المادية ، وان الثقافة التي يعبر عنها ، من لغة ودين وسياسة واخلاق ، وليدة علاقات مادية متداخلة . فالآراء لا تتكون الا بفعاليات مادية ، ولا تستأصل الا بتبدل في الاسس المادية الحقيقية للعلاقات الاجتماعية . وهكذا فان التبدل التربوي لا يحصل من جراء انتقاد نظم التعليم انتقادا مرا ، بل بطريقة ثورية ، باعتبار ان الثورة هي القوة المسيرة للتاريخ . وعليه فان التبدل الثوروي في اسس الحياة

الاجتماعية المادية هو القوة المحتملة في التبدل التربوي .

وتذهب الماركسية ايضا الى ان الانسان ينبغي ان يكون قادرا على ان « يعيش » حتى يكون قادرا على ان يصنع التاريخ بنفسه ، وان الحصول على وسائل سد هذه الحاجة ، وظهور حاجات جديدة ، وتكوين العائلة هي التي كيفت تطور التاريخ من جهة ، وكيفت التربية التي تساير التاريخ من جهة ثانية . فمثلا لم تكن التربية في المجتمعات الابتدائية منظمة بل كانت عرضية . وكان باعثها محاولة الانسان في البحث عن وسائل مادية للعيش . ولذلك فقد قامت على المشاركة الفعلية ، واتصلت بكل وجه من وجوه الحياة ، وهكذا نجد ان الفعاليات الاجتماعية الثلاث في حياة الانسان وهي : تزايد حاجاته ، والانتاج ، وتكوين العائلة قد اصبحت متداخلة بعضها في بعض .

وعند المقارنة بين الاشتراكيين الماديين والاشتراكيين الماركسيين نلاحظ فروقا اساسية في موقفهم مثلا من الدين والاخلاق . فبينما قد جعل الاشتراكيون الطوبائيون التربية الاخلاقية هدفا من اهداف تربية الجيل الجديد ، وقبلوا المسيحية الخالصة من الشوائب والادران اساسا لمثل هذا التدريب ، كما يقول الاستاذ هانز ، نجد ان الماركسيين يقاومون كل تربية دينية اخلاقية .

التربية السياسية :

كانت التربية في المجتمع الابتدائي تربية اجتماعية وغير سياسية . وحيث ان الملكية الخاصة كانت معدومة فلم تظهر طبقات اجتماعية ، ولم يحدث صراع اجتماعي ، ولا كفاح من اجل السيطرة على وسائل

الانتاج ، ولا حاجة للمحافظة على الملكية الخاصة ، واخيرا لا حاجة الى الدولة السياسية . وطبيعي ان تكون التربية في المجتمع غير السياسي غير سياسية ايضا . ومع ذلك فقد كانت التربية في المجتمع الابتدائي عملية غائية ، عدتها العمل من اجل الكفاح في الحياة . وقد سبقت ظهور التنظيمات السياسية والدينية .

وبظهور الملكية الخاصة ، وتطور وسائل الانتاج حدث تبدل اجتماعي ، وانتقل المجتمع الى مرحلة تطورية جديدة ، وترك هذا التبدل آثاره في التربية ، بحيث اصبحت لا تعتمد على الظروف السياسية حسب بل على « الفكرة السائدة للطبقة الحاكمة » - هذه « الطبقة » التي حسبها ماركس تسيطر على كل مرحلة تاريخية . ولاشك ان القوة المادية الحاكمة في المجتمع (الطبقة) هي في الوقت نفسه القوة الثقافية الحاكمة ، وان الطبقة التي تسيطر على وسائل الانتاج المادية هي التي تسيطر ايضا على الوسائل الفكرية غير المادية للانتاج ، « ان الطبقة الحاكمة تستطيع ان تخنق آراء الطبقة المحكومة خنقا . وذهب ماركس الى ان جميع الافكار السائدة في مرحلة تاريخية معينة من مراحل المجتمع ليست الا تعبيرات عن تلك العلاقات التي تؤسسها الطبقة الحاكمة . ولكي تجعل هذه الطبقة افكارها وآراءها سائدة ، او لاجل ان تفرض سيطرتها على المجتمع « بالمثل الاعلى لعلاقات الانتاج المادية » كما يقول الماركسيون تسعى الطبقة الحاكمة الى « التدخل » intervention ، فتؤسس تلك المدارس التي تعنى بنشر عقائدها وافكارها وترعى مصالحها وتقاليدها . ويقول ماركس ان

رسالة الشيوعيين هي ان يغيروا طبيعة هذا « التدخل » ، وان ينقذوا عملية التربية من تأثير الطبقة الحاكمة .

ولما كانت الحياة الاجتماعية لا تتبدل الا بتبدل الاسس المادية للعلاقات الاجتماعية فان جميع انجازات الانسان في العلوم والفنون والآداب والفلسفة والدين والتربية والسياسة والقانون تتوقف كلها على العامل المسبب وهو الاقتصاد . يتضح من هذا ان التربية لا تستطيع ان تبدل في حياة المجتمع ما لم تتبدل اسسه المادية . ومع ان الماركسية قد جعلت الاقتصاد هو العامل المسبب الا انها ادركت تأثير الفنون والآداب والعلوم في اقتصاديات المجتمع ، وانها تؤثر الواحدة في الاخرى ، وتؤثر كذلك على الاساس الاقتصادي .

وعليه فان وظيفة التربية في المجتمع قد صارت واضحة . فبدلا من ان تكون تعبيرا مثاليا مجردا لعلاقات الانتاج اصبحت قوة فعالة تستطيع هي نفسها ، ولدرجة ما ، ان تصوغ « اسس » الحياة المادية - وهو الاقتصاد . (١) وعلى هذا تستطيع التربية ان تبدل ، في حدود ضيقة ، الاساس الاقتصادي الذي يقوم عليه المجتمع ، وتساهم دايلكتيكيا في تطور المجتمع الجديد ، وتكون قوة فعالة في تبديل طبيعة الكفاح التاريخي وخصائصه . ولقد اقرت الماركسية ان عقل الانسان عامل مهم في الاستجابة الى الاساس الاقتصادي ، وقوة منتجة تستطيع « في كثير من الحالات » ان توجه تطور اقتصاديات المجتمع توجيها صحيحا .

---

(1) Shore, Maurice J., Soviet Education, P., 32.

او « يختلف المنهج الثقافي لروسية السوفياتية كل الاختلاف عن منهج اي قطر غربي في ناحية اساسية واحدة وهي : ان هذا المنهج لم يتكون من تجمع اجزاء مبعثرة كل جزء لا يتصل بغيره من الاجزاء كما هو الحال في هذه الاقطار ، وانما هو كل موحد منبعث عن نظرية عامة او فلسفة تمتد جذورهـــا في الآراء والتجارب العلمية والتربوية من ناحية ، وفي النظرية الاجتماعية والنشاط السياسي من ناحية اخرى »٠(١) ويؤكد الاستاذ بول منرو ان هذه النظرية تتألف من عدة نقاط ، وان التربيـــــة تتكون من عمليتين : عمليـــة التطبـــع nuture والتدريس instruction ٠ (٢)

ويعتقد امربو الروس ان صلة التربية بالسياسة صلة عظيمة جدا ، وكذلك صلة المدرسة بالمؤسسات الاجتماعية الاخرى ، وان العمليات التربوية (او الثقافية) والسياسية والاقتصادية ينبغي ان تتحد بعضها في بعض اتحادا وثيقا ٠ ولا يخفى ان « الدعاية » هي المحصول المباشر من هذا الاتحاد ٠ ويقول البيرب بنكيفتش في كتابه « التربية الجديدة في الجمهورية السوفياتية » المطبوع في لندن بصـــدد علاقة التربية بالسياسة ما يأتي : « وطبيعي ان كل دولة تبـــذل كل ما في وسعها لبسط سيطرتها التامة على تربية الشباب ، وان الدولة المعاصرة من حيث هي تنظيم للمصالح الطبقية تناضل بصورة متواصلة من اجل

---

(1) Monroe, Paul, Essays in Comparative Education, Vol. II, B., 3, New York City, 1932.

(٢) راجـــع صفحة ٤ وما بعدها من المصدر الآنف الذكر للتوسع في بحث هاتين العمليتين ٠

ضمان سيطرتها الكلية ، اي من اجل ضمان سيطرة طبقة من الطبقات على مراكز الحكم في ذلك الحين ، وان التعليم العام الذي يصوغ مواطن المستقبل في قوالب خاصة اداة جبارة لا تستطيع حكومة من الحكومات ان تسلمها الى اناس آخرين . وبكلمة اخرى ، ان المدرسة والمؤسسات التربوية الاخرى ، بغض النظر عن الضجة التي قد يثيرها المربون البورجوازيون حول الموضوع ، لا يمكن ان تكون بمعزل عن السياسة ، وان النداء الذي يتعالى (تسقط السياسة في داخل المدرسة) ، ليس الا رياء محض ، وان تطبيقه الى مدى معين لا يمكن الا في المجتمع الاشتراكي القادم . واذا ما رجعنا بنظرنا الى تاريخ التعليم العام فسنرى ان المدرسة لم تكن في يوم من الايام ، ولا في مكان من الامكنة بعيدة عن السياسة .

اما لينين فقد قال : « كلما كانت الدولة البورجوازية مثقفة كانت خديعتها اعظم ، لانها تؤكد ان المدرسة تستطيع ان تبقى بعيدة عن السياسة ، وانها تستطيع بابتعادها هذا ان تخدم المجتمع كله . والحقيقة ان المدرسة كانت اداة كلية بيد البورجوازيين يستخدمونها للسيطرة الطبقية ، وكانت مشبعة تماما بروحية الطبقة ، وكان هدفها ان تقدم الى الرأسماليين ارقاء مطيعين وعمالا مقتدرين » .

لينين والماركسية والتربية :

لقد آمن لينين بعقائد ماركس وانجلز ايمانا عميقا ، وجعلها اساسا لعلم قادر على توجيه اعمال الانسان في نواحي خاصة ، واعتقد ان هذا العلم قابل للتطبيق في جميع اقطار العالم ، وفي كل مرحلة من

مراحل التاريخ ، وفي جميع نواحي النشاط الانساني ، بما في ذلك التربية نفسها . وقد درس لينين كذلك فلسفة هيكل دراسة مستفيضة ، وعدها ذات اهمية بالغة في النظريات الشيوعية . وقد سمى الدايلكتيكية الهيكلية ، من حيث هي عملية متناقضات ونتائج ، « وحدة المتناقضات » . ولما كان لينين ماديا في تفكيره ، شأنه في ذلك شأن ماركس ، فقد اخرج الدايلكتيكية الهيكلية من نطاقها المثالي الى النطاق المادي . كما انه اقتفى اثر ماركس وانجلز ووسع في نظرياتهما لاسيما في نطاق تطبيق الدايلكتيكية المادية على قطر زراعي مثل روسية ، وجعل نظرية « القيمة الفائضة » قابلة للتطبيق على الزراعة ايضا ، واهتم بالمتناقضات التي تفصل المدينة عن القرية ، وادخل الفلاحين في صفوف الطبقة البروليتارية . وكان اعظم ما قدمه لينين الى النظريات الثورية هو تحليله لطبيعة الاستعمار (١) الذي حسبه مرحلة تدهور الرأسمالية ، وذهب الى ان الثورة في فترة الاستعمار آتية لا ريب فيها .

وقد اكد لينين على ان المجتمع الشيوعي لا يتحقق الا بعد ان يمر في فترة انتقال ، وهي « ديكتاتورية البروليتاريات » ، وان في هذه الفترة تبلغ البروليتاريات آخر هدف من اهداف الدايلكتيكية التاريخية ، وتتلاشى الدولة تماما بعد ان يكون الناس قد اعتادوا الانصياع الى

---

(١) عرف لينين الاستعمار بانه فترة رؤس اموال وشركات احتكارية تدفعها مطامعها في كل مكان للسيطرة والاستيلاء . وتبدو من جراء هذه المطامع طلائع المقاومة على جبهة واسعة ضد الانظمة السياسية جمعاء ، وتزداد المتناقضات زيادة عظيمة .

المباديء الاساسية التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية ، وتصبح اعمالهم منتجة لدرجة انهم سيشتغلون من تلقاء انفسهم ، وفق قابلياتهم ، كما يقول في كتابه « الدولة والثورة » . اما متى يصل الانسان الى هذا المجتمع الذي تنعدم فيه الطبقات الاجتماعية فأمر لا نعرفه كما يقول لينين . تلك هي خلاصة ما كان يعرف في الاتحاد السوفياتي « باللينينية » . وقد عرفها ستالين سنة ١٩٢٤ فقال : « يرى بعضنا ان اللينينية تطبيق الماركسية على اوضاع روسية الخاصة . وهو تعريف ينطوي على قسم من الحقيقة لا كلها .... وما اللينينية الا ماركسية فترة الاستعمار والثورة البروليتارية . وبتعبير ادق : هي نظرية وتكتيك الثورة البروليتارية بصورة عامة ، وهي نظرية وتكتيك ديكتاتورية البروليتاريات بصورة خاصة » .

لينين والاصلاحات التربوية :

لقد عارض لينين جميع الاصلاحات التربوية التي ارادت روسية القيصرية القيام بها في اواخر القرن التاسع عشر ، وذكر انها منبثقة من احزاب سياسية شتى ، ومن طوائف مختلفة قد تأثرت بالاتجاهات الاشتراكية التي ظهرت في غربي اوروبة ، وحسبها غير كافية ، وعدها انتهازية ، ولا تستهدف الا مصالح الطبقة الحاكمة لا مصالح المنتجين الكادحين . وقد وقف لينين من « التقدم » و « الثقافة » موقفا معارضا ، واستنكر طرق تحقيق هذا « التقدم » وهذه « الثقافة » في المجتمع البورجوازي ، واعتقد انهما وليدا الملكية الخاصة التي من شأنها ان تجعل الانجازات الثقافية غير اجتماعية ، وأكد ان الطبقة الحاكمة (وهي الطبقة البورجوازية) لا تنال بهذه الاصلاحات بلوغ مصالحها وتحصين

مراكزها حسب بل تسعى لتكوين طبقة بورجوازية مثقفة تخدم مصالحها في الجامعات الروسية ، وقال ان من يسيطر على وسائل الانتاج يسيطر على وسائل التفكير ايضا ، وان البورجوازية « بتدخلها » التربوي تجعل من هذه الطبقة المثقفة ظهيرا لها وندد بالاصلاحات التي نادى بها الاحرار ، وحسبها خديعة بورجوازية . مثال ذلك ، انه حينما وضع يوجاكوف Yujakov خطة تربوية لتعميم التعليم الثانوي في جميع انحاء روسية عارضها لينين معارضة شديدة ووصفها بانه « تجربة رقيقة بيروقراطية واشتراكية بورجوازية » ، مع العلم ان هذه الخطة لو وضعت موضع التنفيذ لهيأت لروسية نظاما تعليميا ثانويا ممتازا حسب ما يذكر العارفون باحوالها الثقافية . وقد ذكر لينين ان « الشعب المتعلم يحتاج الى قادة متعلمين ، وهؤلاء لا ينبثقون الا من الطليعة التي قادت الثورة ، وحينما تنجح الثورة تقع على هذه الطليعة مسئولية جديدة — عليها ان تعلم . ولهذا فان الاهداف التربوية ينبغي ان تتحول من تلك الاهداف التي تبعث الثورة في المجتمع الجديد الى تلك الاهداف التي تبني ذلك المجتمع » . (١)

وكان لينين يعتقد ان التربية عملية موحدة تجمع الناحيتين النظرية والعملية بصورة متداخلة بحيث يتعذر معرفة اي عملية تسبق الاخرى ، واهتم بالتعليم الفني الحديث نظرا لتأخر روسية الفني والمهني الذي جعل استثمار مرافقها الطبيعية الوفيرة امرا متعذرا ، لانها عزمت منذ سنة ١٩١٨ على ان تزيد في انتاجها لتسد حاجاتها

(1) Shore, M. J., Soviet Education, P. ,139.

الضرورية . يضاف الى ذلك انه وجـــه اهتمامه في اواخر الحرب الاهلية الى مكافحة الامية بين صفوف العمال ، والى التربية السياسية ، وطبق المبدأ الماركسي (جعل التعليم متصلا بالانتاج) على البالغين ، واهتم في سنة ١٩٢١ بتعليم المزارعين ونادى في سنة ١٩٢٣ باصلاح التعليم العلمي ، وبتطبيق العلم على المشاكل اليومية .

وفي الفترة الممتدة بين سنة ١٩١٨ - ١٩٢٠ وضع لينين الى الطليعة الثورية عدة اهداف تربوية ، فناشدها بان تتحرر من العصبيات البورجوازية ، ومن آرائها في الحرية والمساواة والديمقراطية اذا كانت هذه الآراء تتعارض وتحرير العمال من جور رأس المال ، وان تتسلح بعادات جديدة ، وبطرق في التفكير جديدة حتى يكون بمقدورها ان تسير في فترة الانتقال الى المجتمع الاشتراكي الجديد ، وان تحسن اثارة حماسة الناس في تقبل النظريات الاشتراكية والعمل من اجلها ، ومن اجل البناء والانتاج الاشتراكي ، واقترح لينين ان تقدم مساعدات مالية لاعضاء الحزب الشيوعي ، وللزمرة النابهة من ابناء البروليتاريات والفلاحين تساعدهم على الالتحاق بالمعاهد العالية ليكونوا في عداد الطليعة في المستقبل ، واكد على وجوب اعداد الاطفال اعدادا فنيا متصلا بعمل اجتماعي مفيد ، وعلى اهمية التعليم المهني للمراهقين والراشدين . وكان اهم ما صرح به لينين حول اهداف المدرسة هو ما يأتي : ينبغي ان تكون المدرسة سلاحا بيد ديكتاتورية البروليتاريات ، والا تقتصر قيادتها على المبادىء الشيوعية فقط ، بل ينبغي ان تكون مثالا اعلى وهاديا واداة تربوية تستخدمها

البروليتاريات للتأثير في طبقة اشباه البروليتاريات وغير البروليتاريات من الجماهير الكادحة . وهكذا ينبغي ان توجه المدرسة للقضاء على المستغلين ولتحقيق المجتمع الشيوعي .

وقد اراد لينين ان تكون المدرسة في فترة الانتقال سلاح دفاع وهجوم - الدفاع عن ديكتاتورية البروليتاريات والقضاء على اعدائها ، ومحافظة طبقة البروليتاريات ودولتها ، ومقارعة الدولة التي انشأتها الطبقة البورجوازية وازالتها .

التربية سلاح :

ان اعتبار المدرسة سلاح ديكتاتورية البروليتاريات قد اصبح « الدليل الهادي » Leitmotif للنظرية التربوية الشيوعية . وقد تضمن منهاج الحزب هذه النظرية سنة ١٩١٩ ، وجميع الاهداف التربوية التي وضعها لينين تقريبا . فحينما اقترح لينين فتح مؤسسات تربوية فمدرسية اخذها الحزب ووسعها وجعلها وسيلة لخدمة الامهات العاملات . ووجه الحزب الشيوعي عنايته الى التعليم الفني الذي نادى به لينين ، والى التعليم المدني ، واستخدام اللغات المحلية في التدريس . وقد اتخذ الحزب تدابير خاصة ضد المعلمين الذين لم يساهموا في الثورة ، ولم يؤمنوا بالمجتمع الشيوعي الجديد ، واهتم بتطبيق مبدأ « مدرسة العمل الموحدة » Uniform labour school في ضوء تصريحات ماركس في « مؤتمر جنيف » سنة ١٨٦٦ .

التربية بعد لينين

وبموت لينين سنة ١٩٢٤ انزل الستار على اهم فصل من فصول

تطور النظريات التربوية الماركسية في الاتحاد السوفياتي ، وساهم التعليم مساهمة فعالة في بناء الشيوعية ، وخطا خطوات واسعة ، وقام بتجارب كثيرة في مختلف ميادين التربية ، وارتكب في الوقت نفسه اخطاء ليست قليلة . واذا كانت الشيوعية تعفو عن الاخطاء التي ترتكب في النواحي « المادية » فانها لا تتسامح مطلقا في ارتكاب اخطاء « عقائدية » عند توجيه الشباب ، ومن اجل هذا وجه مربو السوفييت عنايتهم الى فلسفة التربية ونظرياتها ، واشادوا قاعدة تربوية للمجتمع السوفياتي يسهل منها فحص المراحل التربوية المختلفة فحصا تاريخيا وفهمها فهما صحيحا . وكما ان العمل ، حسب تعبير ماركس ، الحالة الطبيعية للحياة الانسانية الخاصة في جميع عهودها التاريخية ، فان التربية كما يقول لينين هي « المقولة الاجتماعية » العامة والخالدة . وكانت هذه « المقولة الاجتماعية » تختلف من مرحلة اجتماعية الى اخرى . فمثلا كانت التربية في المجتمعات الابتدائية مرحلة بسيطة ولا طبقية ، وفي مجتمعات الرق طبقية ، كما حدث في اليونان ، وكانت تهدف في المجتمعات الاقطاعية الى تربية الفرسان . واعداد رجال الدين وتقوية روابط النظام الاقطاعي . والتربية في المجتمعات الرأسمالية محافظة تسعى الى تأسيس نظام تعليمي عام لابناء الطبقات الفقيرة ، وتعليم خاص لابناء الطبقات الحاكمة .

اما في الاتحاد السوفياتي فان التربية تستهدف اليوم اعداد الطلاب من حيث هم مواطنون مثقفون يستطيعون ان يكافحوا كفاحا متواصلا من اجل تأسيس الشيوعية تأسيسا نهائيا وبناء مجتمع لا

طبقي . ومع انه يتعذر جدا على طلاب المدارس ان يدركوا بانفسهم حقيقة الكفاح الدائر بين النظريات المادية والمثالية نحو العالم (والتي تحتاج الى اعداد فلسفي خاص) فانهم مع هذا يستطيعون عن طريق التلقين ، وبمرور الزمن ، ان يميزوا اوجه الخلاف والتشابه بين النظريات الفلسفية المختلفة . وقد اوضح البيرت بنكيفيتش Pinkevitch في كتابه « التربية الجديدة في الجمهورية السوفياتية » (١) وظيفة التربية في الدولة الشيوعية فقال : « اولا ، ينبغي ان تكون ادارة التعليم بيد الشيوعيين ، وثانيا ، ينبغي ان تنشر الافكار الشيوعية عن طريق الصحافة وكتب الاطفال انتشارا واسعا ، وثالثا ، ينبغي ان يسير تنظيم التعليم كله وفق الافكار الشيوعية » . وبعبارة اخرى : ان هدف التعليم هو تلقين الشباب بالفلسفة البروليتارية . وصرح وزير المعارف كلاشنكوف A. T. Klashinkov : «ينبغي ان يحصل البنون والبنات الذين يتخرجون من المدرسة السوفياتية على اهم العناصر التي تؤلف وجهة النظر الشيوعية نحو العالم ... » .

وتدل كلمة التربية في الاتحاد السوفياتي ، كما يقول جورج كاونتس Counts ، على معنى يختلف عن معناها في الاقطار الاخرى ، انها تدل على جميع العمليات والوكالات والمؤسسات التي تسيطر على عقول الاطفال والشباب والكهول وتصبهم في قوالب معينة . وبعبارة اخرى ان جميع المؤسسات الاجتماعية تؤدي وظائف تربوية تثقيفية تحت اشراف الحزب الشيوعي . والمدارس هي احدى هذه المؤسسات .

(1) The New Education in The Soviet Republic.

اما المؤسسات الاخرى فهي الحزب الشيوعي بفروعه المتعددة ، وجمعيات الاطفال والشباب التي ترتبط به . « ويؤلف نظام التعليم السوفياتي اعظم قوة للسيطرة على العقل البشري عرفتها الانسانية ، واوسعها مدى . ويخضع لمراقبة منظمات الحزب المركزية خضوعا كبيرا ، ويرمي الى تحقيق اغراض الحزب . ونظام التعليم، كما يردد زعماء السوفييت دون هوادة ولا كلل ، (سلاح الشيوعية) » . (١)

واذا كان ماركس وانجلز هما مؤسسا النظريات التربوية الشيوعية فان لينين شارحها ومكيفها الى ظروف روسية الخاصة ، وقد حذا حذوه كثير من اتباعه ، وقاموا بانجازات عظيمة ، وارتكبوا اخطاء جسيمة . فمنهم من اراد ان يسير وفق النظريات التربوية الماركسية اللينينية ، ومنهم من اراد ان يحور فيها ليواكب التطور العظيم الذي حدث في الاتحاد السوفياتي بعد وفاة لينين .

نظرية تلاشي المدرسة :

وكان شولكن V. N. Shul'gin مدير « معهد ماركس - انجلز للدراسات التربوية » (٢) يعد التربية المقصودة عملية « تلقائية » . ولكي يدعم رأيه هذا استشهد بما قاله لينين مرة : « تتعلم الجماهير بخبراتها » . وقد نظر الى المدرسة من حيث هي مؤسسة منظمة تساعد على سير العملية التربوية - هذه العملية التي تفوق غيرها

---

(1) Counts, George S., and Lodge Nucia, The Country of The Blind, P. 245, Boston, 1949.

(٢) الغي هذا المعهد في سنة ١٩٣١

اهمية ، والتي تحدث في الحياة بصورة « تلقائية » ، ومن حيث هي مؤسسة وقتية في المجتمع الاشتراكي مصيرها « التلاشي » شأنها في ذلك شأن الدولة الشيوعية . وذهب الى ان المحيط الاشتراكي ، في مرحلة معينة من مراحل « فترة الانتقال » سيحل محل المدرسة ، وان مصير المدارس كلها في المجتمع الشيوعي القادم الى « التلاشي » ، وسيذهب الاطفال حالا الى العمل الاجتماعي (مشاركة الاطفال الاختيارية في حياة الجماعة) ، وسيستغنى عن المدرسة ، وسيقتصر الامر على مدير مثقف قادر على فهم نفسيات الاطفال، وسيلتحق الاطفال بالمشاريع الصناعية حالما ينتهون من اعمالهم الاجتماعية ، ويترددون على المكتبات لاستنباط الاجوبة المتعلقة بمشاكلهم الخاصة ! وقد تصدى للرد على هذه النظرية عدد كبير من مشاهير مربي الروس ، وحسبوها نظرية « فوضوية » ، وغير ماركسية . وجدير بالذكر ان لينين نظر الى التربية المقصودة (المدرسة) من حيث هي اداة مهمة جدا في بناء المجتمع الشيوعي ، وان مشاهير المربين السوفييت ، امثال فريدمن Freedman ، حسبوا التربية غير المقصودة لا تنسجم مع النظريات التربوية الماركسية .

ويرى فريدمن ان الطريقة العلمية الحديثة تسير وفق طرائق البحوث العلمية العامة من جهة ، وطرائق البحوث الخاصة بذلك العلم من جهة اخرى ، وعنده ان الطريقة العامة هي المادية الجدلية . فالعلوم الطبيعية تخضع الى دايلكتيك الطبيعة ، وهو وجه من وجوه الطريقة العامة ، وتخضع العلوم الاجتماعية الى وجه آخر من وجوه الطريقة العامة - وهو المادية التاريخية . وذكر فريدمن ان تصنيف

التربية في مجموعة معينة من العلوم امر ينطوي على بعض الصعوبات ، لان العملية التربوية ليست مجردة عن غيرها من العمليات ، بل تتشاجر فيها العوامل الاجتماعية والبايولوجية ، وتحتاج الى معرفة هذه العوامل معرفة علمية . فقد تعين العوامل البايولوجية ، في صورة من الصور ، جدود « التدخل » التربوي ، وتقرر الى اي مدى وكيف ان سلوكا معينا هو نتج العملية الطبيعية النشوئية ، والتفاعل الاجتماعي . ويستنتج فريدمن ان التربية عملية اجتماعية بايولوجية ، وانها تخضع بهذا الاعتبار الى طريقة البحث العلمي العامة للمادية الجدلية . (١)

فمن الناحية الجدلية تعنى الدولة بالعملية التربوية . ولما كانت الدولة اداة بيد طبقة من الطبقات ، وان هذه الدولة هي التي توجه العملية التربوية وترسم اهدافها فان هذه الاهداف تعبر عن نفسها في « الكيان » Superstructure العقائدي للاساس المادي لتلك الدولة المعينة وفي تلك المرحلة التاريخية .

ولكن ، هل تستطيع التربية ، وهي تعبير مثالي للاساس المادي، ان تكون نافعة ومفيدة بدون « تدخل » ؟ ان الجواب عن هذ السؤال ينحصر في وظيفتي العملية التربوية المقصودة (او المنظمة) وغير المقصودة (او غير المنظمة) . فاذا تركنا التربية بيد الطبيعة تسيرها أنى ومتى شأت نجمت عن هذا التسيب نتائج وخيمة . ولكن الدولة ، كما يحسبها كل من فريدمن وكلاشنكوف ، « منظومة غائية » تحس بضرورة تنظيم التربية والاستفادة منها الى اقصى حدود الامكان ، وينبغي ان ترسم الدولة اهدافها التربوية في حدود التنظيمات الاجتماعية

---

(1) Shore, Maurice J., Soviet Education, P., 158.

القائمة اذا ارادت ان تكون نافعة ، والا تعذر عليها ، كما قال لينين ، ان تحقق شيئا اذا ما ظهر انهـــا تناقض الواقع الاجتماعي . ولكي نتحاشى وقوع تصادم بين الوجه المقصود وغير المقصود (او التلقائي) لابد من تحديد اهداف التربيـة في ضوء الظروف الواقعية والنتائج التربوية الحقيقية .

الاتجاهات المتطرفة في التربية :

وبانتصـــار ستالين سنة ١٩٣١ تبلورت الاهداف التربوية ، وقضى على الاتجاهات « اليمينية » و « اليسارية » المتطرفة التي ظهرت في ميدان التربية والتعليم . فقد ابتدع اصحاب « المدرسة اليسارية » نظرية « تلاشي المدرسة » ، وادخلوا طريقة المشاريع ، وجعلوا العمل اساس عملية التعليم - في المدرسة والمعمل والحانوت والحقل وغيرها . وكان من نتاج الاندفاع في تطبيق هذه الاساليب التربوية ان انحط المستوى العلمي في المدارس انحطاطا كبيرا ، وقل محصول الطلاب من المعلومات .

ومن القضايا التي اشغلت بال المربين السوفييت في السنوات الاخيرة هي قضية تحديد العلاقة بين البيئة والوراثة . وقد سمى العلم الذي انصرف لدراسة هذه المشكلة بعلم « البيدولوجي » Pedology وعرّفه الأستاذ بلونسكي Blonsky بانه علم دراسة تاريخ نشوء الطفل في محيط اجتماعي وتاريخي معين ، وانتقد الاستاذ فوسكريسنكي Voskressensky هذ االتعريف ، وقال انه يقودنا الى القول بان علم البيدولوجي لا موضوع له ، وانه تدهور علمي ، فهو يجمع بين علم

النفس البورجوازي من جهة والتربية التجريبية من جهة اخرى . وفي ذلك ما فيه من تناقض مع النظرية الماركسية . فقد اختص البيدالوجيون بدراسة الطفل ، واختص المربون بتدريسه . وفي هذا ما فيه من تبعثر للجهود . فما القانون الاساسي الذي يسير عليه البيدالوجي ؟ ان الجواب عن هذا السؤال يتضح من تعليمات « اللجنة المركزية للحزب الشيوعي لروسية كافة » الصادرة في شهر تموز سنة ١٩٣٦ . فقد ذكرت هذه التعليمات ما يأتي : « تستنكر اللجنة المركزية TZIK نظرية وطرائق العلم المعاصر المعروف بالبيدالوجي ، وترى انها قائمة على اسس علمية مغلوطة، وانها لا تتفق مع الفلسفة الماركسية . . وترى ان هذا العلم يستند الى القدرية في تكييف مستقبل الطفل وفق العوامل البايولوجية والاجتماعية الثابتة ، او بتأثير الوراثة في محيط غير متبدل نوعا ما . ان هذا القانون الرجعي يتناقض تناقضا واضحا مع الفلسفة الماركسية ومع جميع اساليب الاشتراكية الانشائية التي تتوخى ان تقوم تربية الانسان على الروح الاشتراكية ، والتي تستأصل بقايا الرأسمالية وشعور الناس الى النظام الرأسمالي » . ولا يخفى ان الوارثة ، وهي عامل من عوامل نمو جسم الطفل وذكائه ، تخضع للتبدل الذي يسببه الانسان والمحيط والتعليم وفق اساس اشتراكي . فالصفات السلبية والنواقص التي يرثها الطفل عند الولادة لا تبقيها القوى الاجتماعية الحركية الجديدة .

اما البيئة فيعتقد الاشتراكيون انها تتأثر بالاحوال الاقتصادية المتبدلة المستمرة . وهذا خلاف ما يراه جون ديوي المربي الامريكي

الشهير الذي يذهب الى ان المدرسة ينبغي ان تعنى بالحاضر لا المستقبل ، وان تكون جزءا من حياة الطفل . ان اقتصار المدرسة على حاضر الطفل ، كما يقول المربون الشيوعيون ، يدل على قصر نظر الطبقة البورجوازية وعدم ثقتها بالمستقبل وخوفها منه ، وقد وجه مربو الروس انتقادات شديدة الى نظريات جون ديوي حينما حسب المدرسة « مجتمعا منظما » ، وقلل من دور المعلم في العملية التربوية ، وترك الطفل في مركز هذه العملية . وقد وصفوا هذه الآراء وما يتعلق بها وما ينبثق منها « بالوراثة القدرية » ، وحسبوها آراءا غير ماركسية ، ونظروا الى نظريات ثورندايك العالم النفسي الامريكي وبينه العالم النفسي في علم النفس التجريبي غير علمية ، وتفسيرات ميكانيكية للنفس والتربية . وقد انتقد الاستاذ ميدنسكي Medynski الاختبارات والقياسات العقلية في النظام البورجوازي حينما ذهب الى انها قائمة على اساس حرمان اطفال الفقراء من التعليم وحصره في اطفال الاغنياء ، وانها وضعت على هذا الاساس .

وخلاصة القول ان الماركسية تنكر اهمية عامل الوراثة العظيمة في علم النفس « البورجوازي » في تقرير مواهب الاطفات العقلية . وتعتبر هذه الاهمية خديعة بورجوازية ترمي ، كما يقول الاستاذ شور في كتابه « التربية السوفياتية » ، الى حرمان ابناء الكادحين من الحصول على فرص تعليمية ، وتعد البيئة نتج العوامل الاقتصادية . ولا يخفى ان التبدل الثوروي في اسس المجتمع المادية يحدث تأثيرا عظيما في البيئة الاجتماعية نفسها .

الغاء المتناقضات التربوية :

لقد وجه مربو الروس جهودهم الى الغـــاء المتناقضات التربوية الموجودة في النظام الرأسمالي ، وتتلخص هـــــذه المتناقضات فيما يأتي :

١ - مصلحة الطبقة الحاكمة تستهدف المحافظة على الوضع الراهن ، وتفترض ان تعليم الجماهير يؤلف خطرا على هـذا الوضع ، يقابل ذلك مدنية حديثة معقدة وحياة اجتماعية تتطلب « تدخلا » تربويا (او تتطلب بعبارة اوضح تعميم التعليم) متزايدا لصيانة مصالح الطبقة الحاكمة التي يعنيهـــا امر المحافظة على هـذا الوضع الراهن .

٢ - فرص تربوية غير متساوية بين المدن والارياف ، فبينما تتمركز الثقافة في المدن تمركزا عظيما نجد ان الارياف لا تتمتع الا بقسط ضئيل جدا من هذه الثقافة .

٣ - تناقض بين العمل الجسمي والعقلي ادى الى وفرة في الاختصاص بالنواحي الثقافية ، وقلة في النواحي الصناعية والحرفية .

٤ - فصل النواحي النظرية عن العملية قاد الى تكوين تعليم نظري مجرد وتطبيق ناقص .

٥ - تناقض بين الفوائد الناجمة من الانتاج الواســع المتأتي من من تقسيم العمل وتأثير هـــــذا التقسيم المتناقص في ذكاء

العمال . (١)

ولقد وجه كل من ماركس ولينين انتقادات شديدة الى متناقضين رأسماليين في التربية : التناقض بين المدينة والقرية ، وبين العمل الجسمي والعقلي . ويدعي السوفييت انهم قد استطاعوا القضاء على التناقض الموجود بين المدينة والقرية بجعل الانتاج اشتراكيا ، والزراعة عملا تعاونيا ، واستطاعت عملية كهربة الزراعة ان تقضي ، بتحويل الزراعة الى عمليات ميكانيكية ، على التناقض الموجود بين المدينة والقرية قضاء تاما . ويدعون كذلك ان الغاء التناقض الثاني لا يتم الا بالقضاء التام على نظام الطبقات والمجتمع الطبقي ، ومن اجل هذا فانهم يجاهدون في سبيل رفع مستويات العمال والفلاحين الثقافية والتعليمية والفنية في الظروف الحاضرة للمجتمع السوفياتي الاشتراكي .

والخلاصة ان الهدف الذي وضعه الحزب الشيوعي الى الشعوب السوفياتية ورجال التربية هو الانتقال التدريجي من حالتهم الاشتراكية الحاضرة الى حالتهم الشيوعية المقبلة في ظل نظام لا طبقي . وقد اثار هذا الهدف مرة اخرى قضية وجود الدولة في ظل النظام الشيوعي . وقد اجاب ستالين نفسه عن هذه القضية حينما قال : اجل ، ستظل الدولة قائمة اذا ما استمر الحصار الرأسمالي . ولكنها لن تدوم اذا حل « حصار اشتراكي » محل الحصار الرأسمالي .

وقد صرح مربو الروس ان نظرية « تلاشي المدرسة » نظرية غير ماركسية . اما نظرية « تلاشي الدولة » فقد آمن بها زعماء الحركة

(١) المصدر الآنف الذكر ، صفحة ٤٠ - ٤١

الشيوعية ، وظنوا انها ستتم في ختام المرحلة المتوسطة او في اوائل المرحلة العليا للشيوعية . ولكي تقترب البروليتاريات من هذه المرحلة العليا يطالب الشيوعيون ان تتمتع الحكومة بقوى وصلاحيات تامة . وقد اوضح هذا الطلب ستالين نفسه حينما قال : « ان المعادلة الماركسية اعلا مرحلة من مراحل تطور قوة الحكومة لتهيأة الظروف التي تتلاشى فيها هذه القوة . ورب قائل يقول : ان في هذا القول تناقض ، وهذا صحيح ، الا ان هذا التناقض هو الحياة ، وانه يمثل الجدل الماركسي كل التمثيل » .

ان تمتع الحكومة بهذه الصلاحيات والقوى لا يكون الا بوضع تشريعات خاصة . وفي هذه الحالة تصبح القوانين الجديدة صورة للمجتمع الجديد الناشيء ، كما تصبح سلاحا ماضيا في بناء الكيان الجديد في المجتمع الانتقالي . والتربية احدى هذه الوسائل التي تستخدم في التنظيم الجديد . ولكن « التربية الانتقالية » ينبغي ان تتم بالموافقة على « شرعية » الثورة نفسها ، فللقوانين اهداف بعيدة تنحصر في صوغ المجتمع الانتقالي بشكل يساعد على تكوين مجتمع تنعدم فيه الفوارق الطبقية . وينبغي ان تطبق هذه القوانين فورا ما دامت هي مصداق سياسة النظام الجديد ، وهو ديكتاتورية البروليتاريات .

غرس الروح الوطنية :

كان الشيوعيون يعتقدون حتى اوائل سنة ١٩٣٠ ان الوطنية فكرة بورجوازية ، وانها تخدم الاستعمار ، الا انهم سرعان ما تحولوا عن هذا المفهوم بعد سنة ١٩٣٠ ، واخذوا يروجونها بين العمال

ويغرسونها في نفوس الناشئة ، ويتكلمون عن « الوطنية » السوفياتية ، وعن « الوطن » السوفياتي . وكانت آخر مرحلة من مراحل تطور هذه الفكرة ما حدث أثناء الحرب العالمية الثانية . حينما سميت هذه الحرب « بالحرب الوطنية الكبرى » . وجدير ان نستقصي نموها في كتابات بعض المؤلفين، واقوال بعض رجال السياسة وموَلفي الكتب المدرسية. ولعل من اهم المصادر التي يمكن الركون اليها في هذا الصدد هو كتاب « علم التربية » Pedagogy الذي اقرته وزارة معارف جمهورية R.S.F.S.R. في معاهد دور المعلمين . (١) وقد اختار منه جورج كاونتس Counts ولوسيا لودج Lodge فصولا مختلفة ، ، وطبعت في كتيب صغير سنة ١٩٤٧ ، واطلق عليه اسم « اريد ان اكون مثل ستالين » (٢) ، وهو اسم منتزع من الكتاب نفسه . وقد اريد بهذه المختارات ان تكون مرجعا تربويا لدراسة الاتجاهات التربوية في الاتحاد السوفياتي عقب الحرب العالمية الثانية . ويحاول موَلفا « علم التربية » ان يظهرا بجلاء وقوة الولاءات الاساسية ، والصفات الخلقية ، والنظرة العالمية التي يحاول زعماء الاتحاد السوفياتي غرسها ورعايتها في نفوس الشباب نحو « اول جمهورية للعمال في التاريخ » . ويعد هذا الكتاب مرجعا رسميا لموَرخي التربية ، لانه كتاب « مقرر » ووثيقة تربوية خطيرة . ويقول الاستاذ كاونتس ان الجهود الطويلة والمضنية التي بذلها في تتبع الحركة العلمية في روسية باللغتين

---

(1) Yesipov, B.P., and Goncharov, N.K., Pedagogy, 1946.
ويقع هذا الكتاب الذي ظهرت طبعته الثالثة في سنة ١٩٤٦ في ٢١ فصلا.

(2) Counts, G.S., and Lodge, Lucia, 'I Want To Be Like Stalin", 1947. The John Day Company, New York.

الانكليزية والروسية لم تنجح في العثور على كتاب يعرض الفلسفة التربوية في الاتحاد السوفياتي عرضا واضحا مثل ما نجحت في العثور على هذا الكتاب المهم . وسنقتطف منه مختارات معينة ذات صلة بغرس الروح الوطنية في الاتحاد السوفياتي من ناحية ، وطريقة تدريس التاريخ من ناحية ثانية . ومما كتبه المؤلفان :

« ان غرس الروح الوطنية السوفياتية في جيلنا الناشيء اعظم واجب من واجبات التربية الخلقية في بلادنا .

« فالقيام بالواجب نحو الوطن هو قيام بالواجب نحو الشعب ، وشعور الفرد بمحبة ارض الوطن هو شعور بمحبة الشعب . لقد ضم الحزب الشيوعي خيرة رجالنا ونسائنا ، وهو الذي يوجه حياة البلاد كلها . فالوطنية السوفياتية تتجلى في محبة الحزب الشيوعي ، والاستعداد الاعظم لخدمة قضية لينين وستالين » . (١) وقد عرف ستالين نفسه الوطنية السوفياتية فقال :

« ان قوة الوطنية السوفياتية تتجلى في انها لا تقوم على العصبيات الرسمية ، ولا على القومية ، وانما على حب الشعب العميق وولائه الشديد الى وطنه السوفياتي - هذا الوطن الذي نعده رفقة اخوية للعمال في كافة شعوب الاتحاد السوفياتي . وتتحد في هذه الوطنية تقاليد شعوبنا ومصالح الحياة العامة لجميع عمال الاتحاد السوفياتي اتحادا منسجما . والوطنية السوفياتية لا تقوم على الفرقة ، بل على توحيد صفوف امتنا وشعوبنا جمعاء في عائلة رفاقية واحدة يتلمس

(١) المصدر السابق ، صفحة ٣٦

الانسان فيها اسس الصداقة الدامية لشعوب الاتحاد السوفياتي التي لا تتزعزع ٠٠٠٠ »

ويبحث الفصل الثالث من كتاب « علم التربية » الآنف الذكر في الوطنية السوفياتية بعنوان : « من اجل وطننا المحبوب » ٠

« وعلى المدارس السوفياتية ان تدرك ان الشعور بالوطنية السوفياتية ينطوي على كراهية شديدة جدا نحو اعداء المجتمع الاشتراكي ٠٠٠ ويتولد عن هذه الكراهية وعي ثوروي طبقي ، وشعور عنيف جدا ضد العدو الطبقي ٠ ان اضعاف هذا الوعي يؤدي الى القضاء على الثورة الاشتراكية ٠ فلا يجدي ان نتعلم كيف نكره العدو حسب ، بل لابد ان نناضله وننازله ، ونزيل القناع عنه في الظرف المناسب ، وفي الختام علينا ان نحطمه اذا أبى الانقياد والاستسلام » ٠ (١)

وتناول المربي الشهير كلاشنكوف سنة ١٩٤٧ في الخطاب الذي القاه عقب المصادقة على « القرارات العقائدية » التي سيأتي ذكرها في محل آخر من هذا الفصل الروح الوطنية فقال :

« وصرح الحزب (اي الحزب الشيوعي) ان اهم واجب يقع على عاتق المدرسة هو غرس الروح الوطنية في الشعوب السوفياتية ، وبعث الغرور القومي ، واحترام الذات ، والقضاء على فلول الضعة التي خلفتها الثقافة الرجعية للبورجوازية الاستعمارية ، وقد طالب الحزب المدرسة ان تغرس في نفوس طلابها فخرا محسوسا بالانجازات العظيمة التي قام بها المجتمع السوفياتي ، وولاءا عظيما الى الوطن ، واستعدادا

---

(١) المصدر السابق نفسه ، صفحة ٦٢

(2) Counts, G.S., and Lodge, Lucia, "The Country of The Blind," P., 268.

للدفاع عن مصالح الدولة السوفياتية وشرفها اذا ما ادلهمت الخطوب . وتتطلب هذه الواجبات من المدرسة ورجال التعليم ان يمعنوا في التوجيه السياسي والعقائدي باستخدام الدروس الصفية واللاصفية ، وان يكون ذلك في داخل المدرسة وخارجها » . (٢)

وقد وصف شيستاكوف A.V. Shestakov في احدى مؤلفاته المدرسية الوطن السوفياتي فقال : « ان الاتحاد السوفياتي موطن الاشتراكية . ولا يوجد على الكرة الارضية الا قطر اشتراكي واحد ، ذلك القطر هو قطرنا الذي هو اعظم قطر في العالم . ففي اقاصي الشمال تجد الجليد الخالد ، وفي اقاصي الجنوب تجد الدفء والحرارة التي تساعد على غرس اشجار البرتقال والليمون، وزراعة الشاي والقطن، ويعد قطرنا اغنى قطر في العالم في موارده الطبيعية . وفيه كل ضروريات الحياة » . والحقيقة ان اكثر الكتب المدرسية المقررة تصف الاتحاد السوفياتي بانه « اوسع قطر في العالم » و « اغنى قطر في العالم » و « اقوى قطر في العالم » و « اكثر الاقطار تقدما في العالم » و « زعيم الانسانية » ، وتصف الاقطار الاخرى بانها اقطار متأخرة ، تحكمها حكومات غير ديمقراطية ، وتسير وفق انظمة رجعية .

وقد قال فلادمير بوتمكين قومسير التعليم في الاتحاد السوفياتي في شهر شباط سنة ١٩٤٣ : « ان هدف المدرسة الادبي والسياسي هو تربية التلاميذ تربية وطنية » . ثم قال : وليس بكاف ان يحب الانسان وطنه بل يجب ان يعد نفسه عن عقيدة صحيحة بان « يموت في سبيله » ، الى ان قال : ان

---

(٢) المصدر السابق نفسه ، صفحة ٥٧

غرس الشعور الوطني هو « اول واجبات معلمنا السوفياتي » . وقد وجهت جميع فعاليات المنهج الدراسي لبلوغ هذه الغاية ، حتى الفنون الجميلة تدرس لتؤدي قسطها في سبيل بث الروح الوطنية . وتتأرج الاناشيد الموضوعة الى الشباب في الاعم الاغلب بروح وطنية عالية . واحب نشيد الى قلوب الطلاب والطالبات هو « نشيد الوطن » الذي وضع سنة ١٩٣٦ . ان كل طفل في الاتحاد السوفياتي يحفظ هذا النشيد الذي ينتهي بهذا الشطر : « لا توجد بلاد يستطيع ان يتنفس فيها الانسان بحرية الا الاتحاد السوفياتي » . (١)

واجتمع في سنة ١٩٤٣ عدد من مربي الروس وكتابهم للنظر في وضع اسس عامة يقوم عليها تأليف كتب خاصة بالاطفال . وذكرت المجلات التربوية السوفياتية ان البحث كان يدور حول الاسس الآتية : ينبغي الا تكون كتب الاطفال فنية ، وصادقة ، وامينة حسب ، بل ينبغي ان تبعث في نفوس الاطفال روح العمل . وتقع على مؤلفي كتب الاطفال مسئولية تربية الجيل الناشىء ، هذا الجيل الذي لابد وان يعيش طوال الحرب الحاضرة (اي الحرب العالمية الثانية) لينال الظفر ، ويضمد وطنه الجريح ، ويساهم في بنائه ، وان اول واجب يقع عليهم هو ان يجعلوا كتب الاطفال وطنية في مادتها الى اقصى ما تذهب اليه الوطنية ، وان تجد مواضيع الشجاعة والبطولة والشعور الوطني السامي والحقد المتقد تعبيرا واضحا فيها . وسميت الحرب العالمية

---

(١) جورج كاونتس ، توجيه العقل الروسي ، ترجمة حسن الدجيلي وهاشم الحلي ، صفحة ٣١ - ٣٢ ، مطبعة التفيض ، بغداد سنة ١٩٤٦ .

الثانية « بالحرب الوطنية الكبرى » . (٢)

ويحتل ستالين ، في التربيـــة الوطنية ، مركزا فريدا في تاريخ روسية . فانك تجد صورته في كل مدرسة ، وتتجسد فيه جميع اعمال البطولة ، وهو مستودع الحكمة والخير ، وله كل الفضل في الانتصارات العسكرية التي احرزها الجيش الاحمر على « الغزاة الفاشيست » ، وان الشعوب السوفياتية قد جعلت حاضرها ومستقبلها وجميع انتصاراتها وانجازاتها مقرونة باسمه . وقد وصفه كتاب التاريخ المقرر في الصف العاشر بانه « زعيم الشعوب السوفياتية ، وواضع الدستور ، والاب البار ، والصديق المحبوب ، الرفيق ستالين » . ويروي كتاب الروس ان الجنود الروس كانوا يخوضون المعارك وهم يرددون « من اجل الوطن ! من اجل ستالين ! » ، اما الحزب الشيوعي فتمجده المدارس السوفياتية ، وتعده باعث الاشتراكية وخالقها ، و « زعيم آبائنا وامهاتنا وعمالنا وفلاحينا في قضائه على حكم القيصر والاقطاعيين والرأسماليين » .

تدريس التاريخ :

وقد ادرك مربو السوفييت ان احسن وسيلة لغرس الروح الوطنية في نفوس الطلاب هو درس « التاريخ » . وتقوم دراسته في الوقت الحاضر على (١) تقديم معلومات علمية دقيقة عن الوطن السوفياتي ، (٢) وتفسير الحوادث تفسيرا سياسيا واضحا يستند الى المادية الدايلكتيكية والمادية التاريخية و (٣) بيان وجهة نظر خصوم الشيوعية

(٢) المصدر السابق نفسه ، صفحة ٣٢

ومهاجمتها هجوما عنيفا .

وينبغي ان يكون مدرس التاريخ عالما بالمادية الجدلية والمادية التاريخية ، لانهما عدته في تفسير الحوادث التاريخية . ولا يفسر التاريخ الحديث وحده تفسيرا جدليا ، بل يفسر التاريخ القديم وتاريخ القرون الوسطى على هذه الصورة ايضا . ويقول مربو الروس ان هذين التاريخين يضمان حقائق تاريخية مهمة ، فحينما تنظم تنظيما جيدا ، وتربط ربطا علميا ومنطقيا تقدم الى الاتحاد السوفياتي اسسا علمية جديدة ، وقواعد ثابتة من حيث هو مقولة اجتماعية مشروعة في تاريخ العالم .

ويرون ان قانون التطور للمجتمع الانساني نقطة الابتداء في تدريس التاريخ القديم باعتباره الاساس العلمي للمادية التاريخية ، وان على المعلمين ان يوضحوا لطلابهم اصل المجتمع الابتدائي ومراحل نشوئه بانتقاله من النظام الاجتماعي الابتدائي ، ثم انحطاطه ، وظهور الملكية الخاصة ، وظهور التفاوت الطبقي ، وتكوين الدولة ، واخيرا بنمو نظام الرق من حيث هو اول صورة من صور استغلال الانسان لاخيه الانسان . وعلى المعلمين ايضا ان يتناولوا دراسة نظام الرق ، ويشيرون الى ثورات الارقاء وثباتهم في جميع اقطار الشرق والامبراطورية الرومانية ، وينبغي ان يوضحوا ، بالامثلة المحسوسة وبالمقارنة والتحليل ، ان مؤرخي الاقطار الفاشيستية يحاولون عبثا ان يجعلوا الملكية والدولة القائمة على الرق مثلا اعلى في التنظيم . فهذا المثل الأعلى يناقض ، كما يقولون ، الحقائق التاريخية ، وان مصير هذه المحاولة الانتكاسية مقرون بالفشل حتما . (١)

(1) Shore, Maurice., Soviet Education, P., 209.

ويقول مؤلفا « علم التربيـــة » الذي سبقت الاشارة اليه ان للتاريخ « اهمية خاصة في تثقيف الجيل الناشىء بالشيوعية » . ويذكرا ان دراسة الماضي تقدم الى الاطفال « صور الاستغلال والتعسف والتأخر ، واذلال العمال في ظل الاوتوقراطية القيصرية ... وتجعلهم يدركون انجازات الثورة الاشتراكية ، والمعارك البطولية التي خاضها آباؤهم واجدادهم في سبيل حريتهم ... وتبعث فيهم شعورا بضرورة الدفاع عن انجازات الثورة وثمرات النصر التي احرزهـــا الجيش الاحمر على اللصوص الفاشيستيين ... ورغبة في مواصلة عمل آبائهم « تغرس في نفوس الاطفال مثالية عليا ومحبة شديدة نحو مصالح الشعب العامل ، ومقارعة القوى الرجعية ، وتوقد عزما وشجاعة وبســالة في الكفاح من اجل مثل الانسانية الأعلى ـ من اجل الشيوعية » . فالتاريخ يساعد الشباب على ان يدركوا الـــدور التاريخي العظيم الذي قام به الحزب البولشفيكي في النضال من اجل تحرير عمال قطرنا الذي يتألف من عـــدة قوميات من الاستغلال والتعسف ، والاضطهـــاد القومي والديني » . كما ان دراسة التاريخ تبعث في نفوس الاطفال « محبة عميقة للقـــادة العباقرة الذين تزعموا الثورة البروليتارية امثال لينين وستالين » . فقد كافح هذان الزعيمان « جميع اعداء الشعب ، وقطفا لقطرنا ثمار الاشتراكية » . (١)

واعيد النظر في تأليف كتب التاريخ المقـــررة في المدارس ، واحتل ماضي روسية منزلة عظيمة . ولم يعد الكتاب يصورون ماضيها القديم ، اي تاريخها قبل الثورة ، تصويرا قاتما مغبرا ، بل على العكس ،

(1) Counts, G.S., and Lodge, Lucia, I Want To Be Like Stalin, P., 7—8.

فقد اخذت كتب التاريخ الجديدة تذكر انجازات عظيمة ، وتقدم شخصيات شهيرة في كل صفحة من صفحاتها تقريبا . وفي الوقت الحاضر لم يحذف من كتب التاريخ اسم شخص، سواء أكان ذلك قيصرا ام فلاحا ، اذا ثبت انه قد ساهم في نشوء المدنية الروسية مساهمة كبيرة وزاد في قوة الامبراطورية ، وسواء أكان من القادة او الجنود او المكتشفين، او الثوريين، او الادباء، او الفنانين، او المعلمين، او العلماء الطبيعيين : اقول لم يحذف اسم احد سوى تروتسكي : وبوخارين ، وزينوفيف الذين كانوا من معارضي زعامة ستالين . وقد وضع اسم ايفان الفظيع في قاعة الابطال ، وجاء ذكره في كتاب « تاريخ الاتحاد السوفياتي » المطبوع سنة ١٩٣٧ والمقرر الآن في الصف الثامن بالعبارة الآتية : « توفى ايفان بعد حرب ١٥٨٤ بعام واحد . لقد كان ايفان رجلا موهوبا وحكيما ، ومثقفا في زمانه ، احب وعرف كيف يكتب . وكان متوقد الذهن ، فوضع اهدافه السياسية ، الداخلية منها والخارجية ، وضعا صحيحا ، وطبقها بثبات وصبر . اما ادراكه ضرورة السيطرة على شواطيء بحر البلطيق فينم عن خيال خصب ونظر ثاقب » . (١)

ويقدم مربو الاتحاد السوفياتي في كتبهم المدرسية وغير المدرسية الى الاطفال والشباب والكهول صورا قاتمة عن العالم الخارجي الذي يحيط بهم ، ويحسبونه مجموعة من اقطار فاشيستية تساعدها دول

(١) جورج كاونتس ، توجيه العقل الروسي ، ترجمة : حسن الدجيلي وهاشم الحلي ، صفحة ٣٠ ، مطبعة التفيض ، بغداد ، سنة ١٩٤٦

رأسمالية غرضها تطويق الوطن السوفياتي ، وتقويض دعائمه ، ويزرعون في نفوس ابنائهم وبناتهم روح الكراهية والعدوان نحو النظم السياسية الاخرى ، ويشعرونهم بان الجيش الاحمر قادر على مواجهة الطوارىء وانزال الضربات بالمعتدين الآثمين . ويقول مؤلف كتاب « تاريخ الاتحاد السوفياتي » الآنف الذكر « ان العمال والفلاحين والطبقات المثقفة في الاقطار الاخرى يكوّنون الآن جبهة متحدة متزايدة للكفاح ضد المؤامرات الفاشيستية لمهاجمة الاتحاد السوفياتي » .

اعداد القادة :

في الاتحاد السوفياتي منظمات « خاصة » لاعداد نخبة من الشباب لعضوية « الحزب الشيوعي » ومدارس اخص لاعداد الصفوة المختارة التي تتسلم مراكز القيادة والادارة والتوجيه . فمن المنظمات الخاصة جميع منظمات « الاوكتوبريين » (١) التي تضم الاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين ٦ ـ ١٤ سنة ، و « الرواد » التي تضم الشبان الذين تتراوح اعمارهم بين ١٠ـ١٧ سنة ، و «عصبة الشباب الشيوعي» (او الكومزومول Komsomol) التي ينخرط فيها الشباب الذين تتراوح اعمارهم بين ١٤ ـ ١٣ سنة .

ولا يقبل الطالب في هذه المنظمات الا بعد اختبار طويل . ويحق للشاب ان ينتمي الى الحزب الشيوعي متى ما بلغ الثامنة عشرة من العمر . وتتم في هذه المنظمات تربية الشبان تربية سياسية ، فيتفهمون معنى الحياة الجديدة ، ومعنى كفاح البروليتاريات ، واهمية فلسفة لينين ،

(١) نسبة الى اكتوبر شهر الثورة الشيوعية (١٩١٧) .

ويدربون على وجوب مساعدة العمال والفلاحين اذا اقتضت الحاجة وفي حدود قابلياتهم الخاصة ، كما يدربون على الانضباط والطاعة ، ويدرسون طبيعة النظام الرأسمالي وحقيقة الطبقة البورجوازية درسا صحيحا ، ويتفهمون الاخطار التي تنطوي عليها ، ويعدون العدة لسحقها ، ويتدربون تدريبا رياضيا تمهيدا للخدمة العسكرية . ولا يتقرر قبول الشاب في منظمة « الرواد » او « عصبة الشباب الشيوعي » الا بعد دراسة طويلة لاختيار احسن العناصر واقدرها على الكفاح ، واكثرها طاعة وايمانا وعزما . ولا يقف الامر عند حسن الاختيار والقبول ، وانما تجري بين حين وآخر حركات « تطهيرية » مستمرة في هذه المنظمات من اجل الاحتفاظ بالصفوة المختارة ، من الزمرة الثورية المؤمنة بالفلسفة الشيوعية ايمانا لا يتزعزع .

وقبل ان يلتحق الشباب بمنظمة « **الرواد** » **يؤدي قسما معينا امام هيئة تتألف من اعضاء « الحزب الشيوعي » ومن المنظمة نفسها** . وهذا نصه :

« انا الرائد الشاب للاتحاد السوفياتي ، اقسم بخشوع امام رفاقي ان (١) اؤمن ايمانا راسخا بقضية الطبقة العاملة في كفاحها من اجل تحرير عمال العالم وفلاحيه كافة ، و (٢) وانفذ بكل صدق واخلاص وباستمرار وصايا لينين وقوانين الرواد الاحداث وانظمتهم » .

ويضم « الرواد » ميثاق عام يتلخص في النقاط الآتية :

١ - ان الرائد مؤمن بقضية الطبقة العاملة وبتعاليم لينين .

٢ - وانه الاخ الاصغر والرفيق المساعد الى الكومزومول والشيوعيين .

٣ - وانه « رفيق » الرواد ، ورفيق اطفال عمال العالم وفلاحيه .

٤ - وانه ينظم اطفال المنطقة ويساهم في حياتهم الاجتماعية . وهو مثال صادق لجميع الاطفال .

٥ - وانه يسعى سعيا حثيثا في الحصول على المعرفة . فالمعرفة والمهارة قوتان كفاحيتان عظيمتان من اجل قضية العمال .

وتقدر نسبة الذين ينتمون الى هذه المنظمات بـ ٢٠ بالمائة من مجموع الشبان الذين هم في هذا السن . وقد بلغ عدد الذين التحقوا في « جمعية رواد الشباب » ١٢ مليون طالب وطالبة ، وعدد الذين انتموا الى « عصبة الشباب الشيوعي » سبعة ملايين شاب وشابة . وتتصل كل هذه المنظمات اتصالا وثيقا بالحزب الشيوعي .

اما اعداد موظفي الحزب والقادة فيتم في ثلاثة مراحل مختلفة في نوع المناهج وعدد السنين . وقد ذكرت احصائية سنة ١٩٤٧ ان في الاتحاد السوفياتي حوالي ١٧٧ مدرسة حزبية تتراوح مدة الدراسة فيها من تسعة اشهر الى سنتين ، وتضم اكثر من ٣٠ الف شاب وشابة . وتنحصر مهمة هذه المدارس في اعداد الشباب لملء الوظائف الصغيرة الشاغرة في « الحزب الشيوعي » ، ويتألف اكثر هؤلاء من عمال المطابع والكومزومول . وتتكون المرحلة الثانية من « مدارس الحزب العليا » ، ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ، ومهمتها اعداد موظفين وقادة لمراكز الحزب المهمة . وقد بلغ عدد الطلاب في هذه المدارس سنة ١٩٤٧ قرابة الف طالب وطالبة . اما المرحلة الثالثة فتؤلف « اكاديمية العلوم السياسية » ومهمتها « اعداد عمال نظريين الى مؤسسات الحزب المركزية ، واعضاء في اللجان المركزية للاحزاب الشيوعية في جمهوريات الاتحاد ، وفي لجان الحزب في مراكز الالوية والمقاطعات .

وكذلك من مهمتها اعداد اساتذة قديرين الى المعاهد الفنية العليا والجامعات ، وعمال نظريين الى المؤسسات العلمية للابحاث والى المجلات العلمية » .

ان اهتمام الاتحاد السوفياتي بنظام مدارس الحزب الشيوعي وبتأسيس « اكاديمية العلوم السياسية » يبين لنا اتجاه السوفييت في سياستهم الداخلية والخارجية ، ويبين لنا قوة الحركة العقائدية ورغبتها في النمو والتوسع . ولا تظهر قوة هذه الحركة العقائدية في المنظمات المدرسية ومدارس الحزب والحزب نفسه حسب ، بل تظهر ايضا في السيل الجارف من المنشورات والمطبوعات الشيوعية التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية . فما ان انسلخت سنتان منها حتى طبعت كثير من الكتب الكلاسيكية في اصول الماركسية واللينينية ، وبلغ عدد ما طبع منها اكثر من تسعة ملايين نسمة ، وبلغ عدد ما طبع من كتاب « تاريخ الحزب الشيوعي للاتحاد كافة » وحده وفي المدة نفسها عشرة ملايين نسخة .

القرارات العقائدية

لقد كان « للقرارات العقائدية » التي وافقت عليها « اللجنة المركزية » للحزب الشيوعي في شهري آب وايلول من سنة ١٩٤٧ صدى عظيما في الاوساط الثقافية وتأثيرا بليغا في المدارس العامة . وكان الهدف من وضعها ضمان سيطرة « الحزب الشيوعي » على المؤسسات العلمية التي تتصل بالآداب والعلوم والتمثيل والصحافة والفنون والموسيقى والسينما وعلى المدارس من جهة ، وشن حملة شعواء على « الثقافة البورجوازية » في اقطار غربي اوروبا ، وتمجيد

الحياة السوفياتية من جهة ثانية . وقد توجت هـذه السيطرة العقلية بتأسيس « جمعية نشر المعارف السياسية والعلمية للاتحاد السوفياتي كافة » في سنة ١٩٤٧ التي دعت الى تطبيق « القرارات » دعوة منظمة في طول البلاد وعرضها واضرام نيران الحرب العقائدية ، واستخدمت كل وسيلة من وسائل النشر والتسلية لتحقيق هذا الهدف ، من ذلك « الفكاهة » والتقويم الرسمي .

وقد وجه مؤسسو هذه الجمعية نداءا حارا الى جميع رجال الادب والعلم وعلماء النفس ، والى جميع المنظمات السياسية والاجتماعية وغيرها للمساهمة في الدعوة . ومما جاء في هذا النداء :

« نطالب جميع قادة الحركات العلمية والثقافية في الاتحاد السوفياتي ان يزيدوا في نشاطهم للنهوض بالوعي الاشتراكي للعمال ، وان يوضح اعضاء هذه الجمعيات ، بالمحاضرات العامة ، سياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية ، وان يخلعوا النقاب بجرأة عن دعاة الحرب الجديدة واصحاب النزعات العدوانية ، ويظهروا زيف الديمقراطية ونواقصها ، ويزيلوا الستار عن الحقيقة الرجعية للعقائد البورجوازية الاستعمارية المعاصرة وعن اذنابها من دعاة الاصلاح ، وان يبينوا في سير محاضراتهم محاسن النظام السوفياتي وافضليته على النظام الرأسمالي ، ونجاح الاتحاد السوفياتي في التنظيم الاقتصادي وفي الانجازات العلمية والادبية والفنية ، وفي الواجبات الملقاة على عاتق الشعوب السوفياتية ... » وفي هذا النضال العقائدي الذي بدأ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ساهمت الصحافة مساهمة فعالة لاسيما بعد ان وجه « الحزب الشيوعي » سنة ١٩٤٨ انتقادات عدة الى الصحافة

السوفياتية ، وطلب منها المساهمة في المعركة العقائدية الدائرة في العالم . فقد قررت « مديرية الدعاية والاثارة Agitation للجنة المركزية في الحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي كافة » عقد مؤتمر صحافي لهذا الغرض ، وفي شهر مايس من السنة نفسها (١٩٤٨) عقد مؤتمر في مدينة موسكو اولا ، ثم اخذ يتنقل في جميع عواصم الجمهوريات لتوسيع جبهة النضال العقائدي في الاتحاد السوفياتي . وقد القى الرفيق الشيف Ilckev وكيل مدير الدعاية كلمة افتتاحية اشار فيها الى اهمية الصحافة البولشفية التي اسسها لينين وستالين ، والدور الذي قامت به في النضال الثوروي . ولا غرو ، فقد صرح ستالين : ان الصحافة امضى سلاح من اسلحة الحزب .

اما في المدارس العامة فقد عقدت عدة اجتماعات وتشكلت عدة جمعيات في طول البلاد وعرضها بعد تسعة اشهر من تصديق « القرارات العقائدية » لبحث حالة المعارف في ضوء هذه القرارات . وفي احدى اجتماعات « اكاديمية العلوم البيداكوجية » سنة ١٩٤٧ القى الرفيق كيروف I.A .Kairov رئيس الاكاديمية خطابا جاء فيه : « تطلب اللجنة المركزية من جميع العمال الذين يعملون في الجبهة العقائدية ، ومنهم عمال العلوم البيداكوجية (التربوية) ان يدركوا بانهم قد وضعوا في خطوط النار الامامية » .

ولم يقتصر الامر على ذلك بل عقد المعلمون ، بامر من السلطات المسئولة ، عدة اجتماعات ومؤتمرات لوضع الخطط اللازمة لتنفيذ السياسة السوفياتية ، واستخدام الدروس في تلقين الطلاب طائفة من المعلومات العقائدية لترسيخ المبادىء الشيوعية من جهة ، وتقويض

الاسس الاجتماعية والاقتصادية التي تقوم عليها الديمقراطية الغربية من جهة ثانية . ولم تشذ عن هذه القاعدة حتى دروس علم النفس والتربية . فقد كتب احدهم يقول : ان تكوين النظرة العالمية الصحيحة التي تنشدها الشيوعية تتطلب معلومات علمية عن علم النفس ، لانها من مستلزمات مكافحة الطرق المثالية والاساليب التربوية السقيمة التي تسير عليها الديمقراطية الاجنبية .

هذا في علم النفس ، اما في تاريخ التربية فيؤكد الكاتب انه من من الضروري ان يقدم الاستاذ صورة واضحة عن آخر التطورات التربوية التي حدثت في الاقطار البورجوازية المعاصرة ، وان يبين ان معظم قادة النظريات التربوية المعاصرة من الامريكيين والاوروبيين يخدمون اغراضا سياسية رجعية تحت ستار « الموضوعية » و « الطريقة العلمية » و « حب الطفل » .

* * *

وختاما اورد فقرات من الخطاب الذي القاه الرفيق كلاشنكوف وزير معارف جمهورية R.S.F.S.R واحدى مشاهير المربين في « جمعية نشر المعارف السياسية والعلمية للاتحاد كافة » وذلك في اليوم الرابع والعشرين من شهر تشرين الاول سنة ١٩٤٧ لما يتضمن من اتجاهات عقائدية وتربوية مهمة : (١)

« لقد اصبح الاتحاد السوفياتي مركز ثقافة تقدمية اشتراكية ، وقبسا ينير طريق الدول والشعوب الاخرى ، وتحققت نبوءة بيلنسكي

(1) Counts, George S., and Lodge, Nucia, "The Country of The Blind," P., 262.

النقاد الروسي الشهير حينما تطلع الى مستقبل روسية في سنة ١٨٤٠ وكتب : « اننا نغبط احفادنا الذين سيشاهدون روسية سنة ١٩٤٠ وهي في طليعة العالم المتمدن ، تشرع له القوانين في العلوم والفنون، وتنال احترام كافة المثقفين » .

« ولاول مرة في تاريخ الانسانية يصبح التعليم عاما يتمتع به جميع الناس ، ويطمن حاجاتهم قاطبة .

« والتربية ، كما ذكر الرفيق ستالين الى ويلز H.G. Wells في مقابلة له ، سلاح . ولا ينتفع بهذا السلاح الا من يحسن استعماله، والا من يحسن التسديد به نحو الهدف المطلوب . ففي المجتمع الرأسمالي تصبح المدرسة سلاح يستخدمه البورجوازيون في استعباد العمال من الناحية العقائدية ولتثبيت كراسي الحكم . وحقيقة الحال ان البورجوازية تحرم الجماهير العاملة من التعليم ، ولا تعطيهم منه الا القدر الذي لا يهدد مصالحها ....

« ان قادة الفكر في البورجوازية ورجال الحكم يسعون دائما الى طمس معالم الطبيعة الطبقية للمدرسة ، واهميتها في التوجيه السياسي ، ويتسترون وراء احاديث طويلة عن (حياد) التربية و (صفتها العامة) ، ويظهرون سخطهم نفاقا على موقف الماركسية اللينينية في صلة المدرسة بالسياسة . وقد ردد الحزب الشيوعي ترديدا واضحا وقويا صوت لينين : (ان المدرسة بعيدة عن الحياة ، بعيدة عن السياسة اكذوبة ورياء) . اما ماركس فقد كتب : « يدرك اكثر المثقفين من طبقة العمال ادراكا جيدا ان مستقبلهم وبالتالي مستقبل الانسانية كله يتوقف على تربية الجيل الصاعد » .

« وبتثقيف الجماهير الغفيرة من العمال والفلاحين ، وبتربية الشباب بالروح الشيوعية اصبحت مدرستنا السوفياتية اداة من ادوات الثورة الثقافية ـ اداة لخلق مجتمع شيوعي جديد .

« والتربية السوفياتية، بمحتوياتها العقائدية وبطرائقها وتنظيماتها ، هي من صنع الحزب الشيوعي » .

وبعد ان استعرض الرفيق كلاشنكوف في خطابه تاريخ نشوء التربية السوفياتية اثناء السنوات الاولى من سني الثورة تناول اهداف التعليم ومقوماته الفلسفية فقال :

« ان اهداف المدرسة السوفياتية وواجباتها التي تقرر مادتها وتنظم العمل فيها وضعها الحزب في منهج خاص اقره المؤتمر الثامن في سنة ١٩١٩ . فقد جعل الحزب نصب عينيه مواصلة العمل الذي قامت به ثورة اكتوبر ، وهو نقل المدرسة التي كانت سلاحا بيد الطبقة الحاكمة في الدولة البورجوازية الى سلاح بيد البروليتاريات تستخدمه في القضاء التام على الانقسام الطبقي في المجتمع ، او الى سلاح لخلق مجتمع شيوعي جديد .

« ولاول مرة فرضت على المدرسة وظيفة اصلاحية عظيمة ، واهتمت بتربية الانسان الجديد كيما يتحرر من العبودية التي يورثها المجتمع الرأسمالي . ولكي تؤدي التربية هذه الوظائف صار لزاما عليها ان تعد طلابها اعدادا شاملا ، وتجعلهم عقليين ومثقفين ، يحملون وجهة نظر علمية ـ مادية ، ويتصفون بخلق شيوعي .

« وصار لزاما عليها ان تكون عنوان المباديء الشيوعية تحف بها جماهير السكادحين من كل حدب وصوب ، واداة البروليتاريات

وطليعتهـا (الحزب الشيوعي) في احداث التأثيرات التربوية في اوساط اشباه البروليتاريات . ولم ينظر الحزب الى المدرسة من حيث هي مؤسسة تربوية تدور حول نفسها ، بل من حيث هي مركز لنشر العقائد الشيوعية والخلق الشيوعي خارج المدرسة ، وقبل كل شيء داخل العائلة .

« وبنمو الدولة السوفياتية وتقدمها تبلورت المباديء التي سيطرت على تربية الجيل الصاعد ، وصارت منذ بداية ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى مادة المدرسة السوفياتية . ولقد نمت هذه المباديء وانتشرت واصبحت محسوسة ملموسة . وكانت مؤلفات لينين وستالين الكلاسيكية الاساس النظري للعلوم التربوية السوفياتية ـ علوم سوفياتية جديدة لتربية الاطفال » .

وبعد هذا اوضح الرفيق كلاشنكوف في خطابه النمو العظيم الذي رافق المدرسة السوفياتية ، وبيّن الكفاح العقائدي الذي ساير هذه الفترة وصلة ذلك بعظمة ستالين وافول نجم تروتسكي ، واشار الى الدور المهم الذي قامت به اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في النظريات التربوية السوفياتية ، وتناول بعدئذ « القرارات العقائدية » فقال :

« والآن ، وبعد ان اخذت بلادنا تنجز خططها الجبارة في اعادة تنظيم اقتصادياتها وانمائها فان القضايا المتعلقة بتعليم الشبان وتربيتهم تربية عقائدية ما زالت تسترعي انتباه الحزب والناس قاطبة » ..

وبعد ان تناول غرس الروح الوطنية ، كما اشرنا الى ذلك في صفحات سابقة ، اخذ يقارن بين المدرسة السوفياتية الجديدة

والمدرسة الروسية القديمة ، وبدأ يستعرض الدور الذي تقوم به الوكالات غير المدرسية في التربية العقائدية ، وخاصة منظمات الرواد وعصبة الشباب الشيوعي ، ثم خص القسم الاخير من خطابه بالمعلم والمدارس الخاصة بتعليم الراشدين في المدن والارياف ، ورياض الاطفال والحضانة وغيرها ، وفي خاتمته هاجم نظم التعليم في الاقطار الديمقراطية وقال : « لا تكون المدرسة ديمقراطية وانسانية حقا الا في الاتحاد السوفياتي » .

* * *

هذه هي الشيوعية ، وهذه هي عقائدها التربوية . فلماذا لا يتقبلها الاحرار الديمقراطيون ؟ لقد ذكر برتراند رسل في كتابه « التربية والنظام الاجتماعي » المطبوع قبل الحرب العالمية الثانية : « واذا استمرت العقيدة الماركسية تنفث سمومها ، كما هو شأنها اليوم ، فستصبح كلما مر الزمن عقبة كأداء في سبيل التقدم » . وكتب اندره جيد الكاتب الفرنسي المشهور اثر عودته من زيارة الاتحاد السوفياتي قبل الحرب العالمية الثانية في كتابه « عودة من الاتحاد السوفياتي » يقول :

« وتوجد في رأيي اشياء اكثر اهمية من نفسي ، واكثر اهمية من الاتحاد السوفياتي . هذه الاشياء هي : الانسانية ، مستقبلها وثقافتها » .

مراجع البحث الاساسية

1 — Counts, George S., and Lodge, Nucia, "The country of The Blind, The Riverside Press, Cambridge. U.S.A., 1949.

2 — Coutns, George S., and Lodge, Nucia, "I Want To Be Like Stalin," New Jork, 1947.

3 — Hans, Nicholas, Comparative Education, The International Library of Sociology and Social Reconstruction, London, 1949.

4 — Maxey, Chester, Political Phlosophies. Revised Edition, New York, The Macmillan Company, 1948.

5 — Monroe, Paul, Essays in Comparative Education, Vol. II, New York City, 1932.

6 — Russell, Betrand, Education and the Social Order, London 1947.

7 — Selections from The Encyclopedia of Social Sciences, New York, 1937.

8 — Shore, Maurice J., Soviet Education, Its Psychology and Philosophy, Philosoplical Library, New York, 1947.

المراجع العربية :

١ ـ عبدالفتاح ابراهيم ، دراسات في الاجتماع ، مطبعة الرابطة ، ١٩٥٠

٢ ـ حسن الدجيلي وهاشم الحلي (ترجمة) ، توجيه العقل الروسي، بقلم جورج كاونتس ، مطبعة النفيض ، بغداد ١٩٤٦

٢- الدولة النازية

أو

الفاشيستية الالمانية

سميت الدولة الالمانية بعد تسنم النازية مقاليد الحكم سنة ١٩٣٣ « بالرايخ الثالث » . اما « الرايخ الاول » فقد نشأ في سنة ١٨٧١ حينما اتحدت الولايات الالمانية الصغيرة والمتعددة في دولة واحدة بزعامة بروسية . ومع ان نظام الحكم في « الرايخ الاول » كان ملكيا دستوريا الا ان السلطة الحقيقية كانت محصورة بيد القيصر . وقد قطعت الدولة الالمانية الاتحادية شوطا بعيدا في المضمار الحضاري لاسيما بعد ان اصبح بسمارك مستشارا للرايخ ، وتقدمت تقدما عظيما في ميادين الصناعة والسياسة والعلم ، واحتلت الامبراطورية الالمانية منزلة عظيمة بين دول اوروبا . وطغت عليها الروح العسكرية البروسية ، ونزعت الى السيطرة والتوسع ، وانتشرت كتابات هيكل وفيشته بين طبقات الشعب الالماني ، ومجدت الدولة من حيث هي قوة عضوية تستطيع ان تضمن للالمان مستقبلا زاهرا . ولم تستطع ان تترك كتابات شيللر Sheller وغوته Goethe وهاينه Heine الانسانية الاممية ، في لجة هذا الطغيان العسكري البروسي والتنظيم الاقطاعي ، اثرا مهما في توجيه المجتمع الالماني .

نشوء الرايخ الثاني :

ان الإندحار الذي منيت به الجيوش الالمانية بعد الحرب العالمية

الأولى (١٩١٨) عجل في وقوع ازمة داخلية في المانيه استمرت مدة غير قصيرة بالرغم من الاصلاحات الدستورية السريعة التي قام بها القيصر . فقد اندلعت الثورات المحلية ، وانتشرت الاضرابات انتشارا سريعا بين السكان ، وتمرد العمال والجنود ، واستطاعت « مجالسهم » الخاصة الشبيهة بمجالس السوفييت الروس سنة ١٩١٧ ان تتسلم مقاليد الحكم بقيادة الاشتراكيين المستقلين (الجناح الرديكالي) . الا ان هذه الازمة الثورية المفاجئة قد سببت انقساما في صفوف الالمان الاشتراكيين ، وتكونت فئات متعادية . فقد كانت العناصر المتطرفة تطالب باقامة ديكتاتورية العمال وتأميم المرافق الاقتصادية تأميماً آنياً ، بينما كان « الديمقراطيون الاجتماعيون » يطالبون بانتخابات حرة وبنظام برلماني حديث وباصلاح اقتصادي تدريجي . وفي الوقت الذي كانت الحكومة الاشتراكية الموقتة تعمل على استتباب الامن اشتد النضال الدموي بين حزبين من هذه الاحزاب ، وانهارت الحركة اليسارية المتطرفة باغتيال زعيمها كارل ليبنخت Liebnecht وروزا لكسمبورغ ، وتنفس الديمقراطيون الاجتماعيون الصعداء . وفي سنة ١٩١٩ جرى انتخاب اعضاء المجلس التأسيسي الذي وضع دستور فايمر Weimer المعروف ، وحصل الشعب الالماني على دستور ديمقراطي جديد ، وحققت جمهورية فايمر للامة الالمانية قسما من حريتها ، وتغلبت على بعض المشاكل الداخلية والخارجية ، واعادت المانية الى حضيرة الدول الكبرى . « ولكن ظهر ان مشاكل الحكومة الداخلية لم تقهر . فقد تضاربت الاصلاحات التشريعية مع حقوق الملكية ذات الجذور العميقة ، ومع العناصر الملكية ، ومع روح

المحافظة الدينية ، وحاولت الحكومة ان تجد حلولا ترضي بها اصحاب اليمين واصحاب الشمال ، فلم تستطع ان ترضي طرفا منهما ، ولم تجن الا العداوة والبغضاء . وبالرغم من المساعدات الاجنبية السخية فقد ظلت الامة الالمانية ترزح تحت وطأة ظروف ما بعد الحرب العالمية الاولى ، وساءت احوالها كثيرا ، وانعدمت مصادر قوتها . وكان يخيم فوق هذه التجربة السياسية جو الهزيمة الخانق الذي برزت فيه معاهدة فرساي اقرب مثال مرير للنفوس » . (١)

ولم تستطع المانيا ان تسير سيرا مطردا في مثل هذه الاجواء الملبدة بالمشاكل والهزائم والجراحات المثخنة بالدماء والعرق والدموع ، فسرعان ما داهمتها ازمة ١٩٣٠ الاقتصادية التي غمرت العالم كله ، فتحطمت آمالها ، وانهارت معنوياتها ، فلم تعد ترضى باصلاح تدريجي ، ولم تعد تؤمن بالزعامة السياسية القائمة ، بل اخذت تتطلع الى قوة سياسية جديدة ، تتمثل في شخوص سياسية ثائرة حانقة .

نشوء الرايخ الثالث :

لقد تعرض « الديمقراطيون الاجتماعيون » الى معارضة يسارية ويمينية شديدة . اما المعارضة اليسارية فقد كانت تنبعث من الشيوعيين المتطرفين الذين سيطروا على جبهة العمال ونالوا في انتخابات سنة ١٩٢٨ ثلاثة ملايين صوت ، وفي انتخابات سنة ١٩٣٠ اربعة ملايين ونصف صوت . واما المعارضة اليمينية فقد كانت تنبعث من عناصر اليمين المتطرفة المتمثلة في الحزب الوطني الاشتراكي الذي

(1) Wasserman, Louis, Modern Political Phlosophies, P., 195.

أسسه ادولف هتلر . وكان هذا الحزب يستمد معونة كبيرة من رجال المال والاعمال ، ومن الطبقة الوسطى ، ومن الموظفين والفلاحين والشباب المثقف العاطل. وقد نال مساعدات مالية كبيرة من شخصيتين شهيرتين : من كروب Krupp وتيسن Theyssen . واتسم منهاج الحزب بطابعين : طابع اقتصادي اشتراكي وطابع سياسي قومي . وفي سنة ١٩٣٠ احرز الحزب الوطني الاشتراكي (النازي) انتصارات عظيمة نتيجة الازمة الاقتصادية العالمية . اما في الانتخابات التي جرت في اليوم الثلاثين من شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٣ فقد احرز انتصارات كاسحة ، دعت الرئيس هندنبورغ الى ان يستدعي زعيم الحزب ادولف هتلر لتأليف الوزارة . وبموت الرئيس هندنبورغ في شهر آب سنة ١٩٣٤ اعلن هتلر نفسه رئيسا للحكومة والدولة معا . وشرع بالقضاء على الاحزاب المعارضة ، والغى نقابات العمال ، وعطل الحريات السياسية الديمقراطية ، ونظم الشعب الالماني تنظيما « كليا » في دولة نازية « كلية » . ومنذ ذلك الحين دخلت المانية في عهد « الرايخ الثالث » .

وقد نجحت النازية في المانية اكثر مما نجحت الفاشيستية في ايطاليا . وسبب ذلك ان الالمان ينصاعون الى حكوماتهم ، وتستهويهم العقائد المبهرجة . فالحركات الثورية التي عقبت الحرب العالمية الاولى كانت جميعا تتصف بخصائص مشتركة ، لا في طبيعتها الكلية حسب ، بل في اسسها الفلسفية - هذه الاسس التي تتصل اتصالا

تاريخيا بالمدرسة المثالية الالمانية (١) . واذا اردنا ان نفسر ذلك في المنطق الهيكلي تصبح الاشتراكية في روسية « مسألة » ، والفاشيستية في ايطاليا « نقض المسألة » والوطنية الاشتراكية في المانية « حل المسألة » فقد غرست نظرية حرب الطبقات الماركسية ، التي تقسم المجتمع تقسيما افقيا ، على اسس قومية ممثلة في الشعب الايطالي من حيث هو مجموعة من جماهير بروليتارية تضطهدها افكار رأسمالية . اما في المانية فان نظرية حرب الطبقات قد غرست باتجاهات عمودية وافقية معا ، ونظر الشعب الالماني الى نفسه من حيث هو شعب تضطهده طبقة بورجوازية ذات اصل اجنبي .

وكانت نقطة الانطلاق في العقائد السياسية الجديدة روح فيشته الصادقة وايمانه العميق برسالة الشعب الالماني التاريخية ، واعتقاده بصلاح الاقتصاد القومي الشعبي . هذا من جهة ، اما من الجهة الثانية فان نظرية هيكل عن قيمة الدولة المطلقة التي تتعدى حقوق الافراد اعطت النظام النازي سندا قويا لفلسفته « الكلية » . ولولا نظرية « الرس » التي جاء بها النازيون لما حصل اختلاف جوهري بين النازية والفاشيستية .

وكانت المانية ، النازية كايطاليا الفاشيستية ، ديكتاتورية « كلية » في نظرياتها السياسية واساليبها الحزبية ، حتى لقد اصبح كثير من

---

(١) راجع الفصل الثاني (النظرية الرسية النازية) من كتاب :
Hans, Nicholas, Comparative Education.

الناس يعتقدون خطأ ان النازية ليست الا تقليدا ناجحا للفاشيستية . (١)

وليس بمستبعد ان يكون النازيون قد استعاروا قدرا من النظريات الايطالية الكلية ، ولكنهم على كل حال لم يكونوا بحاجة الى مثل هذه الاستعارة . « ان كل عنصر مهم من عناصر الفلسفة النازية واساليبها كان قائما في المانية ولم يستورد من الخارج . فقد كان الوطن الالماني منذ اكثر من قرن كامل يغذي الناس بآراء وتعابير سياسية تناسب النازيين كل المناسبة . يضاف الى ذلك ان مقدار ما استعارته النازية من الفاشيستية كان اقل جدا من المقدار الذي اضيف اليها » . (٢)

فيشته ـ الرسول الاول :

والنازية كالفاشيستية صورة من صور التنظيم القومي ، بل مرحلة انتكاسية من مراحل تطور القومية التحريرية ، وحركة سياسية مستقلة في فلسفتها وتطبيقاتها العملية ، وتمتد جذورها في تربة قومية المانية . ويعد فيشته اعظم داعية من دعاة القومية . فحينما فقدت المانية استقلالها

(١) كانت العقائد النازية قد بحثت واستقرت قبل مجيء النازية للحكم ، بينما لم تكن الفاشيستية كذلك . فقد كتب غوتفريد فيدلر Fedler كتابه في « المنهج السياسي والاقتصادي للحزب الوطني الاشتراكي للعمال الالمان » سنة ١٩٢٠ ، وألف ادولف هتلر كتابه « كفاحي » في الفترة الممتدة بين ١٩٢٤ ـ ١٩٢٧ ، ووضع روزنبيرغ كتابه « اسطورة القرن العشرين » سنة ١٩٣٠

(2) Maxey, Chester, C., Poltical Philosophies, P., 649.

السياسي سنة ١٨٠٧ وفيدت بمعاهدة تلست Tilsit ، وجزأت الى عدة دويلات صغيرة تحت حماية نابليون ، وضمت منطقة الراين الى فرنسا ، واصبحت قوانينها فرنسية وملكها فرنسيا ، وحينما اتحد القسم الجنوبي منها بعضه مع بعض واعترف بحماية نابليون عليه ، وحينما تقلصت مساحة بروسيا الى نصف ما كانت عليها قبل معاهدة تلست . وفرض على الموظفين البروسيين ان يؤدوا يمين الاخلاص الى نابليون وطغت على المانية ثقافة فرنسية ، وفقدت ثقافتها القومية وشخصيتها القومية ظهر فيشته واخذ يلقي ، في مثل هذا التدهور السياسي والثقافي، خطاباته على الشعب الالماني Die Reden an die deutsche Nation في « اكاديمية العلوم » ببرلين في شتاء سنة ١٨٠٧ - ١٨٠٨ وقد تركت هذه الخطابات الوطنية والفلسفية في الاوساط الالمانية المختلفة اثرا بليغا ، وبعثت في الشباب روحا وطنية عالية ، وبدلت مجرى تاريخ المانيا الحديث . وقد كان فيشته يعتقد ان بعث المانية ينبغي ان يقوم على خطة تربوية جديدة تستند الى فلسفة (كانت) المثالية وتعترف بالمثل الانسانية العليا لعصر التنور الفرنسي French Enlightment وتجمع بين القومية والاشتراكية في اطار الانسانية المشترك . (١)

وقد رأى فيشته ان خلاص الامة الالمانية لا يكون الا ببعث خلقي جديد ، والا بنظام تعليمي قومي تتمتع به طبقات الامة كافة ، وللبنين والبنات . ومما قاله : « لا مخرج لنا الا بتأسيس نظام تعليمي جديد ، يتناول جميع الالمان دون استثناء . لا تعليم طبقي خاص ، وانما تعليم للامة كلها ، يلغي جميع الفوارق الطبقية الاجتماعية » .

(1) Hans, Nicholas, Comparative Education, P., 218.

وقد ذهب الى ان اعظم خطأ ارتكبته التربية الالمانيـــة القديمة هو ايمانها بارادة التلميذ الحرة Free Will ومما قاله في هـذا الصـدد : « ينبغي ان تبكر التربية الجديدة اية ارادة حرة ، وان تستعمل استعمالا ضيقا وفي حدود الضرورات ، وينبغي ان تدرب التلاميذ على قوة الارادة بحيث تستحيل الى نتيجة عكسية » . وقد استهدف فيشته من ذلك وجوب تدريب الطلاب تدريبا خلقيا عن طريق المساهمة الفعالة وفق القانون الخالد لطبيعة الانسان الروحية ، وذهب الى ان التربية الجديدة ينبغي ان تنظم في مجتمعات مدرسية ، وان يخضع كل طالب الى المجتمع الذي ينتمي اليه ، ويساهم في مصلحة المجموع مســاهمة فعلية ، وان تحتوي التربية على رياضه بدنية ، وعمل ذو طابع صناعي وزراعي ، وان يكون هدفها النهائي تحقيق المثل الاعلى للخلق المجرد القائم على استقلال الفرد وحريته . ولا علاقة لهذا الهدف النهائي بعالم الخبرة ، وانما تنحصر علاقته بعالم الافكار ـ هـذه الافكار التي ينبغي ان تكون مرشـدا لكل خبرة من الخبرات . وقد اتصفت خطته التربوية الاصـلاحية بطابع عالمي ، ولم تظهر فيها نزعات قومية متطرفة ، ولكنه بعد ان ذكر ذلك عاد واكد : ومع ان الخطة التربوية تحتاجها جميع الامم ، الا انه ينبغي على بعض الامم ان تجعل من نفسها مثالا يحتذى ، وعليها ان تقود ما تبقى منها لتبعثها بعثا اخلاقيا عاما . وذهب الى ان الالمان ، بالنظر لموقعهم الجغرافي الخاص واوضـاعهم التاريخية هم اكثر الامم الاوروبيه ملاءمة لتحمل هذا العبء ، فهم اقدم الاقـــوام الاوروبية الذين ظلوا ملازمين لوطنهم الاصـلي ، ومحافظين على لغتهم

وثقافتهم الاصلية ، فاستطاعوا بهذا ان يقدموا للانسانية افكارا جديدة واعمالا جديدة . يتضح من هذا ان فيشته اراد لالمانية ان تكون زعيمة اوروبا في النواحي الخلقية والثقافية لا في النواحي السياسية كما ارادت النازية . وقد نظر الى الكنيسة والدولة من حيث هما مؤسستان شكليتان من اشكال الحياة المدنية خاليتان من محتوياتهما الاصلية . ولم يصر على وجوب « توحيد »المانية في « دولة » واحدة ، ولكنه كان يعتقد ان تحرير المانية يقوم على تحرير روحي عماده اصالة اللغة والثقافة الالمانية . ومع هذا فقد دافع عن الكفاية الاقتصادية للوطن الالماني من حيث هو اساس البعث الخلقي .

هيكل ـ الرسول الثاني :

والدولة النازية دولة « كلية » ، « انتظمت كل ناحية من نواحيها ، سواء أكانت فردية ام جمعية ، في منظومة واحدة ، يحدوها غرض واحد ، وتخضع الى ارادة واحدة ـ هي ارادة الزعيم » ، والقيادة العليا هي مصدر سلطان الحكومة ، اما العناصر الدنيا فعليها واجب الطاعة . وتخضع المصالح الاقتصادية الى الاهداف السياسية ، وتعد الدولة وحدة عضوية تسمو على جميع المؤسسات التي تتكون منها .

ان فكرة الفاشيستية عن الدولة تستند الى مزيج متماسك من النظريات الاتباعية (بيرك Burke) و (سافيني Savigny) والمثالية الميتافيزيقية لهيكل ، ولكن هذا المزيج لم يكن متماسكا كتماسك العقائد النازية نفسها عن الدولة . ومع ان النازيين لم يتجاهلوا حقيقة

العقائد الاتباعية والمثالية الا انهم وجدوها اقل اهمية من العقائد الاخرى ، ولذلك فان اهتمامهم كان بها قليلا . ولم يتقبل هتلر فكرة موسوليني عن الدولة من حيث هي « حقيقة روحية وخلقية بذاتها » ، وانما اشار في كتابه « كفاحي » اكثر من مرة الى ان الدولة ليست غاية وانما هي وسيلة . ثم تساءل ما هو الغرض الذي تتغياه الدولة ؟ واجاب قائلا : ان اسمى غرض تسعى اليه الدولة هو الاحتفاظ والعناية بالوحدة الرسية وبالنقاوة الرسية والنمو الرسي . ومن اجل هذا اختلف النازيون مع هيكل في مفهوم الدولة ، ولم يظهروا اعجابا به . وقد عبّر هيكل عن الدولة تعبيرا ميتافيزيقيا ، وسماها « مجرى الله في ارضه "march of God in the World" » ، بينما ذهب هتلر في كتابه « كفاحي » وتبعه التطوريون النازيون الى ان الرس يعبد الطريق الى « ارادة الطبيعة لتلد حياة اسمى واتم ، فنحن بوصفنا آريين لا نستطيع ان ننظر الى الدولة الا من حيث هي العضو الحي للمجتمع القومي nationality » .

واذا كانت النازية قد نبذت نظريات هيكل عن الدولة فليس ذلك معناه ان آراءه لم تتسرب الى نواحي اخرى من نواحي النظريات النازية . فالنازيون لم يتقبلوا ، كما بينا ، تعريف هيكل للدولة ، ولكنهم حولوه من تقديس الدولة الى تقديس الامة Volk . ويتكلم النازيون عن « الفولك » كما لو كان وحدة ميتافيزيقية خارقة ، لها حقيقة روحية مستقلة عن وجود اعضائها ، ومن اجل هذا فلم يفرقوا حينما تسنموا مقاليد الحكم بين « الدولة » و « الامة » Volk .

وقد زادت نظرية الجغرافية السياسية Geoplitic في نظرة النازية للدولة غرابة . ومع ان علم الجغرافية السياسية لم يكن في باديء الامر من صنع النازية الا ان النازيين قد استخدموا هذا العلم في نظرياتهم السياسية . وتقوم نظرية الرس النازية على فرضيتين هما : « الدم » و « التربة » ، ويعتقد النازيون ان هاتين الفرضيتين هما اهم عامل في احداث التطور الاجتماعي . وحينما قام الاستاذ هاوسهوفر Haushofer بتنقيح نظريات ماكيندر Mackinder وكيلين Kjellen السياسية ووضع نظرية ان الامة عضو حي وتشغل حيزا جغرافيا وتحتاج الى « مجال حيوي » لتحقيق امكانياتها رحب النازيون بهذه النظرية ، لانهم ذهبوا الى انها اعتراف بمبدأ مهم من مبادئهم السياسية - وهو مبدأ التربة . وعلى هذا الاساس ادخلت الدراسات الجغرافية السياسية ، واصبحت قسما من الفلسفة النازية ، وشجعت دراستها تشجيعا عظيما . فلم تذهب النازية الى ان الرس الالماني هو سيد الارساس حسب ، وان عدم قيام الالمان بتأدية رسالتهم في العالم راجع الى حاجتهم لمجال حيوي ، وانما اكدت على انها تختلف عن الدول الاخرى اختلافا اساسيا . فقد وضعت قواعدها على اسس صحيحة ، وانها اداة كيفت بصورة خاصة لتلائم علم الجغرافية السياسية .

ولم يقبل النازيون النظرة الاتباعية لمعنى الدولة قبولا كليا ، من حيث هي مسيل روحي من العقائد والافكار والمصطلحات التي انحدرت من ماضي سحيق وتنحدر الى مستقبل مجهول . فقد وجد النازيون نوعين من التقاليد السياسية التي ادركوا انهم ليسوا بحاجة

اليها ، بل انهم كانوا عازمين على تحطيمها (الاول) : التقاليد الملكية ٠ و (الثاني) : التقاليد الاقليمية ٠ فلم يفكروا باعادة الملكية الى المانية قط وتنصيب اسرة آل هوهنتزوليرن او اية اسرة اخرى ، ولم يريدوا ان تحتفظ المانية بولاياتها واماراتها الصغيرة المتعددة ٠ وفي الوقت الذي كانوا عازمين فيه على تحطيم هذه التقاليد السياسية الالمانية نجد ان شعورا تقليدا آخر عميقا كان قد استحوذ عليهم ٠ فقد تمسكوا بتقاليد المانية الثقافية ، واظهروا تعلقا عظيما بتراثها الثقافي والرسمي ، وجعلوا انفسهم امناء على هذا التراث العظيم ٠

ومع ان النازيين لم يمجدوا الدولة تمجيدا كليا كما فعل الفاشيست الطليان الا انهم نظروا الى الفرد نظرة ازدراء وتحقير ، وذهبوا فيه مذهب كانت Kant وفيشته من انه لا يملك حقوقا بل يملك واجبات ٠ ومن اقوالهم ان حرية الفرد الحقيقية تتأتى من اخضاع ذاته واستسلامها الى الامة Volk والقيام بخدمتها ٠ وقد كانوا يتساءلون كيف يمكن للفرد ان يكون حرا اذا لم تكن الامة الالمانية نفسها حرة مستقلة - سياسيا واقتصاديا ورسميا ؟ وكان النازيون « كليون » ٠ وعندهم ان عمل الدولة الحقيقي والضروري ينحصر في ضمان السيطرة على جميع اعمال الناس الصغيرة والكبيرة ٠ فقد فرضوا سيطرتهم على كل ناحية من نواحي الحياة واخضعوها لفلسفتهم وتوجيهاتهم - على الدين والتعليم والفن والموسيقى والهندسة المعمارية ، والعلوم والآداب والاقتصاد ، بل حتى الازياء !

نظرية الزعيم :

وكان النازيون يطلقون على دولتهم احيانا « دولة الزعيم القومي Volkischer Fuehrerstaat » . ولعلهم اقتبسوا نظرية الزعامة هذه من الفاشيستية الايطالية . فقد كان الزعيم في ايطاليا رئيس حزب الصفوة المختارة ، ورئيس الحكومة ، ولكنه لم يكن رئيسا للدولة نظرا لان الملك عمانوئيل كان رئيسها الشرعي . اما في المانية فقد كان الزعيم هتلر رئيسا للحزب النازي ، ورئيسا للحكومة ، ورئيسا للامة الالمانية من حيث هي عائلة رسية . واكتسبت نظرية الزعامة (القيادة) في المانيا معنى جديدا ، فلم تكن سلطة متأتية من مراجع عليا وثقة متأتية من مصادر دنيا ، وانما كانت اكثر من ذلك - كانت اداة تندمج بها الدولة القومية وكافة العمليات السياسية الاخرى اندماجا شديدا لتؤلف شيئا واحدا . وكان الزعيم القومي يرمز الى تجسيد الروح العليا وارادة الشعب الالماني ، وهو رأس الدولة الذي لا يخطأ ، وزعيمها الاعظم .

ان السيطرة الاجتماعية كلها تأثر بنظرية الزعيم . فالزعماء ، وخاصة اعضاء الحزب النازي كانوا يؤلفون طبقة حاكمة صغيرة مختارة ، وكان كل زعيم يخضع الى من هو اعلى منه في سلم القيادة . وكان الناس اتباعا وجنودا ، يدينون بالولاء والطاعة الى الحزب وقادته ، وينشأون نشأة « وطنية اشتراكية » ، ويتدرجون في مراتب الولاء ، ويشق النابه منهم طريقه الى مرتبة الزعماء .

وينبغي ان ينظر الى الحزب النازي اكثر من كونه مؤسسة سياسية ، انه جزء لا يتجزأ من اقسام الدولة ، انه حامل لواء التقاليد الجرمانية ومحور حركة الحياة القومية .

الرس والدم :

ان من اهم خصائص الحركة النازية اذا ما قورنت بغيرها من الحركات السياسية ايمانها بنظرية الرس وبتفوق الالمان الرسي على شعوب الارض ، واعتقادها ان الرس معيار جميع الاشياء . وفي هذا يقول هتلر : « كل ما ليس رسا في هذا العالم شيء تافه » . وقد وضعت دراسات عدة في هذا الصدد ، ونشأ منها « علم الرس » الذي يعطينا الاستنتاجات الآتية : (١)

١ - يصنف الجنس البشري الى درجات كثيرة من الارساس « العليا » النقية ، او الارساس « الدنيا » الهجينة .

٢ - ويحتل « الرس الجرماني » (او النوردي اي الشمالي او الآري) بين هذه الارساس اسمى منزلة .

٣ - ان الخصائص الجسمية والثقافية للمجاميع الرسية ثابتة عند جميع افراد هذه الطوائف بفعل الوراثة ، وانها تتحسن او تنحط بالزواج المختلط . وبعبارة اخرى ان تأثير عوامل البيئة في تطور المجاميع الرسية محدود جدا .

(1) Wasserman, Louis, Modern Political Philosophies, P., 202—203.

ويتصور النازيون ان فلسفتهم الرسمية تقوم على اسس علمية صحيحة - هي اسس نظرية التطور (النشوء والارتقاء) لداروين . وجميعهم من اصحاب المذهب التطوري . فقد اعتقدوا ، كما اعتقد غيرهم في القرن الماضي ، ان الكفاح من اجل الحياة ، وان الانتقاء وبقاء الانسب ليست الا قوانين الحياة الطبيعية . وذهبوا مع هربرت سبنسر الى هذا القانون ينطبق على الحياة الاجتماعية كما ينطبق على الحياة البايولوجية . على انهم لم يذهبوا مذهبه في ان الكفاح الاجتماعي ينحصر بين الافراد ، وانما اخذوا برأي بيجيت Bagehot الانكليزي الذي جعل الكفاح قبل كل شيء قائما بين الجماعات .

ومن هذه الفرضيات التطورية استنتج كثير من اصحاب المدرسة الرسمية الذين ظهروا قبل مجيء النازية امثال غوبينو Gobineau الفرنسي وشمبرلين Chamberlian الانكليزي الماني طبيعة الاساس البشرية وتكوينها . وقد انتشرت آراء الرسميين في المانيا انتشارا واسعا ، لاسيما حينما قام القيصر ولهلم الثاني نفسه بتأييد هذه النظريات ، وحينما نسب ان تقتني كل مكتبة عامة نسخة من كتاب شمبرلن الموسوم بـ « اسس القرن التاسع عشر » . وقد تأثر النازيون بهذه النظريات الرسمية تأثيرا كبيرا .

وعقب انتشار آراء غوبينو وشمبرلن الرسمية ساد الاعتقاد في المانية على ان الفروق البايولوجية وكذلك العقلية متأتية من انتقاء طبيعي في الكفاح من اجل البقاء . وان الطبيعة بهذا الانتقاء الطبيعي

تنتج ارساسا عليا وتلفظ ارساسا سفلى ، وان كل كفاح بين شعب وشعب يسهل امر هذا الكفاح الانتقائي ، ويعبد الطريق امام الارساس العليا لتبلغ كما لها وتحقق سيادتها الابدية على غيرها من الارساس ، وان اختلاط الارساس العليا بالدنيا يؤلف خطرا على مستقبل الارساس البشرية ، ويؤدي الى تكدير الارساس العليا وتعويق حركتها الطبيعية ، وقد يسبب حركة عكسية في عملية التطور . وقد ذهب النازيون الى ان الرس الابيض اسمى الارساس ، وان التيوتونيين اسمى ما في الرس الابيض ، وان الالمان احسن ما في التيوتونيين ، وان الارساس الملونة ، وخاصة الاقوام السوداء ، احط الارساس ، وان اليهود يحتلون في الصفات الخلقية والثقافية احط درك من دركات التطور الرسي .

ولم يزد النازيون على هذه العقائد الرسية شيئا مهما . وكل ما استطاعوا ان يفعلوه هو انهم عكفوا على توسيعها وتنقيحها ، واسبغوا عليها قوة جديدة . وقد نجحوا في ذلك لدرجة كبيرة . وقد صرح روزنبيرغ فيلسوف النازية ان الرس « مظهر الروح الخارجي » ، وان كل رس يتمخض عن روح خاصة به ، وينبغي ان يبحث عن روحه في الاعتراف بقيمته الذاتية العليا . حتى لقد قال انه بمقدورنا ان نخلق انسانا جديدا في القرن العشرين اذا ما ادركنا الحقائق والقيم الرسية .

ومن آراء بيجيت ان الجماعة التي تنتصر في كفاح الجماعات هي تلك التي يكون فيها التضامن والتعاون الداخلي اعظم . ومعنى ذلك في المصطلحات النازية ان الدولة المتعددة الارساس لا تستطيع ان تنافس

الدولة ذات الرس الواحد النقي . وقد ذهب النازيون الى ان من اسباب اندحار المانية في الحرب العالمية الاولى حرمانها من غريزة اجتماعية تقوم على وحدة الدم ، وتصون الامة من الانهيار والدمار لاسيما في ساعات المحنة وفي الوقائع الحاسمة ، وان وجود عناصر نوردية (شمالية) فيها لاسيما من اليهود قد اضعف الامة الالمانية ، وجعلها غير قادرة على اجتياز العقبات . ولا تكون المانية دولة كبيرة عزيزة ، ولا تستطيع ان تستفيد من امكانياتها ما لم تتخلص من هذه العناصر .

ومن المبادىء الاخرى التي اقرها النازيون وجعلوا لها اساسا هي حكومة الاقلية . فقد زعموا ان الارساس العليا (وخاصة الشمالية) هي احسن ما انتجته الطبيعة ، ولكنها لم تنتجها باعداد كبيرة ، فالشماليون اقلية في كل شعب ، وهم اقدر على الحكم من اي رس آخر . ويعتقدون أن من نواقص الديمقراطية ، وهي حكم الاكثرية ، هي ان الارساس الدنيا غير الكفوءة هي التي تؤلف حكوماتها .

وقد انبثقت من نظرية الرس نظرية خاصة في علم الاخلاق ethics خلاصتها ان جميع القيم الخلقية تتوقف على الرس ، وان الارساس تتفاوت في قابلياتها على انتاج القيم الخلقية ، فالارساس الدنيا تنتج قيما سفلى ، والارساس العليا تنتج قيما عليا ، وان « الشماليين » احسن الشعوب في النواحي الخلقية ، وتختلف مقاييسهم عن مقاييس الارساس الدنيا ، وليس بنافع ان تقتبس قيم الشماليين الخلقية . وقد اخضع النازيون المقاييس الخلقية الى السياسية . وهم بهذا بزوا في آرائهم مكيافيللي الذي ابعد الاخلاق عن السياسة .

ويرى النازيون ان « حقيقة » الرس هذه قد قررت شكل تطور الانسان ، وان الانجازات الانسانية العظيمة قد تمت بمساعي العناصر الجرمانية . ولاشك ان مضامين هذه النظرية بعيدة الغور واسعة المدى . ولما كان الرس « الجرماني » هو عنوان مدنية رفيعة فان كل عمل يقوم به هذا « الرس » لفرض سيادته على الشعوب الدنيا ، وكل وسيلة يختارها لتحقيق هذا الغرض عمل صحيح . فالتفوق الرسي لا يعترف بوجود اي قانون اخلاقي او اي قانون اسمى من قانونه : لكل عمل جرماني مبرراته الذاتية !

وحينما آمنت النازية بان الرس اعظم حدث في التطور الاجتماعي ، وان التطور يتم بالكفاح والانتقاء الطبيعي ، وان السيادة ينبغي ان تكون للرس الشمالي الذي هو سيد الارساس ، وان التوسع ينبغي ان يتحقق بهذا الرس والا ابتلعته الارساس الدنيا المختلفة توصلوا الى نتيجة واحدة وهي ان واجب الدولة الالمانية والامة الالمانية ، بل ان السياسة الرشيدة هي ان يتحين الرس الرفيع الفرص المؤاتية ويشن حربا توسعية على الارساس الدنيا . ويقولون ليس هذا العمل الا ارادة الطبيعة ، او كما يقول روزنبيرغ فيلسوف النازية : ان نعترف بالمثل القديم بان الحرب خالقة لاشياء جميعا ، لا من حيث انها معادلة ذات حدين فارغين بل لانها مادة الحياة .

ولاشك ان الطابع العدواني الذي اتسمت به النازية ما هو الا نتيجة للعقائد الرسية . فلم تقف نظرية الرس عند القضاء على الارساس الدنيا والبحث عن المجالات الحيوية وبناء امبراطورية نورديكية وانما

تطلبت ان يواصل « الرس السائد » master-race سعيه في تحسين نفسه بتطبيق مباديء علم تحسين النسل Eugenics . ولقد تقبل علماء الرس النازيين فكرة علماء تحسين النسل بان الوراثة هي العامل الاوحد في عملية التطور ، وان تأثير البيئة قليل جدا ، وذهبوا الى ان واجب الدولة الرسية ينحصر في اشرافها على عملية الوراثة ، فلا تجيز للافراد المنحطين ، حتى وان كانوا من النورديين ، ان يتناسلوا فيخلدوا صفاتهم المنحطة في المجتمع ، بل ينبغي ان تشجع الافراد الاقوياء الاصحاء على التناسل . وقد شرعت الدولة النازية قوانين عدة لتطبيق هذه النظرية ، وبادرت الى اخصاء الافراد الناقصين جسميا وعقليا تخلصا من اعقابهم وعواقبهم ، اذا ما اتضح لدى الاطباء النازيين ان هذه النواقص قد تكونت بفعل الوراثة لا بفعل عامل آخر ، وحرمت على اليهود وعلى المنحدرين من ارساس سفلى ان يتزوجوا من الرس السائد .

النزعة اللاعقلية :

وبالاضافة الى المذهب التطوري (او الداروينية الاجتماعية) الذي آمن بها النازيون فقد سادت في معتقداتهم السياسية الاتجاهات التي ظهرت ضد النزعة النفاية intellectualism ، وبعبارة اخرى اعتنقوا النزعة اللاعقلية irrationalism ، ووسعوا فيها ، وتحمسوا اليها متأثرين بالمذهب الطبيعي naturalism الذي وضعه روسو فقد ذهبت جميع العقائد العقلية والحرة التي ظهرت في غضون القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الى ان الانسان مخلوق عقلي قادر على ان يسير

بهدى عقله الى الحقيقة الموضوعية . الا ان المثاليين الالمان قد اعطوا اهمية عظيمة الى العمليات العقلية اللاشعورية . وقلل كثير من كتاب اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين امثال شوبنهاور ، ونيتشه ، وجيمس ، وبيرغسون ، وسوريل ، وموسكا ، وباريتو من شأن العقل وزادوا في شأن الارادة والغريزة والايحاء .

ومن الآراء التي ادلى بها النازيون ان اكثر الناس اغبياء ولا عقليين ، وقليل منهم من يستطيع ان يتدبر شئونه المادية بعقل وروية ، وان قدرتهم على التفكير الموضوعي ضعيفة ، ويسيرون وراء عواطفهم ونزواتهم الخاصة ، وينعقون وراء كل ناعق ، ومن السهل تضليلهم ، وقد تنطلي عليهم الاخبار الملفقة اذا ما البست اثوابا من العواطف براقة . وواضح ان مثل هذه المخلوقات لا تستطيع ، كما يزعم النازيون ان تحكم نفسها بنفسها . وما الديمقراطية الا وهم من الاوهام ، بل لعلها اعظم الاوهام جميعا . ويذهبون الى ان الناس يحتاجون ويودون ان تقودهم وتحكمهم اقلية تتصف بالفهم والقدرة على التفكير ، وان طبائعهم الانفعالية تقوم على هذا الاساس . ويستنتجون من هذا ان حكومة الصفوة المختارة لا تتنافر وحقوق الانسان ، بل تنسجم وطبيعة النفس البشرية ، ويرون ان اي نظام اجتماعي ، لا الديمقراطية وحدها ، يتطلب عملا عقليا عاليا ويستند الى سواد الناس لا يصلح للافراد من الناحيتين العلمية والعملية . ويذهبون الى ان الانسان مخلوق لا عقلي حتى بالنسبة للشيوعية نفسها . فالشيوعية تؤكد ان مصالح الافراد الاقتصادية الذاتية هي التي

تحركهم وتدفعهم الى العمل . وعلى هذا فان جميع المؤسسات الاجتماعية والعمليات الاخرى تقررها العوامل الاقتصادية . وهذا في نظر النازيين لا يقوم على اساس صحيح ما دام اكثر الناس ليسوا عقليين لدرجة يستطيعون ان يدركوا بها مصالحهم الاقتصادية الحقيقية ، او يسيرون وراءها حينما يتولى احدهم شرحها وتفسيرها . وعليه فان الشيوعية لا تستطيع ان تقضي على الاستغلال الاقتصادي بين الجماهير ، ولا تستطيع ان تصل الى مرحلة الديمقراطية الاقتصادية التي تنبأ عنها كارل ماركس . وما دامت الشيوعية تقوم كلها على اسس مادية فانها والحالة هذه تصبح اساءة مسددة الى الاسس الحقيقية التي يعوّل عليها العمل الانساني . وتنحصر هذه الاسس في نظر النازيين بثلاثة اشياء : عقيدة ، ورسالة ، وارادة .

وكان النازيون يرون انه لمن الخير ان يكون الناس لا عقليين . فمتى ما كان جميعهم او جلهم عقليين تعذر تنظيمهم في هيئة اجتماعية متعاطفة ومتراصة ومتعاونة ، ويؤكدون ان رجال الفكر اناس مترددون وفرديون ، وقلّ ان يكتب لهم النجاح في عمل مشترك . ويقولون ينبغي على الدولة التي تريد ان تكون قوية ان تحدد من ثقافة افرادها ، وتكتفي بذلك النوع من التربية الذي يساعدهم على ان يكونوا مواطنين صالحين لا مفكرين ، وان تصبح وظيفة التربية الاساسية اعداد الشباب اعدادا جسميا قويا وسليما ، واعدادا خلقيا صحيحا ، وان ينالوا ايضا اعدادا في العلوم الفنية والمهارات التي تعود على الدولة بفائدة عظيمة ، وان تنحصر الدراسات العالية ، وخاصة الدراسات الثقافية والادبية

العامة بالشبان النابهين وحدهم بشرط ان يحسن انتقاؤهم ، ويقوم على نقاوة الرس والولاء نحو الدولة . وينبغي ان تطبق هذه الشروط حتى على زعماء النازية انفسهم ، فلا يثقفون ثقافة عميقة واسعة جدا ، بل لابد لهم ان ينالوا من الثقافة ذلك القدر الذي يرفعهم عن مستوى الجماهير الاعتيادي ، وان تساعدهم ثقافتهم هذه على الانتفاع بالصفة اللاعقلية التي يتصف بها سواد الناس لتنفيذ خططهم وحل مشاكل الدولة حلا صحيحا .

وكان من نتائج هذه النزعة اللاعقلية ان اهتم النازيون اهتماما عظيما بفكرة سوريل Sorel في الاسطورة الاجتماعية . فما دام الناس لا عقليين و « لا يستطيعون ان يعيشوا بالعقل فينبغي ان يبحثوا عن بديل له على هيئة اسطورة او عقيدة ينظمون بها سلوكهم ويوجهون فيها حياتهم . وقد ذهب النازيون الى ان احسن بديل هو خلق اسطورة اجتماعية مقبولة . وليس من الضروري ان تكون صحيحة ، بل ينبغي ان تستهوي الجماهير استهواءا انفعاليا شديدا ، وتستحوذ عليهم ، وتوحد قلوبهم على العمل » . (١) وعندهم ان اول واجب من واجبات الدولة هو ان تخلق مثل هذه الاسطورة ، وتغذيها ، وتحافظ عليها . وكانت « الاسطورة الاجتماعية » التي ابتدعها النازيون هي اسطورة « الرس » . فقد جعلوها سيدة الاساطير ، واهتموا بها اهتماما عظيما ، واستخدموا الحزب والدولة لتلقينها واعطائها قوة وحيوية .

ليست في الدنيا حقائق عامة :

وقد قاد المذهب اللاعقلي النازيين الى القول بان الشيء المعقول

(1) Maxey, Chester C., Political Philosophies, P:, 659.

عند زيد قد لا يكون كذلك عند عمر ، وان الرأي الصحيح لا يمكن ان يكون صحيحا وشائعا لدى جميع الناس . وزعموا ان الافراد لا عقليين لدرجة يتعذر عليهم ان يدركوا الحقائق العامة ، وهل من المنطق ان تكون الحقيقة المجهولة من عامة الناس حقيقة معلومة ؟ فنحن لا نستطيع ان نجعل من الفرضية حقيقة ثابتة لدي اي شعب من الشعوب الا اذا كان قادرا على تلمسها وفهمها . فالشيء الحقيقي لشخص من الاشخاص او لشعب من الشعوب قد لا يكون حقيقة لشخص آخر او لشعب آخر . فالامور كلها نسبية ، والحقائق كثيرة . وكل شعب يقرر اي شيء من هذه الحقائق حقائق بالنسبة لطبيعته الرسمية وظروفه الاجتماعية . ولم يطبق النازيون هذه العقيدة على الحقائق الخلقية والاجتماعية حسب ، وانما طبقوها ايضا في ميدان العلوم الرياضية والفيزياوية والعلوم الموضوعية الاخرى . فقد كانوا يزعمون ان في المانية علوما سياسية واقتصادية واجتماعية وغيرها خاصة بالامة الالمانية ، كما فيها علوما حياتية وفيزياوية ورياضية وكيماوية خاصة . اما القيم الخلقية فقد انكروا جميع مصادرها الدينية (المسيحية واليهودية) والدنيوية (الديمقراطية) ، وتمسكوا بالقيم الخلقية التي تجعل من الرس الالماني مقياس كل شيء .

نظرية العنف :

وقد ادت النزعة اللاعقلية بالنازية الى ان تأخذ بنظرية العنف violence التي جاء بها سوريل . فقد ذهب سوريل على ان العنف البروليتاري اداة ضرورية في حرب الطبقات ، وان له مبررات خلقية .

فباستخدام العنف تستطيع البروليتاريات ان تحطم الطبقات الرأسمالية في اول مرحلة من مراحل كفاحها . وقد وضع النازيون الذين وقفوا ضد طبقة البروليتاريات خطة لمكافحة العنف البروليتاري بعنف اعظم بقيادة الطبقة الوسطى ، واقنعوا الطبقة الوسطى للامة الالمانية ان استعمال العنف ضد البروليتاريات ضرورة ، وانه يقوم على مبررات خلقية . ان نسبية القيم الخلقية التي جاء بها النازيون استنادا الى عقيدتهم اللاعقلية اعانتهم في هذا الباب اعانة كبيرة .

الاشتراكية النازية :

واذا كان النازيون من ألد اعداء الشيوعية فليس ذلك معناه انهم كانوا من اعداء سيطرة الدولة على النظام الاقتصادي ، لقد كانوا في الحقيقة يكرهون البروليتارية الشيوعية كرها شديدا وخاصة السوفياتية منها ، وكان اكثر رجال الحزب النازي من اصحاب العقائد الاشتراكية، وكانت الطبقة الوسطى عماد الحزب لا طبقة العمال . ولم تظهر هذه الطبقة استعدادها للتخلي عن الملكية الفردية او تحديدها ، بل كانت تريد ان تحافظ على النظام الرأسمالي بشرط ان تقوم الدولة بتلافي نواقص الرأسمالية ، وتسيطر على بعض مرافق الدولة الاقتصادية لتحقيق النفع العام ، وتديرها وفق اسس اشتراكية قومية كما يقول الاستاذ ماكسي Maxey .

ويختلف مفهوم « الاشتراكية » التي جاءت بها النازية طبعا عن مفهوم « الاشتراكية العلمية » او غيرها من المفاهيم . وربما يكون احسن

تعبير ينطبق على النظام الاقتصادي الذي سارت عليه النازية والفاشيستية معا هو « رأسمالية الدولة » State Capitalism فقد ظلت المشاريع الاقتصادية بيد الافراد ، وظل الربح قصدها ودافعها • الا انها كانت تخضع لرقابة الحكومة وسيطرتها وتوجيهها خضوعا كليا • ولم يكن هذا التدخل غريبا عن الامة الالمانية ، بل كان من تقاليدها الخاصة الطويلة • فقد تدخلت الدولة في المشاريع الاقتصادية منذ القرن التاسع عشر ، ولم تؤمن بسياسة التسيب التي سارت عليها بعض الدول الغربية • ولاشك ان هذا التدخل قد عظم شأنه في العهد النازي ، واسس النازيون ما سمي « بالاقتصاد الحربي الدائم » permanent war economy، وخلاصته ان العمليات الاقتصادية لا تتبدل في حالة وقوع حرب بل يزاد انتاجها سرعة •

وكان من نتائج توغل الحكومة في العمليات الاقتصادية ان تقلص النظام الرأسمالي في المانية ، واشرفت الوكالات الحكومية على كل عملية اقتصادية اشرافا تاما ودقيقا • ومع ان الصناعة قد ظلت في الاعم الاغلب بيد الافراد الا ان سيرها ظل يخضع الى مستلزمات السياسة القومية ، وظل الحزب النازي يسيطر على جميع المشاريع المختلفة ، وينسق السياسة العامة ، ويضمن العمل • (١) فمثلا كانت الحكومة تعين لرجال الاعمال نوع الانتاج الذي يقومون به ، ومقدار الربح الذي يحصلون عليه ، ولم يقتصر الامر على الصناعة بل تعدى ذلك الى حدود

(1) Wasserman, Loius, Modern Political Philosophies, P., 200.

الزراعة ، فوجهوا عنايتهم الخاصة اليها ، ونظروا الى « التربة » من حيث هي معين الامة وعمادها ، والى الصناعة من حيث انها قد اضعفت كيان الامة ، وجعلتها تعتمد على وارداتها اعتمادا كليا . وحاول النازيون ان يتبعوا سياسة موحدة ، ويوازنوا بين الصناعة والتجارة والزراعة .

وتظهر في التدخل الحكومي صورة من صور القيادة الاقتصادية . فقد كان صاحب المعمل او المشروع يعد قائدا لمعمله او مشروعه ، وينتظر من اصحاب العمل والعمال ان يقوموا باعمالهم خير قيام ، وان يضعوا مصلحة الوطن فوق جميع الاعتبارات اذا ما تعارضت مطالبهم او تناقضت . وتقع على صاحب العمل مسئولية ادارة مشروعه ادارة مرضية ، واستخدام رأسماله ضمن حدود معينة ، وتحديد ساعات العمل والاجور وظروف العمل ، وقواعد الضبط والانضباط .

وعند مجيء النازيين الى الحكم طرأ على حالة العمال تبدل اساسي . فلم تعد نقابات العمال المستقلة هيئات مشروعة ، ولم تعد طريقة « التعامل الجماعية »collective bargaining مقبولة . وفي الوقت الذي الغيت به هذه الطريقة منع الاضراب من حيث هو سلاح تستخدمه الطبقة العاملة لتحسين حالتها المعاشية، وركن الى تسوية المنازعات بالطرق السلمية ، وانتظم العمال (عمال اليد والعقل) واصحاب العمل معا في مؤسسة واحدة هي « جبهة العمل » التي كانت بادارة الحزب

النازي . واستهدفت هذه « الجبهة » القضاء على المطالب المتعارضة التي قد تقع بين رأس المال والعمل ، وتحويل كفاح العمال من المطالبة بزيادة الاجور لتحسين احوالهم الاقتصادية الى ميدان الثقافة والتسلية . ولكن « القيادة » الاقتصادية ليست مطلقة تعمل ما تشاء ، وانما كان للعمال منظماتهم التي يستطيعون ان يحدوا بها من سوء تصرف « القيادة » ، ويحسموا منازعاتهم مع اصحاب العمل في ضوء مصالح الدولة التي تسمو على جميع المصالح الاخرى .

التربية النازية

ذكرنا في غير محل من هـذا الكتاب ان النازية لا تؤمن بالقيم الخلقية التي تؤمن بها الديمقراطية الحرة ، وان لهـا معايير فلسفية خاصة ، وانها تؤمن بعقيدة جديدة تقوم على الحصر الرسي ، وتستند الى النظرية « الكلية » في تنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . فالتربية والعلوم والدعاية تكتسب في النظام النازي مفاهيم تختلف عن مفاهيم النظام الديمقراطي ، وتفقد صفاتها المعروفة ، وتصبح سلاحا بيد السياسة القومية تستخدمها الدولة في كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية ، وتشرف الدولة على كل ما يتصل بالتثقيف العام ، بما في ذلك الاذاعة والصحافة والمسرح ، اشرافا كليا ، وتسخرها في خدمتها .

وقد كانت وزارة الدعاية والتنوير العام تسيطر على الصحافة والادب والاذاعة والمسرح . وقد اولت النازية هذه الناحية عناية شديدة في اول يوم من ايام سيطرتها على مقاليد الحكم في المانية . و « لعل اول عمل قامت به هو التطهير الاخلاقي . فالافلام والادب والمسرح والاعلانات ، والملبس والعادات قد خضعت كلها الى الرقابة . وقد اجتثت جذور الميوعة والتبرج حالا . ولم تعد المواضيع الجنسية عماد كثير من الكتب والروايات والصور . اما العرى فقد استهجن واستبشع ، واما اللباس فقد اريد به ان يكون محتشما » . (١)

(1) Fletcher, A.W., Education in Germany, P., 56—57.

من يملك الشباب يملك المستقبل :

وكانت النازية تؤمن بالكلمة المأثورة « من يملك الشباب يكن بيده مستقبل المانية » ، وكانت نظرياتها التربوية قد استقرت قبل مجيء هتلر الى الحكم في كتابات ارنست كريك Krieck والفريد باومار Baeumler . وقد استهدفت النازية تحقيق مثل سياسي وعسكري أعلا يؤكد على الانضباط والتدريب والضبط Disziplin, Zucht Und Ordunung ، ونظرت الى التربية نظرتها الى الحياة نفسها ، وطلبت ان تمتد جذورها في الدم والتربة Blut Und Boden اللذين يصوغان مستقبل الامة ويكونان رسمها وخلقها ومستقبلها ، وان تكون نقطة الانطلاق في التربية هي الشعب وحاجاته لا الطفل ونزواته ، وان تصبح « مصلحة المجتمع فوق مصلحة الفرد »

Gemeinnutz geht for Eigennutz

وكانت الدولة تتعهد الطفل « من المهد الى اللحد » ، وتصبه في قوالب معينة ، وتتكفله منظمات خاصة ، فينخرط البنون والبنات في منظمات « شباب هتلر » وهم في العاشرة من العمر ، وينالون اعدادا في الرياضة والالعاب والتدريب العسكري ، ويترعرعون في كنف النازية ، ويلمون بمبادئها الاساسية . وقد وجه جميع رجال الحزب عنايتهم الى التربية البدنية ، والتدريب العسكري ، وألقى الدكتور فرانك وزير داخلية المانية في اليوم التاسع من شهر مايس سنة ١٩٣٣ خطابا في حفل من المربين قال فيه : ينبغي ان تهتم المدرسة الالمانية اهتماما

شديدا بالرس واحترام العمل ٠وناشد المربين ان يشتوا حملة واسعة في سبيل تعميم الرياضة البدنية والعناية بها ، وذكرهم بقيمها العسكرية ٠

نظرية التنسيق :

وكانت نظرية التنسيق Gleichschaltung محور التربية النازية بل قصدها التربوي ٠ وقد عرفها غوبلز نفسه بما يأتي : « ينبغي ان توجه القوى الثوروية الى كل ناحية من نواحي الحياة العامة ٠ وهذه هي حقيقة فكرة التنسيق التي تتفق وما تريده المانية لنفسها ٠ فينبغي ان يكون لها هدف واحد ، وحزب واحد ، وعقيدة واحدة ، وان يساير تنظيم الدولة الامة الالمانية نفسها ٠ والثورات لا تعرف التسويات ٠ وينبغي ان تكون الدولة رمزا لمبدأ الكلية » ٠ (١) وبكلمة اخرى يستهدف التنسيق تكوين تشابه في المعتقدات السياسية والآراء الثقافية للمجتمع الالماني ٠

وكانت النازية تستمد التربية الفلسفية من معينين مهمين من : (١) تراث المانية القديم كما عبر عنه فيشته وهيردر وهيكل، ومن (٢) تراثها الجديد كما عبر عنه هتلر في كتابه « كفاحي » ٠

ويرى كثير من الكتاب ان عقائد الحركة « الاشتراكية الوطنية »

(1) Rugg, H .(Editor) Readings in The Foundaaions of Education,, Vol. 1, P. 522—3.

ليست الا صورة مركبة من صور المدنية الالمانية ذاتها . فقد كانت « تعني بالقبائل الجرمانية الاولى وترعى اساطيرها ، وبالمعروفين والمغمورين من كتاب الاغاني والموسيقى وبناة الكنائس وقاعات المدن الخ ... ، وكانت تعني كذلك بالمثل الاقتصادية العليا التي انتشرت في القرون المتوسطة . ويعد فيشته احد رسل الفكر المشهورين، فقد قوّى روح الأمة المعنوية في احدى الفترات التاريخية بمحاضراته الحماسية ، وكان داعية حسنة للمثل الاعلى القائل بتربية الانسان تربية كلية ، وقد وجه عناية خاصة الى تربية الخلق . وفعل هيردر مثلما فعل فيشته تقريبا . فقد تعلق بالاغاني الشعبية ، واهتم بالدروس الاخلاقية التي تستند الى دراسة التاريخ . اما هيكل فقد اكد على ما للدولة من اهمية كبرى » (١) في حياة المجتمع .

وقد احلت التربية النازية المواطن الفعال الواقعي الذي يتحمل التبعات ويتصف بدرجة من الانضباط محل العالم « المثقف » Scholar وجعلته قصدا تربويا مهما . وجدير بالذكر ان المانيا كانت تسعى قبل النازية الى تحقيق مثل هذا « المواطن » ، وحاولت ان تحطم الحدود الفاصلة بين الرجل « المثقف » وغير المثقف وان تقضي على الغطرسة الثقافية ! وكان هدفها الاعلى خدمة « الدولة » خدمة فعالة واعية .

ولا يثق النازيون « بالمثقفين » . وكانت تربيتهم تستهدف تربية كلية - جسما وعقلا وروحا - تستطيع ان تمده بفلسفة في الحياة لا تتزعزع ، وتجعله عضوا فعالا في المجتمع ، شاعرا برسالة امته ،

(1) Fletcher, A. W., Education in Germany, P., 57—8.

عارفا دوره فيها . وكان النازيون يعتقدون ان خدمة « الدولة » هي اسمى خدمة يقوم بها الانسان ، وان المدرسة هي احدى العوامل التربوية في اسداء هذه الخدمة .

وليس بمقدورنا ان نتفهم الاسس الفلسفية التي تقوم عليها النازية تفهما صحيحا ما لم نستعرض نظريات هتلر في التربية النازية والتثقيف النازي . (٢) ويذهب هتلر الى انه ينبغي ان تجعل « الدولة الشعبية » الطفل اغلى شيء يملكه الشعب ، وان تنصب نفسها سادنة « لمستقبل الامة ـ هذا المستقبل الذي يمتد في اعماق الزمن الى آلاف من السنين ، وان تصبح رغبات الفرد وذاتيته ليست لها قيمة ، وان يخضع الى ارادة الدولة الشعبية كل الخضوع .

وعلى الدولة الشعبية « ان توجه ، قبل كل شي ، جميع اعمالها التربوية الى تنشأة اجسام صحيحة جدا لا الى ضخ المعلومات المجردة في اذهان الطلاب ، والى تكوين الخلق لاسيما تنمية قوة الارادة والعزم واعداد الفرد لتحمل التبعات بروح مرحة . اما تدريب القابليات فاهميته ثانوية ، واما التدريس العلمي فيأتي في المرحلة الاخيرة .

« وعلى الدولة الشعبية ان تسير وفق هذه الفرضية : وهي ان الانسان الذي يتمتع بجسم سليم ، ويملك خلقا صحيحا وثابتا وعزما

---

(٢) راجع الفصل الثاني (الدولة) من المجلد الثاني لكتاب «كفاحي» Mein Kamph والمذكور في نهاية الفصل . وقد استقينا هذه الآراء من الفصل نفسه .

صادقا وقوة ارادة ماضية لهو اعظم اهمية الى المجموعة القومية من اي مخلوق ضعيف شريف النفس ، وان كانت ثقافته قليلة » . (١)

ويرى هتلر « ان اعظم واجب يقع على المدرسة هو تدريب الشباب لخدمة الامة والدولة وفق روح وطنية اشتراكية » ، والولاء لها فالولاء والاستعداد للتضحية والصبر على الشدائد هي ، كما يقول النازيون ، الفضائل التي يحتاجها كل شعب عظيم اشد الحاجة ، وان غرسها عن طريق التربية والتدريب في المدارس لهو اهم من الاشياء التي تحشى بها مناهجنا الدراسية اليوم .

تدريس الرياضة البدنية :

وقد كانت النازية ، كما قلنا ، تعني عناية خاصة بالرياضة البدنية والتدريب العسكري ، وكان تدريسها الزاميا في جميع المراحل التعليمية ، وكانت تعدها احسن وسيلة لاعداد الشباب اعدادا يجعل ولاءهم الى الدولة عظيما . وقد قال هتلر : « ينبغي ان يكون الشباب الالماني في المستقبل ضامرا وصحيحا وسريعا كالسلوقي ، وخشنا كقطعة من جلد ، وصلبا كقطعة من فولاذ انتجتها معامل كروب » . ومن اجل هذا فقد تأسست للشباب نوادي كثيرة ، وانتظم البنون والبنات في منظمات الشباب العسكرية ، وتأسست مدارس ادولف هتلر .

وقال هتلر عن الرياضة البدنية في كتابه « كفاحي » ما يأتي : فليست الرياضة البدنية اذا في الدولة الشعبية شأنا من شئون الناس ، ولا هي شأن من شئون الابوين ، ولا مهمة من مهام المجتمع بل هي من

(١) المصدر السابق نفسه صفحة ٦١٣

مستلزمات بقاء المجتمع القومي نفسه ، ومن واجبات الدولة الشعبية . وعليها ان تخصص للرياضة البدنية في مناهجها ومدارسها وقتا اكثر . ثم انتقل هتلر الى بحث الاسس الفلسفية للرياضة البدنية بصورة مفصلة ، وتناول الملاكمة ، وحسبها اداة من ادوات تربية روح العدوان في الناشئة ، وتطرق الى تعليم البنات وذهب الى وجوب زيادة العناية بالرياضة البدنية اولا ، وبتنمية القوى الروحية ثانيا ، والقيم العقلية الثقيفية ثالثا . وقال ان القصد التربوي في تربية البنات هو اعدادهن ليصبحن امهات المستقبل . (١)

تدريس العلوم :

وذكر هتلر انه لابد للدولة الشعبية من اجراء تبدلات اساسية في تدريس العلوم الطبيعية . وقال لقد بولغ في اهميتها ، واحتلت في مناهجنا الدراسية منزلة عظيمة . وقد اوجز هذه التبدلات بما يأتي :

(اولا) ينبغي بصورة عامة الا تحشى اذهان الشباب بمواضيع قد ينسون ٩٥ بالمائة منها بعد دراستهم لها ، وان تبدل طرائق تدريس التاريخ ، وان تأخذ الدولة على عاتقها كتابة تاريخ العالم من وجهة نظر رسمية ، وتفسره تفسيرا رسميا .

(ثانيا) وحيث ان من اهم خصائص العصر المادي الحاضر ومستلزماته هو زيادة العناية بالعلوم الطبيعية والرياضيات والفيزياء وغيرها من العلوم الا انه ينبغي كذلك ان نميز بين التربية العامة والعلوم الاختصاصية . ولما كانت المواضيع الاختصاصية ذات طبيعة

(١) المصدر السابق نفسه صفحة ٦٢١.

خاصة وتخدم أغراضا مادية مجردة فينبغي ، تلافيا لهذا النقص ، ان نعني بالثقافة العامة عناية كبيرة لنسد بها هذا النقص المتأتي من زيادة الاهتمام بالعلوم الاختصاصية . « وفي هذه المرحلة ينبغي ان نغرس في النفوس دائما وابدا ان الصناعة وفنونها ، والتجارة والمهن لا تزدهر في هيئة قومية تتطلع الى مثل عليا الا اذا قامت هذه الهيئة على مفترضات اساسية . ولكن هذه المفترضات لا تستقر في الانانية المادية ، بل في السرور الذي يخامر المرء حينما يكون على استعداد للتضحية بالنفس والنفيس » . (١)

(ثالثا) وينبغي ان نلاحظ ، بمقدار ما يتعلق ذلك بالنقطة الآنفة الذكر ، صلته بالتربية العلمية . « وفي حقل العلوم الطبيعية ايضا ينبغي ان تجد الدولة الشعبية وسائل تستخدمها في تنمية الغرور القومي لا في تاريخ العالم حسب وانما في تاريخه الثقافي ، وان تظهر عظمة المخترع لا من حيث هو انسان مخترع بل من حيث هو مواطن من مواطني الدولة ، وان يتحول التقدير الذي يستحقه على عمل جبار ينجزه الى الاعتزاز به من حيث هو احد ابناء الامة لا ان ينحصر الاعتزاز بالعمل وحده ، وان نصطفي من بين جمهرة علماء الالمان المشهورين والعديدين اعظمهم ، ونعرضهم الى الشباب عرضا جذابا بحيث يصبح هؤلاء العلماء اعمدة العاطفة القومية الوطيدة » . (٢)

ويقترح هتلر وجوب ترتيب المواضيع في مناهج الدراسة ترتيبا

---

(١) المصدر السابق صفحة ٦٣١ - ٦٣٢

(٢) المصدر السابق صفحة ٦٣٥

منظما ، وان تستند تربية الشباب الى اسس صحيحة ، وان يتخرجوا من المدرسة «المانا» صرحاء وحقيقيين لا ديمقراطيين انصاف دعاة السلم Pacifists ! وان يتيقظوا رسيا ، فتملأ قلوبهم وعقولهم بالاحاسيس الرسية ، فلا يترك فتى او فتاة دون ان يحصل كل واحد منهم على معلومات تتصل بضرورة وطبيعة نقاء الدم . ومن اجل تحقيق هذا الهدف ادخل النازيون علم الحياة في مناهج الدراسة كموضوع جديد ، وشجعوا بحث مواضيع الرس وتحسين النسل في المدارس ، والعناية التامة بالصحة ، وقد اعطوا كل طالب « شجرة لعائلته ، » وطلبوا منه ان يدون فيها عائلته بصورة مفصلة ولظهوز متعددة .

وقد نادى هتلر بضرورة افساح المجال امام الموهوبين ليشقوا طريقهم الى مناصب المجتمع العليا مهما كانت سوياتهم الاجتماعية . وكان يرى ان اعظم واجب يقع على كاهل الدولة الشعبية هو ان تفتح ابواب المعاهد الحكومية العالية لكل شاب موهوب حتى يتسنى له ان يرتقي الى سلم القيادة . وقد نصت احدى مواد الحزب النازي على انه : « ينبغي ان يكرس التعليم العالي جهوده لخدمة القضية الالمانية ، وان يكون بمتناول الاطفال الفقراء » . فطبقات الامة الثقافية لا تتجدد الا اذا تسرب اليها دم جديد من الطبقات الدنيا . وكان هتلر يدعو الى انه ينبغي على الدولة ان تصطفي من بين المواطنين اصطفاء دقيقا جدا تلك المادة الانسانية التي اختارها وفضلها الله وان تجعلها في خدمة الشعب . وقد اتهم هتلر الطبقات العليا بالتردد والخور ، وقال انها بحاجة الى ارادة قوية خلافا لما عليه عامة الناس . وقد صرح انه كلما كان سياسيو المانية مثقفين ضعفت انجازاتهم .

* * *

وختاما ما الذي تركته النازية في نفوس الطلاب والمعلمين بعد ان هزمت شر هزيمة ، وبعد ان تركت وراءهـــا مجموعة من الانقاض والخرائب هي الوطن الالماني ، وعددا هائلا من المقعدين والمحتاجين واليتامى والارامل هم الشعب الالماني ؟ هذا ما يجيب عن بعضه الاستاذ بيملمانز Bemelmans في كتابه « اسعد الاوقات » (١) « وفي مدرسة ثانوية المانية طلب من الطلاب ان يكتبوا كلمة عن « مستقبل المانية » ، وان يبينوا آراءهم بصدق وجرأة . وكانت جميع الكلمات التي كتبت لا تختلف عن الكلمة الآتية التي قدمها « ولد هادىء » :

« كنت عضوا في موسسة شباب هتلر ، ولست بنادم على ذلك... وكنت نازيا ، وكان يخامرني سرور عظيم بانني احد هؤلاء النازيين... وربما يرغمني احد على ان اتظاهر بعقيدة اخرى ، ولكن ما اطويه في اعماق نفسي يبقى هو وحده عقيدتي الى الابد ... رباه ! اني احب المانية ، كما هي الآن ، ارض خربة لا حول لها ولا قوة ، وسأشق طريقي في وسط هذا الخراب ، وسأجعل منها ، وبما ملكت يدي فقط ، جنة اجمل من تلك التي يحدثنا عنها الانجيل . وهذا ما اهدف اليه في المستقبل » .

وبعد ان فرغ مؤلف الكتاب المذكور من قراءة الكلمة قال المدرس وقد تجهم وجهه : « اعتقد ان اي شعب من الشعوب يفتخر بمثل هؤلاء الاطفال » .

---

(1) Benelmans, Ludwing, The Best of Times.
اقتطفنا هذه الفقرة من هذا الكتاب الذي ظهر بعد الحرب العالمية الثانية.

مصادر الفصل الرئيسة

1 — Fletcher, A.W., Education in Germany, Cambridge, W. Heffer & Sons, 1934.

2 — Hans, Nicholas, Comparative Education, London, Routledge & Kegan Paul Limited, 1949 .

3 — Hitler, Adolf, Mein Kamph (Complete, and Unbridged) Reynal & Hitchcock, New York, 1940.

4 — Maxey, Chester C. ,Political Philosophies, (Revised Edition) New York, The Macmillan Company, 1948.

5 — Rugg, Harold (General Editor) Readings in The Founations of Education, Vol. 1, Bureau of Rublications, Teachers College, Columbia University. New York, 1941.

6 — Wasserman, Louis, Modern Political Philosophies, The New Home Library, 1947 (Repinted).

٣ - الدولة الفاشيستية

يعتقد اكثر المؤرخين ان ظهور الدولة « الكلية » في مطلع القرن العشرين كان امرا لابد منه ، وان الحرب العالمية الاولى ، وما جرت وراءها من ازمات اقتصادية واجتماعية وآلام انسانية ، كانت عاملا مهما من عوامل انتشارها وظهور الحركات القومية في الاقطار الاوروبية، ولاسيما بعد ان باءت جميع المحاولات التي بذلت عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى من اجل العودة الى الحالة « الاعتيادية » بالفشل . فقد بلغت الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية درجة من السوء بحيث تطلب الامر وجود دولة قوية تستطيع ان تصلح الاوضاع الفاسدة ، وتخفف من حدة الصراع الطبقي . وكانت ايطالية احدى هذه الدول التي منيت بهذه المشاكل ، واصطرعت فيها هذه الطبقات . ومع ان النظام البرلماني قد عاد من جديد الا انه لم يستطع ان يعيد الناس الى حالتهم «الاعتيادية»، ويبشرهم بأمل جديد . بل حدث عكس هذا ، فقد مرت ايطاليا في سلسلة من الازمات ، فما ان خرجت من ازمة الا وداهمتها ازمة . وفي مثل هذه الفترة المضطربة من تاريخها الحديث ظهر الحزب الفاشيستي ، وهاجم الاوضاع القائمة هجوما عنيفا ، والتحق به عدد كبير من الانصار والمناضلين .

وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٢ قام اصحاب « القمصان السوداء » الفاشيست « بانقلاب » عسكري خاطف ، وزحفوا على روما ، واستولوا على الحكم . ويعد هذا اليوم

نقطة تحول في تاريخ ايطاليا الحديث ، وايذانا « بالثورة الفاشيستية » . ولم تكن الفاشيستية استمرارا للنظريات القومية الانسانية التي جاء بها كافور ومازيني ، بل كانت، في الاعم الاغلب ، حركة قومية عدوانية . اريد بها ان تضمن لايطاليا الاستقرار والتوسع والفتح ، وانتكاسة منيت بها القومية الانسانية في ايطاليا بعد الحرب العالمية الاولى كما منيت بها المانيا . ولاشك ان « التقاليد القومية » التي ترعرعت في ايطاليا ، ونادى بها فريق من القوميين امثال كافور ومازيني ، كانت معينا صافيا للنظريات الفاشيستية والدولة « الكلية » .

مازيني :

وكان مازيني (١) رجلا ثوريا ، وسياسيا متطرفا ، ووطنيا ايطالياً عنيفاً لا فيلسوفاً قومياً ، كما كان فيشته . وقد تأثر بالمثالية الانسانية ،

---

(١) بدأ مازيني حياته السياسية الثورية عضوا في جمعية سرية، واسس في سنة ١٨٣١ جمعية « ايطاليا الفتاة » التي كانت تهدف الى توحيد ايطاليا وتحريرها وتأسيس نظام جمهوري ديمقراطي فيها . وكان يرى ان هذا التحرير لا يتم الا بثورة مسلحة . وفي سنة ١٨٣٤ اسس جمعية « اوروبا الفتاة » التي ضمت اعضاء ينتمون الى قوميات اوروبية مضطهدة كثيرة . وكانت هذه الجمعية تؤمن بالحرية والمساواة والاخوة . وفي سنة ١٨٤٠ اسس جمعية للعمال ، ونشر اول مؤلف من مؤلفاته في « واجبات الانسان » ، واتصل باقطاب « الدولية الاولى » ، امثال ماركس وبوخانين ، ثم انفصل عنهما بعد ان لمس فيهما طغيانا مادياً جارفاً .

وجمع بين نظرة كانت « العالمية » وقومية فيشته « الاقليمية » . وكان يعتقد ان القومية مرحلة من مراحل تطور الانسانية ، وان لكل امة مشكلة خاصة بها ، وان حلها كسب للرسالة الانسانية العامة ، وان هذه الرسالة توئلف قوميتها ، وان القومية رسالة مقدسة ، او هي ، كما قال في سنة ١٨٣٤ « اداة مقدسة وجدت لمصلحة الانسانية » ، وانها والديمقراطية يمهدان السبيل لاتحاد العالم الذي « سيقضي على جميع اسباب الحروب ، وان طريق التقدم ستشقه روح اخوية وتنافس سلمي ، وان المصالح القومية لا تتعارض بعضها مع بعض ، بل ينبغي ان تساعد كل قومية من القوميات شقيقتها الاخرى لتنال حريتها واستقلالها .

وكان مازيني في رأي اكثر المؤرخين ، رجلا من رجال الاحلام ، وسياسيا بعيدا عن الواقع ، وانسانا مستقيما الى ابعد ما تذهب اليه الاستقامة ، وصادقا في دعوته السياسية لتوحيد ايطاليا في دولة واحدة الى ابعد ما يذهب اليه الصدق . غير ان المؤامرات والدسائس السياسية لم تمهله كثيرا ، فقضت عليه وبددت احلامه ، ولم يترك وراءه الا فيضا من الحماس الذي مهد السبيل لنجاح حركة كافور الايجابية . وطرأت على « مثاليته » تبدلات كثيرة ، اسوة بفيشته ، وصارت عبارة « القومية مقدسة » شعارا لجميع القوميين الذين جاؤا بعده .

موسوليني :

وحينما استولى موسوليني على الحكم وجد امامه تراثا غنيا بالنظريات القومية ، وكانت فلسفته الفاشيستية لم تستقر بعد في اطار

ثابت جديد ، وفي فلسفة متكاملة العناصر . فأكتست اثوابا فضفاضة عدة ، تميل الى القصر مرة والى الطول اخرى . والحقيقة ان الفاشيستية الايطالية كانت محصول ثلاثة اتجاهات تمخضت عنها الحياة الايطالية : الاتجاه نحو ضرورة تكوين دولة قوية ، وتعود هذه التقاليد الى ايام دانتي وميكافللي ، والاتجاه نحو توحيد ايطاليا في دولة قومية كما عبرت عنها الكتابات الفلسفية التي ظهرت طوال القرن التاسع عشر ، والاتجاه نحو الفكرة المثالية عن الدولة ، كما بشر بها هيكل ، وبقالبها الايطالي . وتمثل الفاشيستية مزيجا من هذه الاتجاهات الثلاثة . فهي ليست حركة سياسية مجردة ، بل حركة كلية تؤثر في كل ناحية من نواحي الدولة وحياة الامة القومية ، وتؤثر في علاقة الفرد بالدولة ، وتعني بقضايا البلاد الاقتصادية كما تعني بتيظيماتها السياسية ، وبالاسس الروحية للوجود والمادية ، وتسعى الى ايقاظ غرائز الشعب الرسية والقومية ، وتبعث في ابنائه اعجابا حيا بماضيهم التليد ، يوم كانت روما وايطاليا مدار العالم السياسي والثقافي والروحي » . (١)

وكانت الفاشيستية خليطا من عناصر عدة : من القومية والاشتراكية والسنديكالية والكاثوليكية والتقاليد الرومانية . او هي ، كما يقول الاستاذ ماكسي « مزيج من مركبات عدة امتزجت بعضها مع بعض امتزاجا عجيبا . فقد استعارت نظرياتها من ميكافيللي ، وهوبز ، وفيشته ، وسوريل ، وموسكا ، وشوبنهاور ، وبيرغسون ، وجيمس ، وباريتو .(٢) ولم يستطع موسوليني في اول الامر ان يصوغ من هذه التراكيب فلسفة جديدة متميزة بالرغم من الجهود التي بذلها هو واتباعه ، ولكنه استطاع

(1) Knadel, I., Comparative Education, P., 55—56.
(2) Maxey, Chester C., Political Philosophies .P., 638—39.

بعد مضي مدة من الزمن ان يسبغ على حركته الفاشيستية فلسفة خاصة لاسيما بعد ان انضم اليها بعض الانصار والمريدين المعروفين .

فقد صار من دعاة الفاشيستية استاذان شهيران هما ، الفريد روكو Rocco استاذ القانون في جامعة بادوا Padua سابقا والذي عين بعدئذ وزيرا للعدل ، وجوافاني جنتيلي ، فيلسوف المدرسة الهيكلية في ايطاليا والذي عين وزيرا للمعارف سنة ١٩٢٢ . وقد قبل جنتيلي ، كما سيأتي ذكره ، نظرية هيكل عن الدولة من حيث هي ذات عليا ، وصورة من صور تحقيق « الفكرة المطلقة » او « روح التاريخ » ، وقد توج آراءه بقومية مازيني التي نظرت الى القيم الخلقية والدينية والسياسية نظرة كلية واحدة ، ثم حور فيها ووسمها بطابع استعماري ضيق ، وحول القيمة النسبية لكل قومية من القوميات ضمن الحدود الانسانية الى قيم مطلقة للدولة الايطالية التي وضع لها رسالة عالميه شبيهة برسالة الامبراطورية الرومانية ، وذهب الى ان رسالة الشعب الايطالي التاريخية هي تحقيق هذه الرسالة ، واعتقد ان مصالح الافراد والجماعات والطبقات في ظل هذه القيم المطلقة لا محل لها ، وان رسالة الدولة الفعالة والحركية هي رعاية مجموعة من الافكار والآراء والمصالح وتحقيق فلسفة خلقية .

وكان موسوليني وانصاره يقولون ان الفاشيستية ليست فلسفة مستقرة ، تضمها تعابير ومعايير سياسية ثابتة، بل فلسفة تقدمية وعملية. ومما قاله : « نحن لا نعتقد باتباع مناهج عقائدية يحيطها اطار ثابت ، بل نحيز لانفسنا ان نكون ارستقراطيين وديمقواطيين ، محافظين

وتقدميين ، رجعيين وتوروبين ، قانونيين وخارجين على القانون ، كل ذلك في حدود الزمان والمكان والبيئة - وبعبارة اخرى نكيف انفسنا الى عالم التاريخ الذي نجد انفسنا فيه ، ونعيش ونعمل فيه » .

والفاشيستية لا تؤمن بالنظريات الديمقراطية في الحرية والتمثيل والسيادة ، وتعتبر المجتمع (او الدولة) لا يتكون من مجموع الافراد الذي يعيشون فيه، وانما يتكون من هؤلاء واكثر، وتحسبه حلقة توصل الحاضر بالمستقبل، وشيئا له غايات خاصة هي انبل وابعد من غايات الافراد - غايات خلقية وروحية تتناول اللغة والثقافة والدين والعادات والمشاعر والارادة والمصالح الاقتصادية والظروف القائمة ، والاقليم الجغرافي . وتستطيع ان تسير ، بالقيم الخلقية الخـــالدة ، نحو المثل القومي الاعلى . والفاشيستية تؤمن ، خلافا لما تذهب اليه النظرية الميكانيكية ، بنظرية الدولة « العضوية » والتاريخية التي تنفرد في اغراضها وتكوينهـــا ، وتجعل مصلحتها فوق مصالح الافراد واغراضهم - بل تصبح الدولة في حد ذاتها غاية ، ويصبح الافراد في الوقت نفسه الادوات التي تستخدم في تحقيق هـــذه الغاية ، وسيجدون لذتهم وسعادتهم عند سعيهم لفهم طبيعة هذه الغاية التي رسمتها الدولة . كما تصبح الحرية ، في مثل هذه الدولة ، لا تعني ادراك الذات ، ولا التعبير الذاتي للفـــرد ، بل « احتلال » الانسان باسم الدولة ومصلحتها ، وتحسب الحرية الفردية هبة من الدولة تستطيع ان تمنحها او تنتزعهـا عن اي فرد من الافراد لا حقا من حقوقهم الطبيعية ، وان اسمى القيم الخلقية تنبثق من الواجب لا الحرية ، وان مفهوم السيادة في الدولة الفاشيستية يختلف عن مفهومه

في الدولة الديمقراطية . فالامة لا تستمد سيادتها من الافراد ، ولا من ممثليهم المنتخبين في المجالس النيابية الذين اختيروا ، في الاعم الاغلب ، على اساس المصالح الحزبية او مصالح الناخبين ، بل تستمدها من اولئك الرجال الذين يستطيعون ان يرتفعوا بالدولة فوق المصالح الخاصة الآنية ، ويحققوا امانيها في منظومة واحدة تتصل بماضي الامة وحاضرها ومستقبلها . واحسن الحكام هم القادة . فهؤلاء لا يستمدون سلطتهم من المحكومين ، من الجماهير الجاهلة التي لا تدرك الا مصالحها الخاصة ، بل من سلطة عليا اخرى . وهكذا تصبح الحكومة هيأة عليا تتمتع بالسلطات وتتحمل التبعات . وشعارها النظام والسلطة والضبط . (١)

موسوليني والدولة :

وكان موسوليني يعتقد ان الدولة « ضمير الانسان العام وارادته من اجل وجوده » . (٢) وقد اوضح هذه الفكرة الميتافيزيقية في كتابه « العقيدة السياسية والاجتماعية للفاشيستية » حينما قال : « ليست الدولة بالنسبة الينا نحن الفاشيست امينة وحارسة تكرس جهودها من اجل المحافظة على سلامة المواطنين الشخصية حسب ، وليست هي منظمة ترمي الى تحقيق اهداف مادية مجردة ، كالتعهد بضمان مستوى معين من الرفاه المادي وبتهيأة ظروف حياتية سلمية ، اذ يكفي لتحقيق هذه الاغراض مجلس ادارة ، وليست الدولة خلقا سياسيا مجردا وبعيدا عن

(1) Kandel. I., Comparative Education, P., 67.

(2) "Universal Conscience and will of man in his historical existance."

الواقع المادي المعقد الذي يؤلف حياة الفرد وحياة الشعب تأليفا كليا موحدا ، وانما الدولة ، كما تراها الفاشيستية وتريدها ان تكون ، حقيقة روحية وخلقية اذا ما عبرّت منظماتها السياسية والتشريعية والاقتصادية عن حاجة الامة : وينبغي ان تعبر هذه المنظمات في اصولها وتطورها عن روح الامة. واذا ضمنت الدولة للامة سلامتها الداخلية والخارجية كانت حارسة لمصالح الشعب وممدّة في روحه - هذه الروح التي نمت خلال العصور وعبرّت عن نفسها في اللغة والعادات والعقيدة . وليست الدولة حقيقة حية في عالم اليوم حسب، بل هي حقيقة موصولة بالماضي ومتصلة بالمستقبل . ولهذا فانها تتعدى حياة الافراد الضيقة ، وتمثل الروح الفطرية للامة . وقد تتبدل الصور التي تعبر الدولة بها عن نفسها ، الا ان حاجتنا لمثل هذه الصور تبقى خالدة . ثم ان الدولة هي التي تربي مواطنيها على الفضائل الاجتماعية ، وتلائم بين مصالحهم المختلفة على اسس عادلة . وهي التي تنقل للاجيال القادمة الانجازات العقلية في العلم والفن والقانون .... وهي التي تنقل الناس من حياة قبلية ابتدائية الى ذلك التعبير الاعظم لقدرة الانسان الذي يتجسم بالامبراطورية . وكلما مر الزمن تخلد الدولة اسماء اعضاء هذه الامبراطورية الذين استشهدوا دفاعا عنها ، وتجعل ... من ذكريات القادة الذين وسعوا رقعتها والعباقرة الذين اناروا سبلها بمآثرهم امثلة تحتذيها الاجيال القادمة . وحينما تتوارى هذه النظرة الى الدولة وتظهر اتجاهات تفريقية تبعيدية ، فردية كانت او جمعية ، ينتاب الامم التي تشرأب فيها طلائع هذه الظواهر الانحطاط » . (١)

---

(1) Maxey, C.C.,Political Philosophies, P., 639—640.

وقد استنكر موسوليني النظرية الميكانيكية للدولة ، ونظر الى الدولة الفاشيستية من حيث هي تركيب جديد تام لا اداة مجردة ينال بها الافراد اغراضهم - تركيب يتألف من حدين هما الفرد والمجتمع ، وتنال الامة به حياة ونظرة تتعدى حياة الافراد ونظراتهم . وقد عبر جنتيلي عن الفكرة نفسها في مقال كتبه عن « الاسس الفلسفية للفاشيستية » ، ومما ذكره ان الفرد والدولة « حدان لا ينفصلان لتركيب ضروري » .

يتضح من هذه الزخرفة اللفظية والتعابير الميتافيزيقية ان الافراد لا يملكون في الدولة الفاشيستية حقوقا بل واجبات ، وان نظرية الدولة التي عبرت عنها الفاشيستية تستند الى نظريات هيكل من حيث هي « كلٌ خلقي ethical whole . فالهيكلية ترى ان وجود الفرد الروحي او الخلقي متصل بوجود الدولة ، وانه لا يستطيع ان يطالب بحرياته في معزل عن تشريعات الدولة نفسها . وقد استفادت الفاشيستية من هذه النظرية استفادة كبيرة ، وعبر عنها انصارها تعبيرا واضحا . ومما قاله روكو : تنحصر فكرتنا عن الحرية في نقطة واحدة ، وهي ان الفرد لا يستطيع ان ينمي شخصيته الا اذا كان ذلك موافقا لمصلحة الدولة ، وان الحرية لا تسبغ على الافراد والطبقات الا اذا كانت في مصلحة المجتمع بصورة عامة وفي حدود الضرورات الاجتماعية ، وانها هبة تمنحها الدولة الى الافراد .وقد شرح موسوليني الفكرة نفسها حينما قال : « لا يزول الفرد في الدولة الفاشيستية بل يتضاعف، شأنه في ذلك شأن الجندي في فصيله . فهو لا يزول بل يزداد قوة بعدد جنود فصيله . والدولة الفاشيستية تنظم صفوف الامة ، غير انها تمنح

الافراد حريات كافية ، وتجردهم من جميع الحريات الضارة وغير النافعة ، وتهبهم حرياتهم الاساسية . وفي مثل هذه الحالة لا يصبح الفرد هو العامل المقرر وانما الدولة وحدها » .

وذكر جنتيلي ان للفاشيستية حلولا خاصة لمشكلتي الحرية والسلطة . فالدولة تتمتع بسلطة مطلقة لا تقبل الاخذ ولا الرد ، ولا تتنازل عن اي جزء منها من اجل مباديء خلقية ودينية تتعارض وضمير الفرد . هذا من جهة ، اما من الجهة الاخرى فالدولة لا تصبح حقيقة من الحقائق الا اذا حدب عليها افرادها ، واحاطوها بسياج من شعورهم الفياض . والدولة الفاشيستية تمثل هذه الفكرة في علاقة الدولة بالافراد ، والحرية بالسلطة .

ويبدو مما شرحناه ان الحرية الفردية لا وجود لها في الدولة الفاشيستية ، فهي حرية جمعية وليست فردية ، ومقيدة وليست مطلقة ، اكتسابية وليست طبيعية ، وان النظرية الفاشيستية تستند الى النظرية المطلقة Obsolutism التي جاء بها هوبز Hobbes في القرن السابع عشر ، والتي تذهب الى ان الفرد لا يدرك ذاته الا بالاستسلام لسلطة مطلقة .

وقد كان الفاشيست يستهزئون بالنظم الديمقراطية وبالاكثرية البرلمانية ، ويحسبون الجماهير غير قادرة على ان تحكم نفسها من الناحية الخلقية والقانونية. ومما قاله موسوليني : « تحارب الفاشيستية النظم المعقدة للعقائد الديمقراطية جمعاء وتشجبها ، سواء في مقدماتها النظرية او تطبيقاتها العملية ، وتنكر ان الاكثرية تستطيع بحكم اكثريتها

ان تقود المجتمع الانساني ، وان مجموعة الاعداد تستطيع بالاستشارات الدورية (الانتخابات البرلمانية) ان تحكم نفسها . وتعترف الفاشيستية بالتفاوت الموجود بين الناس وتعده امرا ثابتا ونافعا ومثمرا ، وترى ان هذا التفاوت (او عدم المساواة) لا يزول نهائيا بعملية ميكانيكية مجردة هي عملية الانتخابات العامة ، وان النظام الديمقراطي يخلق بين آونة واخرى وهماً في نفوس الناس من ان السيادة تعود اليهم ، بينما السيادة الحقيقية القوية هي من صنع الايادي القوية الاخرى الخفية وغير المسئولة » .

نظرية الصفوة المختارة :

وهذا الهجوم الجبهوي الذي شنه موسوليني على النظريات الديمقراطية ليس الا انعكاسا لنظريات موسكا ومايكلز وباريتو . وعنده ان الديمقراطية كيفية وليست كمية ، وان تحقيقها لا يكون عن طريق الاكثرية بل عن طريق الاقلية ، وربما عن طريق الفرد الواحد . وهذه هي نظرية « الصفوة المختارة » التي اشرنا اليها في غير محل من هذا الكتاب . وخلاصتها ان في الناس طبقة معينة تحسن فن الحكم والادارة - طبقة من الاشخاص الذين وهبتهم الطبيعة ذكاء خاصا ، وخلقا خاصا . فكما ان بعض الافراد يتمتعون بمواهب خاصة في الرسم والتصوير والموسيقى وغيرها فان غيرهم يتمتع بمواهب سياسية تؤهله للحكم . وهي وظيفته الخاصة في الحياة لا وظيفة طبقة من الطبقات ، وحينما يتولى هؤلاء مقاليد الحكم ينال الناس اصلح حكومة ممكنة ، ويحصل كل انسان على عمل يتناسب هو وقابلياته ، وتتحقق

به منفعته الخاصة ويصل الانسان الى الديمقراطية الصحيحة - ديمقراطية الكيف لا الكم !

ولكن ما السبيل الى اكتشاف هؤلاء الاشخاص الموهوبين سياسيا ، وكيف نسلمهم قيادة الشعب ؟ لقد واجه افلاطون صاحب نظرية « الصفوة المختارة » صعوبات جمة في البحث عن هؤلاء الاشخاص . اما موسوليني فلم يواجه مثل هذه الصعوبات . فعنده ان « الصفوة المختارة » تنشأ وتترعرع في صفوف « الحزب الفاشيستي » . ففي منظماته يتدرب الشباب على تحمل التبعات ، ويبقى الاصلح ، وتتبلور الصفوة المختارة . وبعملية الانتقاء هذه يهيء الحزب الفاشيستي لكل جيل من الاجيال طبقة حاكمة ، ويظل هو في كل دور من الادوار الطبقة الحاكمة التي تدير شئون الدولة .

وتنظر الفاشيستية الى الحزب الحاكم من حيث هو ساعد الدولة الايمن ، وحارسها الامين ، بل هو الدولة ذاتها . وبعبارة اخرى ان الديكتاتورية هي الاساس الذي تقوم عليه صروح الفاشيستية ، وان جميع السلطات ينبغي ان توكل الى « زعيم » واحد هو « الدوتشي » il Duce ، يكون رئيسا اعلى للحكومة il Capo del Governo . ولا يعد « الزعيم » في النظريات الفاشيستية طاغية من الطغاة ولا حاكما مستبدا ، بل مبعوثا روحيا تتجسد فيه صورة الدولة ، وتنبعث منه ارادتها .

الدولة النقابية :

ان مبدأ « الكلية » الذي اتسمت به التنظيمات الفاشيستية السياسية ينطبق كل الانطباق على التنظيمات الاقتصادية . فاذا كانت

الديمقراطية تؤمن بنظرية المنافسة الحرة والتشبث الفردي في النواحي الاقتصادية ، بحيث يسعى كل فرد من الافراد الى تطمين مصالحه الخاصة بطريقته الخاصة ، فان الفاشيستية لا تؤمن بهذه النظريات الاقتصادية الاتباعية القائمة على الفلسفة « الفردية » ، وتعتقد ان المصالح الجمعية فوق الاعتبارات الفردية، وان جميع انواع الملكية والخدمات الاقتصادية الاخرى ينبغي ان تستخدم لمصلحة الجماعة ، لا لفرد من الافراد ، ولا لطبقة من الطبقات . وكان التنظيم « النقابي » اعظم مظهر من مظاهر تنظيم الحياة الاقتصادية في الفاشيستية . وفي هذا يقول ادوين فون بيكيرات Edwin Von Beckerath في « موسوعة العلوم الاجتماعية » : ان الدولة النقابية Corporate صورة منظورة لفرض سلطان الدولة الاعلى على الطوائف الاقتصادية والاجتماعية ، وانها تشجع المشاريع الفردية وتحافظ على النظام الرأسمالي . ففي الحالة الاولى تكون قد اتبعت معظم الوسائل العملية والممكنة لصيانة المصالح القومية . وفي الحالة الثانية تكون قد سارت وفق احسن طريقة مناسبة في الانتاج . وفي المادة التاسعة من دستور حركة العمال Carto del lavora نجد ان الفاشيستية تطالب ، على نقيض عقائد التسيب في الحرية الاقتصادية ، بضرورة تدخل الدولة في عمليات الانتاج اذا ما اتضح ان المبادءة الفردية اصبحت لا تتكافأ مع الواجب الملقى عليها ، او حينما تتعرض المصالح السياسية الى الخطر . (١)

وحينما شرّعت الفاشيستية قانون النقابات Corporation Act

(١) انظر مادة الفاشيستية Faschism في المختارات من موسوعة العلوم الاجتماعية .

سنة ١٩٣٤ تبلورت نظرية الدولة النقابية ، وصار هذا القانون وسيلة من وسائل تنظيم حياة الشعب السياسية والاقتصادية . فانتظم العمال المحليون في نقابات للعمال Syndicates ، واصحاب العمل في نقابات اخرى ، وارتبطت الاولى باتحادات عمال لوائية Provincial والثانية بنقابات لوائية تضم اصحاب العمل ، واتصلت هذه الاتحادات باتحادات محلية واتحادية Confederation ، وانتظمت جميع هذه النقابات والاتحادات في ٢٢ نقابة قومية للعمال واصحاب العمل ، واصبح لكل واحدة من هذه النقابات مجلس يضم ممثلين عن العمال واصحاب العمل . وتوألف « مجالس النقابات » ، وعددها ٢٢ مجلسا ، « مجلس النقابات القومي » National Council of Corporations الذي يتمتع بصلاحيات عظيمة في تنظيم شئون التجارة والصناعة والسيطرة عليها . ولم تضم اللجنة المركزية « لمجلس النقابات القومي » ممثلين عن الاتحادات وحدهم ، بل سكرتير الحزب الفاشيستي وجميع وزراء الدولة . وقد كان « الدوتشي » رئيس « وزارة النقابات » ايضا Ministry of Corporations ، واستطاع بهذا التنظيم النقابي ان يكون دولاب الحركة الاقتصادية وزعيم المنظمات السياسية في آن واحد .

وكان زعماء الحركة الفاشيستية يعتقدون ان اعظم عمل قامت به الدولة « النقابية » هي انها استطاعت ان توجد تفاهما وانسجاما بين الرأسمالية والبروليتاريات - تفاهما ساعد على تكوين « دولة عضوية » في ايطاليا . وجدير بالذكر ان « النقابية » Corporation مصطلح يستعمل في النظريات السياسية للدلالة على نقابات العمال وجمعيات اصحاب العمل من جهة وعلى « مجالس النقابات » و « مجلس

النقابات القومي » من الجهة الثانية ، وان وظيفة هـذا المجلس كانت تنحصر في تكوين تناسـق وانسجام بين هذه الاعمال (١) . غير ان هذا الانسجام الذي اوجدته الدولة « النقابية » من جراء تدخلها في تنظيم العمال لم يكن خلوا من الاكراه والضغط . ولعل من اهم ما نجم عن هذا التدخل في شـؤون العمل والعمال تعـذر قيام العمال بتأسيس نقابات خاصـة بهم تتناول جميـع انواع المهن والحرف والصناعات . وقد كانت اجور العمال تقرر بموجب دستور العمل ، وتخضع الى ثلاثة مقاييس : ضرورات الحياة ، وامكانيات الانتاج ، وارباح العمل . واذا علمنا ان الدولة النقابية كانت في تكوينهـا هرمية ، شـأنها في ذلك شـأن الحزب والدولة ، وان المرجع الاعلى والنهائي لكل قضية من القضايا هو موسـوليني ، ادركنا ما للعمال من حرية ، وما للرأسـمالية من سـلطان على الدولة .

العدوان في الفاشـيستية :

اعتنقت الفاشـيستية ، كمـا اعتنقت النازية ، نظرية سـوريل في العنف ومجدتهـا . وقد برزت الفاشـيستية اسـتخدام العنف للوصـول الى السلطة ، وحسبته ضرورة عملية وخلقية من ضروزات تحقيق رسـالة الفاشـيستية المقدسـة ، كما برزت اسـتخدامه في السياسـتين الداخلية والخارجية . وتعـد الفاشـيستية الحرب ضربا من ضروب العنف . وامتحانا لشجاعة الفرد والامة . وقد اشـار الى هذا موسـوليني نفسه ، ونظر الى السلام من حيث هو فرضـية معادية الى النظريات الفاشـيستية .

(1) Salvemini, Gaetano, Under The Axe of Faschism, P., 11, London. 1936 .

وقد عارضت الفاشيستية الشيوعية والاشتراكية معارضة شديدة ، وشجبت النظرية الماركسية « المادية » ، واعتقدت ان البواعث « الروحية » هي الاسس التي يقوم عليها كيان المجتمع ، وعبّأت قواها لسحق الشيوعية ، ونحت في سياستها الخارجية نحو التوسع والعدوان . فقد صرح موسوليني ان الامة التي تريد ان تحيا وتعظم ينبغي ان تكون استعمارية ، وان الدولة التي تريد ان تكون مستقلة وقوية ينبغي ان تتمتع بكفاية اقتصادية . ولهذا وجب عليها ان تشرف على صادراتها وورداتها ، وان تنظم انتاجها ، وان توسع ، عند الضرورة ، رقعتها لتصبح اقتصادياتها متوازنة ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

التربية الفاشستية

نشرت « الفلسفة الواقعية » Positivism في القرن التاسع عشر ، سيطرتها على المدارس الايطالية ، ونظرت الى المعرفة من حيث هي معرفة مجردة ، والى العلوم الطبيعية من حيث هي علوم نظرية . وكانت هذه الفلسفة تقوم على قواعد عقلية ، وتعنى بمثل ومعايير اجتماعية لا تمت الى عادات الشعب الايطالي ومثله كثيرا ، وجعلت المدارس مؤسسات صورية لا ترتبط بالحياة ارتباطا اساسيا ، واتخذت مناهج الدراسة ، وخاصة الابتدائية ، بتأثير النزعة العقلية الفرنسية والنظريات والطرق التربوية الالمانية ، صورة الموسوعات العلمية في محتوياتها وتنظيماتها .

فلسفة جنتيلي التربوية :

وكان من جراء هذه النزعة ان تعرض نظام التعليم الى انتقادات شديدة ، والى هجمات متوالية شنها بعض المفكرين والمربين . وبنمو المدرسة « المثالية » الايطالية الحديثة التي تزعمها غروتشي وجنتيلي اكتسبت هذه الانتقادات طابعا فلسفيا عميقا . واهمية كبيرة ، وبظهور الدولة الفاشيستية نحت ايطاليا في التعليم منحى جديدا ، واتخذت منه وسيلة من وسائل السيطرة والتلقين ، ووضعت سياسته على اسس فاشيستية . وكان جنتيلي خلاق هذه الفلسفة التربوية وشارحها ، فهاجم انظمة المدارس ومناهجها ، وشجب الفكرة « الثنائية » التي كانت تفصل بين العقل والحقيقة ، وشق له طريقا

وسطا ، وذهب الى ان الحقيقة لا توجدها الطبيعة بل يصنعها العقل - تصنعها الروح الانسانية بفعل التفكير المجرد ، وان هذه الروح هي الحقيقة لا غيرها ، وان التربية فلسفة تطبيقية ، وان فصل العقل عن الحقيقة والعالم ، وتحليل العمليات النفسية تحليلا بايولوجيا مجردا لا يصح ان يكون اساسا لهذه الفلسفة ، وان هذا الفصل يقودنا الى اتباع قواعد وطرق نفسية وتربوية تستند الى نظريات ميكانيكية ، ويصبح التعليم عملية ملء العقل بالحقائق والمعلومات .

لقد قال جنتيلي ان اصلاح التعليم لا يكون باعادة النظر في مناهج الدراسة ، ولا باضافة مواضيع جديدة ، ولا بانتزاع مواضيع قديمة منها ، بل باجراء تبدل اساسي في وجهات النظر التربوية ، وقبول فلسفة جديدة تقوم على « المثالية الفعالة » ، وان التربية الصحيحة تتم بالاختبار الشخصي ، بشرط ان يكون الطفل محورا لهذه العملية التربوية لا المعلم ، ولا المادة ، ولا طريقة التدريس ، وان تنظر التربية اليه من حيث هو انسان له روح ينبغي ان تتكون تكوينا حرا ، بعيدا عن القيود والضغوط ، وانه يجر معه الى المدرسة والمحيط خصائص قومية ولغوية وتاريخية وعائلية وتقاليد شعبية جديرة بالرعاية والتقدير . وهكذا جعل التربية عملية روحية ، هدفها تنمية الروح تنمية حرة طليقة ، وعملية واحدة لا تقبل الانقسام الى عدد من الاغراض والاهداف ، انها واحدة كالحقيقة التي يبتدعها العقل ... (١)

وكان جنتيلي يرى ايضا ، ان العقل شيء واحد ، وان وظيفته هي خلق الحقيقة ، وان هناك ثلاث مقولات تظهر اثناء هذه العملية

(1) Kandel, I., Comparative Education. P., 457.

الخلاقة وهي : الفنون والدين والفلسفة ، وان التربية حينما تلتقي بهذه المقولات الثلاث ينبغي ان تتحول الى فلسفة تطبيقية . ولم يقصد جنتيلي بالفنون تدريسها ، بل قصد منها تنمية الطريقة التي يستخدمها الفنان في التعبير عن فكرته في العالم ، وحسب الفنون امورا شخصية مجردة ، او تعبيرا عن الذات وتكوينا للشخصية الآدمية ، ونظر الى الدين من حيث هو ادراك شيء من الاشياء ، والتوصل الى فكرة الله . وكان يرى ان الانسان لا يصبح انسانا الا اذا صارت روحه جزءا من الروح الانسانية ، وارادته جزءا من ارادة المجموع .

وكانت اصلاحات جنتيلي ترمي الى التوفيق بين اتجاهين متنافرين : الاول تنشأة حرة وتنمية شخصية المعلم في جو بعيد عن الضغط والاكراه، والثاني اخضاع الشبان ونظام التعليم نفسه الى اهداف الدولة ومثلها العليا خضوعا تاما . ولم ينظر الى التربية من حيث هي عملية تعلم وتعليم ، بل من حيث هي شعور نام يخامر الفرد ويزيد في قيمته الروحية وقوته الابداعية ، وحسب الدولة « وحدة خلقية » وقضية روحية ، وتمثل حياة خلقية مقصودة . وكان يرى ان التوفيق بين هذين الاتجاهين المتنافرين (الحرية والسيطرة) يتم اذا ما ادرك الفرد ان كل حقيقة من الحقائق لا يستطيع بلوغها الا في حدود حياة الامة الاجتماعية . وكان يرى ايضا ان للدولة الايطالية وللامة الايطالية « رسالة » عالمية لابد من نشرها ، وفلسفة خلقية لابد من تحقيقها . ومن اجل هذا وجب عليها ان تكون « معلمة » ، وان توسس المدارس وتعممها لبلوغ هذا « الخلق » . وقد اوضح جنتيلي غاية الدولة من نشر التعليم في الفقرة الآتية :

« نؤكد اعتقادنا ان الدولة ليست منظومة من العراقيل والقيود الخارجية القانونية التي ينفر منها الناس ، بل كائن خلقي يعبر عن شخصيته وينال نموه التاريخي في مجتمع انساني مثلما يعبر ضمير المرء عن نفسه . والدولة تدرك ان مجالاتها عامة لا تحيطها حدود خاصة ، وانها مستعدة وقادرة على ان تتوسع من حيث هي تعبير عن ارادة جمعية وان بدت فردية . اما الامة فهي الارادة التي تحدد وترسم قوميتنا حينما تكون شاعرة بوجودها وبماضيها التاريخي الخاص ، وهي تخلق غاية لابد من بلوغها ورسالة لابد من تحقيقها . ومن اجل هذه الارادة ، واذا اقتضت الضرورة ، نضحي بارواحنا . ولا تكون ارواحنا اصيلة وجديرة بالاحترام وموهوبة بالقيم الثابتة الا اذا استخدمت في سبيل انجاز هذه الرسالة .

« ويتكون وعي الدولة الفعال والحركي من مجموعة آراء وافكار ومصالح ينبغي ان تطمن ، ومنظومة من مبادىء خلقية ينبغي ان تحقق ... وينبغي ان تكون الدولة معلّمة . انها توسس المدارس وتنشرها لبلوغ هذا الهدف الخلقي . وبالمدرسة تدرك الدولة وجودها الخلقي » . (١)

وقد حاول جنتيلي ان يصلح نظام التعليم وفق فلسفته الآنفة الذكر ، وان يكون صريحا في الدعوة اليها وجريئا . ومما قاله في هذا الصدد : « لا ينهض بالتعليم الا اولئك العلماء الذين يحلون مشاكلهم العلمية حلا واضحا ومعينا ، وحلولهم هذه اما ان تأتي مطابقة

---

(١) المصدر السابق نفسه صفحة ٦٨ - ٦٩.

لاهداف الحكومة التي توسس المدارس وتنشر التعليم وتنمي خلقها الخاص لتحقيق اهدافها الخاصة . واما ان تأتي مخالفة لها . واذا تناقضت مباديء العالم مع مباديء الدولة صار نشرها خطرا على سلامة الدولة . والدولة التي لا تحول دون نشرها ترتكب خيانة نحو مستقبلها الخلقي » .

وحينما اكد جنتيلي على الروح وقدرتها الكلية . وعلى الحقيقة التاريخية واهميتها قبلت الفاشيستية هذين المبدأين من حيث هما خطة تربوية اصلاحية، وعينه موسوليني وزيرا للمعارف سنة ١٩٢٢ ، وسميت الاصلاحات التي قام بها « باصلاحات جنتيلي » . (١) ولم تجد الفاشيستية تناقضا بين سلطان الروح الذي نادى به جنتيلي وسلطان الدولة او الامة الذي دعت اليه ، ولا بين النمو الفردي الذي آمن به ومبدأ المركزية الذي سارت عليه . فقد كان جنتيلي يعتقد ان ارادة الفرد وروحه تترعرعان في ارادة الآخرين وارواحهم ، وان القومية والثقافة القومية هما البيئة التي تنمو فيها شخصية الفرد . ولم يهتم بالتربية السياسية مثلما اهتم اتباعه والفاشيست . الا انه اتاح لهم الفرصة ان يستخدموا المدارس لاغراضهم السياسية حينما جعل دراسة ابطال التاريخ الايطالي تعبيرا عن القومية الايطالية والروح الانسانية .

---

(١) لقد صار من اتباع جنتيلي ومريديه شخصيتان تربويتان مهمتان هما : لومباردو رديشي Lombardo Radice مدير التعليم الابتدائي بديوان وزارة المعارف ، وارنيستو كودكنولا Ernesto Codignola مدير معهد المعلمين في مدينة فلورنسه .

وتقع على المربي في مثل هذه الدولة ، كما يقول الاستاذ كاندل ، واجبات كثيرة اهمها : اعداد المناهج الدراسية واختيار طرق التدريس التي تساعد على تكوين المواطن الفاشيستي ليصبح عضوا فعالا في مجتمعه . والى ان يصل المربون الى تلك المرحلة التي تصبح فيها العقائد الفاشيستية مقبولة من حيث هي جزء طبيعي من الحياة الاجتماعية فان واجب الطليعة الفاشيستية في مثل هذه المرحلة ينحصر في البحث عن افضل الطرق التي ينبغي ان تستخدم في تدريب انصارها الذين ستنبثق منهم القيادة والزعامة ، وان تستخدم المدرسة في تثقيف الجماهير وتلقينها بالعقائد الفاشيستية .

ولما كانت الفاشيستية دولة « خلقية » تسعى الى اعداد مواطنيها اعدادا يؤهلهم للقيام بتأدية « رسالتهم الخاصة » ، وترمي الى رفع افرادها من ادنى حياة تمثلها القبيلة الابتدائية الى اسمى تعبير تمثله الدولة السياسية ، ولما كان معنى الفاشيستية يترادف وفكرة الارادة ونظرية الامبراطورية فقد ادرك قادتها ان نشر هذه الافكار بين صفوف الايطاليين لا يمكن ان ينهض به نظام التعليم القديم . وقد واجه المربون الذين باشروا في اصلاح نظام التعليم سنة ١٩٢٣ ، وعلى رأسهم جنتيلي ، قضيتين اساسيتين : الاولى تتعلق بتعيين حدود التعليم واغراضه في ضوء مباديء الثورة الفاشيستية ، والثانية تتصل بضرورة اصلاح نواقص نظام التعليم التي خلفها « قانون كاساتي » سنة ١٨٥٩ Casati Law . ولقد اشرنا الى الفلسفة الفاشيستية آنفا ، ونضيف الى ما قلناه ان الفاشيستية تعتقد ان الدولة التي تشعر برسالتها الخلقية لها

ان تفرض على مواطنيها نوع الحكم الذي تريده ، ونوع التعليم الذي تبتغيه ، وان المؤسسات التربوية ينبغي ان ترعى الوحدة الروحية لاعضاء الدولة ، اي ينبغي ان تنمي الوعي القومي بين افرادها . (١) وقد شجبت آراء روسو المجردة والعقلية ، وعدتها هدامة لشخصية الفرد ، بينما قبلت من ناحية ثانية رأي سقراط في تنمية مثل هذه الشخصية وحسبتها الهدف الحقيقي للتربية الفاشيستية ، كما حسبت التقاليد قوة ثقافية عظيمة . (٢)

اما القضية الثانية ، فقد كان جنتيلي يعتقد ، تمشيا مع نظرياته والعقائد الفاشيستية ، ان الاصلاح التربوي لا يتم الا اذا خضع لادارة مركزية . ولذلك قام باجراء سلسلة من الاصلاحات الادارية في مختلف مراحل التعليم ، وفي ديوان وزارة المعارف نفسه . حتى لقد ذكر موسوليني ان « الانضباط والعمل والانسجام » لا تتكون الا بوجود سلطة ادارية عليا . ومن اجل هذا اطلق على « وزارة التدريس العام » اسم « وزارة التربية القومية » .

وتناولت اصلاحات جنتيلي كذلك نظام المدارس الابتدائية والثانوية واعداد المعلمين . فبدأ اصلاح التعليم الابتدائي في سنة ١٩٢٣ ، وقضي على اكثر المساوىء التي جاء بها قانون كاساتي ، لاسيما جعل مدارس البنين الابتدائية منفصلة عن مدارس البنات ، واخذ

(1) Kandel, Comparative Education, P., 297.

(٢) راجع مقال ادوين فون بيكارات في موسوعة العلوم الاجتماعية عن الفاشيستية الذي سبقت الاشارة اليه .

التعليم يتحول شيئا فشيئا من العناية بالمعلومات المجردة الى العناية بالطفل وحاجاته ، وبالمجتمع ومطالبه .

اما في ميدان التعليم الثانوي فقد وجه المثاليون الذين التفوا حول غروتشي وجنتيلي انتقادات شتى عارضوا فيها مبدأ المساواة في الفرص التربوية ، وعزوا اليه ملء المدارس الثانوية بطلاب تنقصهم القابليات الخاصة لمثل هذا النوع من التعليم ، واغراق المعاهد العالية بمجموعة كبيرة منهم ، مما ادى الى حدوث عطالة كبيرة بين جمهور المتعلمين . وحينما تقلد جنتيلي منصب وزارة المعارف ذهب الى ان اصلاح التعليم الثانوي يتم بانتقاء اصحاب القابليات الخاصة فقط ، وتنويعه . ومع ان المدارس قد صارت بعد ذلك متنوعة الا انها ظلت محتفظة « بهدف ثقافي عام » . وقد كان التعليم الثانوي « موسوعيا » ونظريا ، ويعني بايصال المعلومات فقط ، وبمظاهر الثقافة لا جوهرها ، ويستعين بالكتب المدرسية القديمة لدراسة الآداب لا الآداب نفسها ، ويعني بالنظريات العلمية لا المشاهدة والاختبار . اما جنتيلي فقد كان يعتقد ان التربية معناها نمو الشخصية ، ونضج الروح ، وتكوين الفرد تكوينا انسانيا ، وان عليها ان تكافح الاستظهار و « الدرخ » وتثير حب الاستطلاع ، وتخلق الفهم وتدربه ، وتنمي الذوق وتحسنه ، وتنظر الى تراث الانسان الاجتماعي نظرة تقدير ، والى الطالب من حيث هو انسان وفرد ايطالي . وكان يرى ان اول واجب من واجبات التعليم الثانوي هو تعريف الطلاب بالدراسات الانسانية والحرة ، وتزويدهم بثقافة عامة لا خاصة ـ ثقافة تستند الى اللغة اللاتينية والادب اللاتيني .

اما في ميدان اعداد المعلمين فقد ذهب جنتيلي الذي وجه اهتمامه الى المباديء الانسانية، ويقظة الروح ، وتنمية شخصية الانسان الى ان دور المعلم ينحصر في مدى ادراكه لمعنى التقاليد الايطالية والمباديء الانسانية من جهة والنزوع الباطني الذي يتصف به الطلاب للتعبير الروحي والفاعلية الروحية من الجهة الثانية . وبعبارة اخرى كان جنتيلي يعارض الطرق الاتباعية في اعداد المدرسين ، ويدعو الى اساليب جديدة في ضوء فلسفته الآنفة الذكر . وكان الاستاذ ارنيستو كودكنولا من اشهر دعاة هذ الاصلاح . فقد نظر الى التربية من حيث هي عملية روحية ، وحسب ان الطريقة المثلى في اعداد المدرسين لا تكون بدراسة مباديء ، وطرق التدريس ، وانما بالتوغل في اعماق الروح الانسانية ، ونظر الى طرق التدريس من حيث هي تعبير عن كيان روحي . فلا التخصص بالمعلومات ، ولا التبحر بها بشكل « موسوعي » يصنعان وحدهما المدرس الصالح ، وانما العقل الفعال والارادة الماضية والذوق السليم . وعنده ان المسألة لا تنحصر في تزويد الطلاب بقدر من المعلومات بل الوصول الى ارواحهم وايقاظها ورفع قدرها . وهذا ما ينبغي ان يدركه المدرس . ويضيف الاستاذ كودكنولا ان هذا الاعداد يتم بدراسة الفلسفة والانسانيات ، (١) وان التربية تؤلف جزءا من هذه الفلسفة .

وفي سنة ١٩٣٣ طلب من كل معلم واستاذ ان يختار احد امرين : اما ان ينتمي الى الحزب الفاشيستي ويصبح عضوا فيه ، واما ان يؤدي يمين الولاء والاخلاص الى « الدوتشي » ويؤمن به ، ولا

(1) Kandel, I., Comparative Education, P., 587 — 588.

ينقلب عليه . وقد استجاب الى هذا الطلب جميع الاساتذة والمعلمين الا احد عشر استاذا كان مصيرهم الفصل . ويؤدي المدرسون قبل تعيينهم في وظائف الدولة هذا القسم اسوة بغيرهم من الموظفين : « اقسم بالولاء نحو الملك وورثته ، وبالمحافظة على الدستور وقوانين الدولة الاخرى بكل اخلاص ، وبقيامي بواجبات الوظيفة بجد واجتهاد وفي سبيل المصلحة العامة ومصلحة الدولة ، وبالمحافظة على اسرار وظيفتي تماما ، وبسلوكي في اموري العامة والخاصة مسلكا يتفق ومقتضيات مركزي . اقسم بانني لا انتمي ولن انتمي الى جمعيات واحزاب يتعارض نشاطها مع واجبات وظيفتي . اقسم بانني سانجز جميع واجباتي من اجل تحقيق غرض واحد - من اجل الخير الذي يتمثل في ملكي ووطني » .

« اعتقد ، واطع ، وحارب » :

واجهت الدولة الفاشيستية في اوائل تكوينها قضيتين مهمتين : قضية تثقيف الجماهير بالمباديء الفاشيستية عن طريق المدارس والصحافة والاذاعة ، وقضية اعداد جيل جديد من الشبان يؤمن برسالتها ويسعى لتحقيقها ، ويتولى بعد ذلك قيادتها . ومما قاله موسوليني في هذا الصدد: « على مدارسنا ان تلهم المثل الفاشيستية العليا ، وهذا ما تطالب به الحكومة ... وان يتولى نظام التعليم في ايطاليا اعداد الشباب بصورة يجعلهم قادرين على تفهم الفاشيستية في كل صف من الصفوف ، وفي كل مرحلة من مراحل التدريس ، وان يبعثوا انفسهم في هذه المثل ، وان يعيشوا في الجو التاريخي الذي اوجدته الثورة الفاشيستية » .

وقد حققت الفاشيستية هدفها الاول عن طريق المدارس العامة . اما الهدف الثاني فقد توصلت اليه بالحزب ومنظماته ، فقد استعار موسوليني نظام « الرواد » و « الكومزومول » من روسية الشيوعية ، وألف للشباب الايطالي عدة منظمات سياسية ، كل منظمة لها اهدافها وتشكيلاتها ، واشتهرت في اكثر اقطار العالم ، وصارت نموذجا من نماذج التنظيم الفاشيستي . وفي سنة ١٩٣٧ اتحدت جميع هذه المنظمات في مؤسسة واحدة ، واتخذت لنفسها شعارا خاصا هو : « اعتقد وأطع وحارب » . ويؤدي كل شاب يريد الالتحاق باحدى هذه المنظمات يمين الولاء والطاعة الى « الدوتشي » ، وهذا نصه :

« اقسم بالله وبايطاليا انني سأنفذ اوامر الزعيم ، وسأبذل قصارى جهودي ، واذا اقتضى الامر اضحي بحياتي كلها ، في سبيل خدمة قضية الثورة الفاشيستية » .

وكانت المنظمات الفاشيستية للشبيبة الايطالية ، ذكورا واناثا ، تتألف على النحو الآتي :

ينخرط الاحداث الذين تتراوح اعمارهم بين :

٦ - ٨ سنوات في نوادي ابناء الذئب Figli della Lupa

٨ - ١٣ سنة في منظمة البليلا Balilla

وينخرط الشباب الذين تتراوح اعمارهم بين :

١٣ - ١٧ سنة في منظمة الطليعة Avanguardisti

١٧ - ٢١ سنة في منظمة الشباب الفاشيستي Giovani Fascisti

وقد اخذت التربية البدنية والدعاية السياسية جزءا غير يسير من اوقات الشبيبة الايطالية . فالاولى تعدهم اعدادا رياضيا وعسكريا ، والثانية تلقنهم المبادي الفاشيستية . هذا بالاضافة الى السفرات والزيارات التي كانت تقوم بها المدارس في ايطاليا وخارجها من حين لآخر .

وخلاصة القول ان التعليم في ايطاليا الفاشيستية قد كان اداة لنشر العقائد الفاشيستية ، وقام على التلقين ، واخضع الافراد الى تنظيم اقتصادي وثقافي « كلي » ، وان الدولة قد اتخذت اجراءات عدة بهذا الصدد : فجعلت ادارة التعليم مركزية منذ سنة ١٩٢٣ ، واستعملت الكتب المدرسية المقررة في جميع المدارس الابتدائية منذ سنة ١٩٢٩ ، واشرفت على طبع الكتب المقررة في المدارس الثانوية وادخلت فيها توجيها فاشيستيا ، ونقلت ادارة المدارس الابتدائية من البلديات الى الحكومة سنة ١٩٣٣ ، وأسست «منظمة الشباب القومي» (١) Opera Nozionale Dopolavoro لتعليم الراشدين وتربية الشباب تربية جسمية وسياسية وعسكرية ومهنية ودينية (١٩٢٣) ، والزمت الطلاب على الالتحاق بها ، وتأسست « الاكاديمية الفاشيستية للتربية الجسمية وللشباب » (١٩٢٧) لاعداد طائفة مختصة من المعلمين قادرة على تلقين الجيل الناشىء بالعقائد الفاشيستية ، وشرعت انظمة خاصة بادخال التعليم العسكري في المدارس (١٩٣٥) ، وجعلت تدريس الدين الزاميا في المدارس الابتدائية (١٩٢٣) والثانوية (١٩٢٩) بعد الاتفاق

---

(١) لقد كانت هذه المنظمة من الناحية العملية شعبة من شعب الحزب الفاشيستي .

الذي تم بين قداسة البابا وموسوليني . وقد نصت المادة السادسة والثلاثون من هذه الاتفاقية على ما يأتي :

« توافق الدولة الايطالية على ان يكون تدريس العقائد الدينية وفق التقاليد الكاثوليكية الاسس التي يقوم عليه التعليم العام ، والتاج الذي يتوج به هامته . وبناء على هذا فان الدولة الايطالية توافق على ان يجري تدريس الدين وفق مناهج يؤيدها قداسة البابا وتؤيدها الدولة ، على ان يناط تدريسه بمدرسين تعينهم الدولة بعد مصادقة السلطات الدينية ، ويستخدمون في تدريسهم كتبا تقررها هذه السلطات »(١).

وفي سنة ١٩٣٦ تقلد بوتائي Bottai منصب وزارة المعارف ، وضع « ميثاق العمل الفاشيستي » في سنة ١٩٢٧ الذي صار بعدئذ عنوان « الدولة النقابية » . وقد حتم هذا الميثاق على جميع العمال ان يتعاونوا مع الدولة في امور التعليم « لتحقيق الاهداف الخلقية للدولة النقابية » . وفي سنة ١٩٣٩ وضع بوتائي « الميثاق المدرسي » ، وصادق عليه « مجلس الفاشيست الاعلى في شهر شباط من السنة نفسها . (١) وكان هذا الميثاق يستهدف بث العقائد الفاشيستية وتلقينها ، والغاء الانقسام التقليدي القائم بين العمال العقليين والجسميين ، وتزويد ابناء الفقراء بتعليم ثانوي مجاني كامل ، واخضاع ما تبقى من المدارس الاهلية الى رقابة حكومية شديدة ، والعناية بالتدريب العسكري ، وتوثيق الصلة بين المدارس العامة ومنظمات الشباب الفاشيستية . ومما قاله بوتائي : يتطابق العمر المدرسي والعمر السياسي . فالمدارس ومنظمة الشباب الفاشيستي

(1) Hans, Nicholas, Comparative Education, P., 227.

وطوائف طلبة الجامعة الفاشيست Gioventu Italiana del Littorio امثال Gruppi Universitari Fascisti تؤلف كلها اداة واحدة من ادوات التربية الفاشيستية » . (١)

ولم تحدث تبدلات كبرى في نظام التعليم بالرغم من الجهود التي بذلها بوتاني . وبتأثير المانية النازية شرعت ايطالية الفاشيستية قوانين « رسية » سنة ١٩٣٨ واقصت من مهنة التعليم جميع المعلمين والاساتذة اليهود ، وعزلت الطلبة اليهود عن الطلبة المسيحية .

مصادر البحث الاساسية

1 — Kandel, I. L.. Comparative Education, Houghton Mifflin Company. New York, 1933.

2 — Maxey, Chester, Political Philosophies, The Macmillan Company (Revised Edition), 1948.

3 — Rivlin, Harry N., Encyclopedia of Modern Education, New York, 1943.

4 — Salvenini, Gaetano, Under The Axe of Faschism. London, 1936.

5 — Selections From The Encyclopedia of Social Scinces. New York, 1937.

(1) Rivlin, Harry N., Enclopedia of Modern Education, P.,415.

الخاتمة

وبعد فهذه قصة التعليم ترويها اربعة نظم سياسية : ديمقراطية وشيوعية ونازية وفاشيستية ، وتتصل كل واحدة منها اتصالا وثيقا بالدولة واهدافها ، وبالمجتمع ومثله العليا . وحيث ان كل نظرية تربوية تقوم على مفترضات اساسية منتزعة من فلسفة اجتماعية واقتصادية وسياسية معينة فان للدولة الديمقراطية والشيوعية والنازية والفاشيستية عقائد « ديمقراطية » و « كلية » منتزعة ايضا من فلسفة اجتماعية وسياسية واقتصادية خاصة . وبعبارة اخرى ان « الدولة » ، سواء أكانت ديمقراطية او شيوعية او نازية او فاشيستية ، تعبير سياسي عن العقائد السياسية لكل مجتمع من المجتمعات ، وان « المواطن » محصول فلسفة وعقيدة وحركة ، وان « المدرسة » اداة لتخليد الفلسفة « الديمقراطية » ان كانت جزءا من مجتمع ديمقراطي ، او « لتلقين » العقائد « الكلية » ان كانت جزءا من مجتمع كلي ، وان « المدرس » اعظم منفذ لهذه العقائد والفلسفات ، وقوام على تربية الافراد والمواطنين ، وحارس امين على مستقبل الامة ، وحامل لواء بعثها وتجديدها .

فهل في العراق ، او البلاد العربية الاخرى ، « دول » ذات فلسفة خاصة ، واهداف مرسومة ، ترمي الى خلق مجتمع جديد ؟ وهل فيها ، كما في غيرها من اقطار العالم ، نظم تربوية منتزعة من نظم سياسية ذات فلسفة « كلية » او « ديمقراطية » حقة ، ولها « رسالة »

جديدة ؟ واذا كان العراق محروما من « نظام » سياسي سليم ونظام تعليمي قويم فما هو واجب الطليعة الواعية من المربين والمثقفين ؟

لست متجنيا على العراق ، ولا على البلاد العربية الاخرى ، اذا ما قلت ان نظمها الاجتماعية «طبقية» تتميز بانقسامات واتجاهات تفريقية، وان نظمها التعليمية الحاضرة تعبر عن حقيقتها الطبقية والبدوية ، وانها لا تمت الى حاجاتها بصلة حقيقية ، ولا تتفق عن آمال جديدة ، وان المسيطرين على وسائل الانتاج ، من مستعمرين ورأسماليين ، هم الذين يديرون جهاز الحكم ، وهم الذين يسيطرون على شئون التعليم والثقافة ، وانهم يحاولون نشر ذلك القدر والنوع من التعليم الذي يتفق ومصالحهم الاقتصادية وآراءهم الاجتماعية وروابطهم الطبقية ، ويمكنهم من الحكم ، ويمهد لهم وللمستعمرين سبل الاستغلال .

وقد تتراءى لهؤلاء المسيطرين ، اذا ما اضطربت العلاقات الطبقية وتبدلت اساليب الانتاج المادية ، نواقص نظام التعليم وعيوبه . ولكنهم بدلا من ان يقوموا بتلافي هذه النواقص والعيوب ، ويستقر الرأي على وضع خطة اصلاحية شاملة يلجئون الى حلول تخديرية وعمليات تبعيضية ، ويجرون « ترميمات » تربوية بين حين وآخر في المناهج والانظمة والقوانين المدرسية والنظم الادارية دون ان تسبب هذه « الترميمات » تبدلات اساسية في « الكيان » التربوي والاجتماعي، او يتخبطون في مشاريعهم « الاصلاحية » غير آبهين بالتطورات والحاجات الجديدة .

ان اصلاح اي نظام اجتماعي لا يتم الا :

١ - باعتناق نظرية اجتماعية جديدة ، لها اهدافها ومثلها العليا ، ولها تنظيماتها واساليبها الديمقراطية ، ولها فلسفتها الاشتراكية وعقيدتها التربوية المنبثقة عن هذه النظرية الاجتماعية .

٢ - بتبديل ظروف المجتمع المادية . وبعبارة اخرى ان التعليم لا يتقدم ولا يتنوع الا اذا ازدادت قوة الفرد الشرائية ، وتطورت اساليب الزراعة والصناعة، وتقلص نظام الاقطاع واختفى مريدوه، وزاد الدخل القومي، وتحققت الاشتراكية الديمقراطية. وعندئذ سيجد العامل ، في مثل هذا التبدل المادي ، المعمل الذي يعمل فيه، والفلاح الارض التي يزرعها ، والمدرسة التي يريدها. وسيصبح التعليم جزءا من الحياة ، وجزءا من المزرعة والمعمل .

الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣	١٨	ويجأون	ويلجأون
٣	١٨	جددية	جديدة
١١	١٥	الاشتراكين	الاشتراكيون
٢١	١١	وهو	هو
٣٢	١٨	على	أعلى
٣٣	١	الى	(تحذف)
٣٤	٥	علئي	على
٤٠	٤	....	تضاف كلمة (والولايات المتحـــده) بعد كلمة (بريطانية)
٤٠	١١	يفعل	بفعل
٤١	١	الاتوفراطيه	الاوتوفراطية
٤٣	١٨	حمتا	حتما
٥٠	١٢	المسنبدين	المستبدين
٨١	١	الديمراطية	الديمقراطية
٨٤	١٨	التماير	التمايز
٨٦	١١	بالجسم والعقل	(تحذف العبارة)
١٠٠	٤	Geoplittic	Geopolitic
١٠١	٥	الفاشيستية	الفاشيستي

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠٢	٣	« الديمقراطية »	« بالديمقراطية »
١٣٨	٢٠	ءوسية	روسية
١٤٨	١٩	ساسية	سياسية
١٤٩	١٤	« ان الطبقة	و « ان الطبقة
١٤٩	١٧	نوسسها	توسسها
١٥١	١	او	و
١٥١	٦	تاحية	ناحية
١٦٢	١٤	تعيير	تعبير
١٧١	—	(الهامش الانكليزي)	(ينقل الى الصفحة ١٧٢)
١٧٢	—	(يصبح الهامش رقم ٢)	(رقم ١)
١٧٥	٣	تفيسر	تفسير
١٧٥	١٧	وثباتهم	ووثباتهم
١٧٦	٢١	قائما	قاتما
١٨٤	٤	تتطلب	يتطلب
١٨٥	١٠	سلاح	سلاحا
٢٠٠	١	Carporation	Corporation
٢٠١	١٥	« كليون »	« كليين »
٢٠٤	٦	الى	الى ان
٢٠٦	٤	نوردية	غير نوردية
٢٤٣	٨	ووردا تها	وواردا تها
٢٥٣	١٩	يحتار	يختار
٢٥٥	١٢	قاشيستيا	فاشيستيا

AUB LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00512636